# أساليب البيان

الأستاذ الدكتور
فضل حسن عباس

دار النفائس
للنشر والتوزيع

# أساليب البيان

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الطبعة الثانية

دار النفائس
للنشر والتوزيع

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمّان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 فاكس: 5693941
e-mail: alnafaes@hotmail.com
web: www.alnafaes.com

# أساليب البيان

الأستاذ الدكتور
فضل حسن عباس

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٧/٢/٣٦٣

٤١٠

عباس ، فضل

اساليب البيان / فضل حسن عباس. ــ عمان: دار النفائس،
٢٠٠٧.

(       ) ص

ر.أ. : (٣٦٣ / ٢ / ٢٠٠٧ ).

الواصفات: / البلاغة العربية // اللغة العربية /

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر
٢٠٠٧/٢/٤١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً، يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيد الخلق، سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم... أما بعد:

فهذا كتاب «أساليب البيان» تحدثنا فيه عن علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع، وقد توخينا فيه يسير العبارة وسهولة الأسلوب، وأن يكون موافقاً للخطة الدراسية في الجامعات، التي تدرِّس مساق البلاغة لطلابها.

وقد جعلته في ثلاثة أبواب:

**الباب الأول:** علم المعاني وتحدثت فيه عن معنى الفصاحة والبلاغة وشروط الفصاحة في الكلام، وتحدثنا فيه عن الخبر والإنشاء، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، والقصر، والإيجاز والإطناب والمساواة.

**الباب الثاني:** علم البيان، وتحدثت فيه عن التشبيه والمجاز المرسل، والمجاز العقلي، والاستعارة، والكناية.

**الباب الثالث:** علم البديع: وتحدثت فيه عن المحسنات اللفظية، والمحسنات المعنوية.

أسأل الله تعالى أن ينفع فيه كما نفع في أصله، وأسأله أن يوفقنا إلى الصواب في القول والعمل، وأن يجنبنا الزلل والخطل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

# تمهيد

## الفصاحة والبلاغة

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: الفصاحة والبلاغة تعريف ومقارنة.
- الفصل الثاني: الفصاحة والبلاغة عند علماء اللغة.

# الفَصْلُ الأَوَّل

## الفصاحة والبلاغة؛ تعريف ومقارنة

### فروع اللغة العربية:

اللغة العربية ذات علوم كثيرة؛ تنسب إليها، تتفرع منها، وتنبثق عنها، وكل علم له شأنه وشأوه، والحاجة الماسّة الداعية إليه، وكل علم له دوره الذي يقوم به، وفائدته الاصطلاحية والجمالية التي تُستفاد منه.

ومع أن لكل علم أغراضه الخاصة به؛ إلا أن هذه العلوم جميعاً يكمِّل بعضها بعضاً، فبينها صلة ورحم؛ لأنه منبثقة جميعها، ومتولدة كلها؛ من ابنة عدنان؛ لغة القرآن. فنحن نجد صلة وثيقة بين علمي النحو والصرف، ومتن اللغة وفقه اللغة، وعلوم البيان والبلاغة.

ومع أن لكل دوره - كما قلنا - إلا أن لعلوم البلاغة آثارها الحسيّة والنفسية التي تتصل اتصالاً مباشراً بمناحي الحياة المتعددة؛ دينية كانت، أو اجتماعية، أو سياسية، ذلك أن البيان هو السحر الحلال!

### مدخل إلى هذا الموضوع:

حينما نذهب نلتمس في المعاجم معنى الفصاحة والبلاغة؛ فإننا نجد أن هاتين الكلمتين لم تخرجا عن السنن المألوفة، والطريقة المعروفة في وضع العرب لكلماتهم، ونحن نعلم أن الكلمات التي ننطق بها الآن وُضِعَ أكثرها لتدل على أشياء مادية محسوسة؛ ذلك لأن العرب - كغيرهم من أمم الدنيا - لم تكن لهم في نشأتهم الأولى

إلا الأمور الضرورية التي يتعاملون معها، ويحتاجون إليها، وهي في الأغلب أمور ساذجة، لا تخرج عن الحاجات الأولى لأي أمة، فلم تكن هناك أمور معنوية، وقضايا حضارية؛ ليضعوا لها الكلمات التي تدل عليها، فأي كلمة ذات دلالة ثقافية وحضارية وفكرية؛ فإنك حينما ترجعها إلى أصل وضعها ستجد أنها وُضعت أول ما وضعت لتدل على شيء محسوس، ثم تدرجوا في استعمالها من هذا الشيء المحسوس إلى ما كانت تدعو الحاجة إليه من أمور طارئة، مع ملاحظة أن هناك صلة بين هذه المعاني التي وُضعت لها هذه الكلمات، وإن كانت قد مرت بمراحل كثيرة متباعدة حيناً، وغير متباعدة حيناً آخر.

خذ مثلاً كلمة (كتاب)؛ التي لا نكاد اليوم نذكر لها غير هذا المعنى الذي هو آلة الثقافة ووسيلة العلم، فالكتاب هو ذلك الشيء الذي يصلنا بما حولنا، وبما هو بعيد عنّا من شتى العوالم والمعارف.

ولكننا حينما ننظر في هذه المادة؛ مادة (ك ت ب)؛ نجد أن العرب وضعوها أول ما وضعوها لغير هذه الدلالة التي نجدها اليوم؛ لأنهم – بالطبع – لم يكونوا على معرفة بالقراءة والكتابة، وإنما كان وضعها لشيء هم في أمسّ الحاجة إليه، إنهم يريدون أن يستروا أجسامهم وعوراتهم، وأن يتّقوا الحر والبرد، لا بد إذن من لباس، وهذا اللباس لا بد له من خياطة وحياكة ونسج، لذا نجد كلمة (كَتَب) تدل على ضم الخيوط بعضها لبعض، فالكَتْبُ لغة إذن: الضم والجمع.

ثم تُوُسِّع في هذه الكلمة حينما دعت الحاجة، وألحّت الضرورة، وأصبح العرب قبائل متعددة؛ يغزو بعضهم بعضاً، فلا بد لكل قبيلة من أشداء يدافعون عنها، وتتقي بهم شر الأعداء؛ كما وقاهم اللباس شر الحر والبرد، وعندما رأوا هؤلاء المدافعين وهم يتجمّعون؛ ينضمُّ بعضهم إلى بعض، كان لابد من كلمة توضع لهم، وتناسب في الدلالة عليهم، فوضعت كلمة (كتيبة).

وامتدّ الزمن، وامتدت معه جذور الأمة، واتسعت الفروق المنبثقة من هذه الجذور، وأصبح العرب لهم صلتهم بغيرهم من الأمم، وصارت هناك معاملات

وأغراض دعتهم إلى أن يعرفوا الخط ورسم الأحرف، وأن يقرؤوا ما يجيء لهم من غيرهم، فلا بد إذن من كلمة يضعونها أو اسم لهذا المولود الجديد؛ وهو ضم الحروف بعضها إلى بعض، فوضعوا لهذا كلمة (كتب) كذلك.

ونحن نجد صلة قوية بين هذه المعاني الثلاثة؛ لا من حيث الشكل والهيئة التي نتجت عن ضم الخيوط بعضها إلى بعض، وتجمُّع المقاتلين بعضهم إلى بعض، وضم الحروف بعضها إلى بعض؛ أقول: نجد صلة لا من حيث الناحية الشكلية فحسب، وإنما من حيث الناحية الوظيفية المعنوية كذلك، فكما أن النسج الذي ضُمّت فيه الخيوط يقيهم الحر والبرد، ويستر عوراتهم، كذلك الجند تقيهم الاعتداء والعار، وهكذا الكتابة والقراءة تقيهم أنواعهم كثيرة من الأذى، وتجلب لهم أشياء كثيرة من الخير...

وهكذا؛ إذا أخذت أي كلمة من الكلمات تجد أنها مرت بهذه المراحل، وتدرجوا في استعمالها من معنى إلى معنى.

أحببت أن أقدم لك هذه المقدمة، وآثرت البدء بها كي تكون مدخلاً للحديث عن الفصاحة والبلاغة، حتى لا تتشعب بك السبل وأنت تقرأ في كتب كثيرة؛ فإنهم عندما يتكلمون عن الفصاحة والبلاغة؛ يذكرون لهما معاني كثيرة، وموضوعات متعددة، مع أنها كلها ترجع إلى أصل واحد.

فلماذا وضع العرب هذه المادة، ولأي شيء وُضعت، واللغة - كما قلنا من قبل - من الحاجات الضرورية للأمم والشعوب والأفراد، فالكلمة حينما توضع لا توضع ترفاً ولا سرفاً؟! .

**الفصاحة لغة:**

مادة فصاحة (ف ص ح)؛ كان أول وضع لها عند العرب يتناسب مع حاجاتهم الأساسية، فالأنعام تشكل جانباً مهماً في حياتهم، ينسجون أصوافها وأوبارها وأشعارها ثياباً لهم، ويأكلون لحومها، ويقرون أضيافهم، ويشربون ألبانها، وصدق الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦].

لا نعجب إذن أن نجد هذه المادة – مادة (ف ص ح) – يضعها العرب للّبن الذي يُحْلب من الأنعام، هذا اللبن حينما يحلب تعلوه رغوة، فإذا خلا هذا اللبن من الرغوة التي تشوبه سمي فصيحاً، إذن: (فصح اللبن)؛ لأنه خلا من الرغوة التي تشوبه وتكدره، وذهب كل ما ليس منه.

واستعملت هذه الكلمة لتدلّ على الظهور، والإبانة، والسلامة من كل ما يشوب الشيء ويكدره؛ فأفصح الصبح؛ حينما تزول الظلمة التي تختلط بضوئه، ثم أفصح الصبي؛ إذا بدأ يُحسن النطق بالحروف والكلمات، وأفصح الأعجمي؛ إذا استطاع أن يتخلص من لكنته القديمة، ويتغلب عليها، وأصبح نطقه بالحروف العربية سليماً صحيحاً، لا تشوبه شائبة.

ثم استعملت الفصاحة فيما بعد لتدل على الكلام الظاهر في معناه، الخفيف على لسان من ينطق به، وعلى سمع من يوجَّه إليه، ثم صار بعد ذلك للفصاحة فصلها الخاص بها، الذي تُعرف فيه شروطها ومجالاتها من أنواع القول.

**البلاغة لغة :**

أما البلاغة، فيظهر أنها وُضعت أول ما وضعت لتدل على الوصول إلى المكان، والنهاية إلى الغاية التي يقصدها العرب في بداوتهم ورحيلهم من مكان إلى مكان.

ثم تطور هذا اللفظ ليشمل مع هذا المدلول الحسيّ أموراً معنوية ينتهي بها صاحبها إلى ما يريد أن يصل إليه من غايات متعددة.

ولعلّ ما قيل فيها من تعريفات يؤيِّد ما ذهبتُ إليه، فلم تكن البلاغة محصورةً في القول أولاً، وإن كان القول فيما بعد أصبح أوسع ميادينها، بل ميدانها الوحيد، ولا أود أن أشغلك بهذه التعريفات، فهي مبثوثة في كتب كثير، وجلُّها مأخوذٌ من كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ.

مما تقدم ندرك أن للفصاحة البلاغة أصلين مختلفين في أول الوضع؛ فالفصاحة وُضعت للخلوص من الشوائب؛ لأنها وُضعت لخلوص اللبن مما عليه من رغوة،

والبلاغة للوصول والانتهاء، ففي أول الوضع كانت الكلمة الأولى غير الثانية، ولكن بعد أن تطورتا وأصبحت كل منهما صفة للقول والكلام الجيد؛ رأينا من يمزج بينهما بعد هذا التطور، فوجدنا كثيراً من العلماء لا يفرّقون بين الفصاحة والبلاغة بل يعدُّونهما شيئاً واحداً.

الفصاحة والبلاغة والبراعة والبديع؛ كلها تدل على شيء واحد، وهو الكلام الجيد السهل الذي لا عيب فيه.

توحيد هذه الكلمات روعي فيه المدلول الذي تدل عليه، ولم يراعَ فيه أصل الوضع اللغوي، ولا نظن أن هذا متفق مع منطق الأشياء، فالتحديد الدقيق، ولمح الفوارق بين الأشياء، ووضع كل شيء في دائرة خاصة؛ كل أولئك أمور متأخرة.

**الفرق بين الكلمتين على ضوء القرآن الكريم :**

الذي يهمنا الآن أن نقرّر أن الفرق بين الفصاحة والبلاغة لم يظهر مبكراً، ففي القرن الخامس الهجري نجد ابن سنان الخفاجي في «سر الفصاحة» يفرق بينهما، ولكننا نجد عبدالقاهر - رحمه الله - لا يفرق بين الفصاحة والبلاغة.

وبعد عبدالقاهر أصبحت التفرقة بين الفصاحة والبلاغة أمراً يكاد يجمع عليه العلماء، وهذا هو المسلك الذي نقتنع به، لا لأنه صار أمراً مسلَّماً ممّن جاؤوا بعد عبدالقاهر، فلو كنا متّبعين مقلّدين لكان حرياً بنا أن نتبع شيخ البلاغة؛ جامع شتاتها، وعميد بُناتها، ومزيد بَناتها، ولكن لأن الوضع الأول للكلمتين ليس واحداً - لما عرفت - هذا من جهة.

ومن جهة أخرى - وهي إن لم تكن أقوى من صاحبتها، في مماثلة لها - وهي ما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، والحق أن القرآن ينبغي أن يكون المرجع والفيصل الذي نُهرَع إليه عندما نريد الموازنة بين الكلمات، وعندما نريد المعنى الدقيق والمدلول الواضح، فكتاب الله تعالى هو الأساس في ذلك.

وردت مادة (فصاحة) في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤].

أما مادة (بلاغة)؛ فلقد وردت في كتاب الله تعالى في آيات كثيرة، لكنها تحدثنا عن أصل الوضع للكلمة، مثل: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل:٧]، ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف:٦٠]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الكهف:٨٦]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ [الكهف:٩٣]، وقد تحدثنا عن معنى آخر: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

ولكن المعنى الذي نريده، والذي نحن بصدده، هو ما جاء في قوله تعالى في سورة النساء حديثاً عن الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ ، وما أنزل من قبله، ولكنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أُمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً؛ يقول الله لنبيه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء:٦٣].

هذه الآية الكريمة يمكن أن نستعين بها؛ لتلقي لنا ضوءاً على ما يُقصد بالبلاغة، فكلمة (بليغ) جاءت صفة للقول، وهذا القول ينبغي أن يكون لهم في أنفسهم.

ونفهم من النص الكريم أن البلاغة إنما تكون أول ما تكون في القول الذي لقائله هدف منه، وأن هذا القول ينبغي أن يكون مؤثراً في النفوس؛ يفتح أبوابها، ويهزّ جوانبها، ولن يكون كذلك إلا إذا كان متلائماً متّسِقاً متفقاً مع المخاطبين المتحدَّث إليهم.

ندرك إذن على ضوء استعمالات القرآن الكريم أن الفصاحة أسندت إلى اللسان، وأن البلاغة غايتها النفوس، من أجل هذا فإن اليقين الذي أطمئن إليه يقضي بالتفرقة بين الفصاحة والبلاغة.

ولكن قبل ذكر الفروق بينهما، حريٌّ بنا أن نقف عند مدلول كل كلمة من حيث الاصطلاح، بعد أن عرفنا الوضع اللغوي، والتدرج الذي مرّت به هاتان الكلمتان.

# الفَصْلُ الثّانِي

# الفصاحة والبلاغة عند علماء اللغة

## المبحث الأول

## الفصاحة عند علماء اللغة

إن من أول من تحدث حديثاً شافياً عن الفصاحة هو ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة»، ومَن بعده اغترفوا منه، ونقلوا عنه، ومن بعده ابن الأثير[1] في «المثل السائر».

أما عبدالقاهر؛ فمع أنه كان معاصراً لابن سنان، إلا أن بحثه – كما نعلم – كان في شيء آخر، كان حديثه عن النظم، ولهذا لم يخص الكلمة باهتمام وكثير بحث، ومع ذلك فهو يرى أن الفصاحة والبلاغة شيء واحد.

ونجد أن الذين جاؤوا من بعد ابن سنان وابن الأثير لم يخرجوا عما قرره هذان العالِمان، مع الفرق – بالطبع – بين ما قرره المتقدمون، وبين ما ذكره المتأخرون، فالذي ذكره المتأخرون قليل الأمثلة، مختصر العبارة.

يمثّل المتأخرين خير تمثيل الخطيب القزويني[2] صاحب كتاب «التلخيص في علوم البلاغة» ، ويمثل المتقدمين العَلَمان الآنفا الذكر؛ ابن سنان، وابن الأثير، ومراعاة

---

(١) نصر الله بن محمد الشيباني، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، وُلد سنة (٥٥٨هـ) في جزيرة ابن عمر، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخوه، حفظ شعر أبي تمام والبحتري، مات ببغداد سنة (٦٣٧هـ).

(٢) جلال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أبي دلف العجلي القزويني الشافعي، فقيه، أصولي، محدث، أديب، عالِم بالعربية والمعاني والبياني، أصيب بالفالج ومات في السابع =

للاختصار سنكتفي بما ذكره الخطيب القزويني حول بيان معنى الفصاحة، ثم نشرح عبارته ومقصوده بما يتيسر.

**الفصاحة عند صاحب «التلخيص» :**

يقول القزويني في «التلخيص»[١]: «الفصاحة يوصف بها المفرد، والكلام، والمتكلم» .

أولاً: الفصاحة في المفرد: الكلمة الفصيحة عند القزويني لابد أن تكون خالية من تنافر الحروف، وهي الحروف المتقاربة المخارج، ومثل لذلك بكلمة (مستشزرات) في قول امرئ القيس:

غَـدائِرُهُ مُستَـشْزِراتٌ إلى العُـلا ... تَضِلُّ المُدارَى في مُثَنًّى ومُرْسَلِ[٢]

يقول: إن غدائر الشعر مرتفعة، حركته الريح، فبقي بعضه كما هو مرسلاً، وثنى بعضه الآخر، كلمة (مستشزرات) غير فصيحة؛ لثقلها على اللسان، وهذا الثقل إنما جاء من تقارب مخارج حروف هذه الكلمة.

أما الشرط الثاني: فهو خلو الكلمة من الغرابة، ومثل له صاحب «التلخيص» بكلمة (مسرَّج)، ويعني به قول العجاج:

أزْمـانَ أبْـدَتْ واضِـحاً مُلَفَّجـاً ... أغْـرَّ بَرَّاقـاً وطَرْفـاً أبْرَجـا

---

= والعشرين من جمادى الأولى سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م). من أشهر كتبه: «الإيضاح» و«التلخيص». أما التلخيص فهو تلخيص لكتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي. وأما «الإيضاح» فهو شرح لكتاب «التلخيص» . [الأعلام:٦/ ١٩٢].

(١) «التلخيص في علوم البلاغة» ، شرح الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي، (ص٢٤).

(٢) «الديوان» (ص١٧).

الغدائر: ذوائب الشعر جمع غديرة، وهي ما تسمى بالعقاص، جمع عقصة، ويقال لها: خصلة. مستشزرات إلى العلا: مفتولات إلى فوق. والشزر من الفتل: ما أدبرت به عن صدرك. والمدارى: جمع مدراة، والمراد بها المشط.

ومُقَلَّــــةً وحاجِبــــاً مُزَجَّجــــاً         وفاحِمــــاً ومَرْسِنــــاً مُــسَرَّجا[1]

وجاءت غرابة الكلمة من خفاء معناها الذي يقصده الشاعر، فالواضح المفلج، والطرف الأبلج، والحاجب المزجج؛ كل ذلك واضح المعنى، قريب المنال، سهل المعرفة، أما المَرْسِن المُسَرَّج؛ والمرسن هو الأنف، فما معنى أن يكون الأنف مسرجاً؟!.

قال بعضهم: إنه من السراج الذي يعطي الإضاءة والنور، فكأنه يصف أنفها بالضوء واللمعان، وقال بعضهم: إنه منسوب إلى السيف السريجي، فهو وصف للأنف بالدقة.

وهذا المثال تناقله المؤلفون واحداً بعد واحد، مع أن هناك أمثلة كثيرة قد تكون أكثر خفاء من هذا، فهي أولى منه بالنقل.

وأما مخالفة القياس، ويعني به القياس الصرفي؛ أي: مخالفة علم الصرف، ومثل له ببيت أبي النجم فضل بن قدامة[2]:

الحَمْــــدُ لله العَلِــــيِّ الأَجْلَــــلِ         الواحِـدِ الفَـرْدِ القـديمِ الأَزَلـيِّ[3]

لأن النطق الصحيح للكلمة: الأجلّ، وكذا يقال في كلمة مضعفة كالأغر والأجلّ والأمرّ، فلا يقال: الأغرر، والأجلل، والأمرر.

هذه الشروط الثلاثة التي اشترطها صاحب «التلخيص» لفصاحة الكلمة المفردة.

---

(١) «ديوانه» (ص٣٦٠).

واضح، أي: ثغر أبيض واضح. والمفلج: الثغر الذي ليس بعض أسنانه قريباً من بعض. والأغر: الأبيض. والبرج في العين: كثرة بياضها وسعتها، وإنما يكون ذلك إذا كانت العين واسعة. والمزجج: الطويل السابغ. ونعامة زجّاء: طويلة. والمرسن: الأنف كله، وموضع الرسن من الأنف. والمسرج: المحسن.

(٢) الفضل بن قدامة العجلي أبو النجم من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجاز، ومن أحسن الناس إنشاداً، نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبدالملك بن مروان وولده هشام، توفي سنة (١٣٠هـ). [الأعلام: ٥/ ١٥١].

(٣) «معاهد التنصيص» (١/ ١٩).

وهناك شرط رابع: وهو ثقل الكلمة على السمع، ومثل له بـ (الجِرِشَّى) في قول المتنبي: «كريم الجرشَّى»[1]، والجِرِشَّى هي النفس.

ثانياً: أما فصاحة الكلام؛ فقد اشترط له بعد فصاحة مفرداته أن يَخْلُصَ الكلام من ضعف التأليف، وهو مخالفة قواعد النحو، ومثل له بقوله: «ضرب غلامُه زيداً»، وإنما خالف هذا المثال القاعدة النحوية؛ لأن (ضرب) فعل ماض، وغلام فاعل، وغلام مضاف، والهاء مضاف إليه، وهو يعود على زيد، (وزيداً) مفعول به، ورتبة المفعول متأخرة عن رتبة الفاعل؛ لأن الترتيب الطبيعي أن يأتي الفاعل أولاً، ثم المفعول ثانياً، والضمير ها تقدم على صاحبه.

والنحويون مجمعون على أن الضمير لا يجوز أن يتقدم؛ لأن رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر في اللفظ منعه الجمهور؛ لأنه يلزم منه أن يرجع إلى ما هو متأخر لفظاً ورتبةً، والمسألة مبسوطة في علم النحو، وليس محلها هنا.

وأما تنافر الكلمات فقد مُثِّل له بقول القائل:

وقـبرُ حَـرْبٍ بمكـانٍ قَفْـر ... ولَـيْسَ قُـرْبَ قـبرِ حَـرْبٍ قـبرُ

والتنافر في الشطر الثاني من البيت، فلو أخذنا كلماته كلاً على حدة، وهي: (قبر)، و(حرب)، و(قبر)؛ لوجدناها جميعاً كلمات فصيحة خفيفة النطق، لا يجد السامع فيها عيباً؛ لكن ضم بعضها إلى بعض هو الذي أكسبها الثقل، وذلك لتقارب حروف كلماتها.

وأذكر أن الناس يتندرون في جمع مثل هذه الكلمات المتقاربة الأحرف، فلا زلنا نسمع كلمات يتندر بها الناس، مثل قوله: «ليرة وري ليرة»، وفي كل بيئة جمل اصطلح الناس عليها؛ جمل مشابهة لهذه الجملة، يتفكَّهُ بها الناس.

---

(١) في قوله:

مُبـارَكُ الاسـمِ أغـرُّ اللَّقَـبِ ... كَـريمُ الجِرِشَّـى شَـريفُ النَّسَـبِ

والجِرِشَّى: النفس. وسيأتي.

كما مثّل له ببيت أبي تمام:

كريمٌ متى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْـهُ والـوَرى    مَعي وإذا ما لُمْتُهُ لُمْتُـهُ وحْـدي[1]

والثقل – كما نرى – في الشطر الأول من هذا البيت أخف من سابقه، وهو إنما جاء من الحاء والهاء في (أمدحه)؛ لأن مخرجهما واحد، وهو الحلق.

أما الشرط الثالث لفصاحة الكلام، فهو خلوه من التعقيد، والتعقيد أن يسلك بك المتكلم مسلكاً وعراً، فيعسر عليك أن تصل إلى غايتك ومرادك، وقسّمه قسمين كما رأينا؛ إما من حيث اللفظ، وإما من حيث المعنى.

فالوعورة من حيث اللفظ مثّل لها بقول الفرزدق:

ومَـا مِثْلُـهُ في النَّـاسِ إلاّ مُمَلَّكـاً    أبــو أُمِّــهِ حَــيٌّ أبــوهُ يُقارِبُـهْ

والفرزدق كثيراً ما يسلك هذه المسالك الوعرة. والبيت مدح لإبراهيم بن هشام المخزومي؛ وهو خال الخليفة هشام بن عبدالملك.

ويريد الفرزدق أن يقول: وما مثل إبراهيم المخزومي حي يقاربه في الناس إلا مملكاً – وهو الخليفة هشام – أبو أم هذا المملك – يعني: أبو أم الخليفة – أبو إبراهيم، فجدُّ الخليفة إذن أبو إبراهيم، إبراهيم إذن خال الخليفة.

فانظر أي مسلك وعر سلكه الفرزدق؛ فأولاً فصل بين المبتدأ – وهو (مثل) – وخبره – وهو (حي) –، وفصل بين الموصوف – وهو (حي) – وبين الصفة – وهي (يقاربه) – وهذا لا يجوز. ثم فصل بين المبتدأ الثاني – وهو (أبو أمه) – وبين خبره – وهو (أبوه) – بكلمة (حي)؛ لأن التقدير: أبو أمه أبوه، أي: أبو أم الخليفة أبو الممدوح، ثم قدم المستثنى – وهو (مملكاً) – على المستثنى منه – وهو (حي يقاربه)– . قل لي بربك: كيف يمكن أن تصل إلى معنى هذا البيت؟!.

---

(١) «الديوان» (١/ ١٠٨).

أما القسم الثاني من التعقيد، فهو ما كانت الوعورة فيه راجعة إلى الانتقال، أي إلى المعنى، ومثّل له ببيت عباس بن الأحنف:

سأطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكُمْ لِتَقْرُبوا وتَسْكُبُ عَيْنايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدا

فالشاعر يطلب البُعد، وذلك لما فيه من ألم ومرارة؛ فربما دفعت مرارة البُعد صاحبها، وهو يكابد فيها ويتحمل ما لا طاقة له به، ربما دفعته إلى القرب؛ لأنه لا يستطيع أن يكتوي بنار هذا البُعد، وأن يتجرّع كأسه المملوءة بالصبر، وهذا لا غبار عليه.

أما قوله: «وتسكب عيناي الدموع لتجمدا» ، فهذا الذي عيب عليه. لماذا؟ لأن الشاعر يريد أن يقول: سأظل أبكي، وتذرف عيناي الدموع، وتسكب العبرات، حتى نلتقي، فتتوقفان عن البكاء؛ فعبر عن فرحة اللقاء، والتوقف عن البكاء؛ عبر عنه بجمود العينين، وهنا موطن الخطأ والعيب؛ لأن الجمود ليس عدم البكاء عند لقاء الحبيب، إنما الجمود داء يصيب العينين فلا تستطيعان البكاء مع شدة الحاجة إليه.

فلقد أراد الشاعر أن يعبر عن معنى، فاستعمل كلمة في شعره لا تدل على هذا المعنى، بل تتناقض معه كل التناقض، وهذا البيت هو الذي نجده لكل الذين كتبوا في البلاغة بعد صاحب «التلخيص». هذا ما ذكره المتأخرون عن الفصاحة.

**استنتاج:**

يمكننا بعد هذه الجولة ونحن نتحدث عن الفصاحة أن نستنتج ما يلي:

١- الكلمة الفصيحة والكلام الفصيح ما كان سهلاً لا يتلعثم به اللسان، ولا ينفر منه السمع، مألوفاً، واضح المعنى، لا يجد المخاطب عسراً في إدراك معناه، منسجماً مع قواعد اللغة، لا يخالف المقاييس التي وضعها علماء الصرف، ولا القوانين التي وضعها علماء النحو، ولا المعاني التي ذكرها له علماء اللغة، ليس بالوحشيّ، وليس بالسوقي المبتذل كذلك.

٢- إن مجال الفصاحة ودائرتها إنما هي الألفاظ فحسب.

٣- إن هذه الفصاحة لا تختص بالكلام المركَّب، وإنما تكون في الكلمة المفردة كذلك.

وإذا كانت هذه هي الفصاحة؛ فما البلاغة إذن؟ وما هي دوائرها المختصة بها؟ هذا ما سأحدثك عنه إن شاء الله في المبحث القادم.

## المبحث الثاني
# البلاغة عند علماء اللغة

**أقوال في البلاغة:**

قلنا: إن البلاغة لغة هي الوصول والانتهاء. وقبل أن تستقر البلاغة علماً له موضوعاته ومسائله، كانت تتجاذبها جهات متعددة، وهذه الجهات؛ رغم اختلافها وتعددها، إلا أنها يجمعها شيء واحد، وهو أنها تدل على الجودة والروعة والتأثير، فهي كلام يجيش في الصدور، فيُقذف على الألسنة، وصفتها المميزة لها الإيجاز؛ كما قال صحارٌ الشاعر حينما سأله معاوية[(1)].

وهي ما سابق لفظه معناه، فلم يكن لفظه أسرع إلى أذنك من معناه إلى قلبك، فاللفظ والمعنى يتسابقان؛ كل يريد أن يسبق صاحبه، فاللفظ يريد أن يصل إلى الأذن أولاً، ولكن المعنى يزاحمه ليصل إلى القلب كذلك.

وقد تحدث الراغب الأصفهاني عن البلاغة، وذكر أنها تكون في الكلام، وفي المتكلم، فكما يقال: كلام فصيح، ومتكلم فصيح. يقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ. وأن بلاغة الكلام لا بد أن تستجمع أموراً ثلاثة:

**أولها:** صحة اللغة وصوابها، ويعني ذلك سلامة الألفاظ من العيوب، وهو ما بسطنا فيه القول عند حديثنا عن الفصاحة.

---

(١) فقد خطب صحار العبدي بين يدي معاوية، فراعه بخطابته، فسأله معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ.
ومعاوية بن أبي سفيان من أجلة الصحابة رضي الله عنهم، وأحد كُتّاب النبي ﷺ، يُضرب المثل بحلمه وكياسته، وهو أول ملوك الدولة الأموية، استقام له المُلك عشرين سنة، توفي سنة (٦٠هـ).

ثانيها: أن يكون المعنى المقصود للمتكلم مطابقاً ومنسجماً مع الألفاظ التي استعملها المتكلم.

ثالثاً: أن يكون صادقاً في نفسه.

**البلاغة في الاصطلاح:**

يقول صاحب «التلخيص» في تعريفها:

«البلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.. فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب»[1].

البلاغة إذن تقوم على دعائم:

أولاها: اختيار اللفظة.

وثانيها: حُسْن التركيب وصحته.

وثالثتها: اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حُسْن ابتداء، وحُسْن انتهاء.

وبقدر ما يتهيأ من هذه الدعائم؛ يكون الكلام مؤثراً في النفوس، والتأثير هو الدعامة الرابعة من دعائم البلاغة.

البلاغة إذن لا بد فيها من ذوق وذكاء، بحيث يدرك المتكلم متى يتكلم، ومتى ينتهي، وما هي القوالب التي تصب فيها المعاني التي رتبها فينفسه، فرُبَّ كلام يكون جميلاً في نفسه، لكنه لم تراعَ فيه هذه الظروف، فتكون نتائجه عكسية غير متوقعة.

ولكن؛ ما هي آلة البلاغة ووسائلها؟.

لا بد للبليغ حتى يستحق هذا الوصف من أمرين اثنين: أحدهما خَلْقي موهوب، وثانيهما خُلُقي مكتسب، ولا يغني أحدهما عن الآخر:

---

(١) «التلخيص»، للقزويني، شرح عبدالرحمن البرقوقي، (ص٣٣).

أما الأول: فلا بد له من ملكات أربع، وهي: ذهن ثاقب، وعاطفة جياشة قوية، وخيال خصب ثري، وأذن تحسُّ بجمال الجرس، وتلذ بجمال الإيقاع.

وأما الأمر المكتسب: فهو القراءة، وبخاصة علوم اللغة، مع معرفة بأحوال النفوس البشرية، وطبائعها، وإلمام ومعرفة بما يحيط به من البيئة الطبيعية والاجتماعية.

# الباب الأول

## علم المعاني

وفيه فصول:

- الفصل الأول: مقدمة في علم المعاني.
- الفصل الثاني: الخبر.
- الفصل الثالث: الإنشاء.
- الفصل الرابع: التقديم والتأخير.
- الفصل الخامس: الحذف والذكر.
- الفصل السادس: التعريف والتنكير.
- الفصل السابع: القصر.
- الفصل الثامن: الفصل والوصل.

# الفَصْلُ الأوّل

## مقدمة في علم المعاني

### تعريف علم المعاني:

قلنا من قبل: إن أصل علم المعاني نظرية النظم التي وضعها عبدالقاهر - رحمه الله - ، فلا بد إذن من أن نقف وقفة موجزة مع هذه النظرية؛ حتى نستطيع أن نتذوق معنى هذا العلم.

يعني عبدالقاهر بالنظم تعليق الكلام بعضه على بعض. ويقول: إنه توخي معاني النحو. وهذا الكلام لا بد له من شرح وتفصيل.

نقرأ في علم النحو مثلاً أن الفعل لا بد له من فاعل، وقد نرى الخبر يتقدم على المبتدأ، والمفعول يتقدم على الفعل، وحينما نبحث عن سر هذا التقديم، فإنا نجد أن الأمر ليس جزافاً، ولا بد من غرض وسبب من أجله كان هذا التقديم للخبر على مبتدئه، وللمفعول على فعله؛ لذلك يرى عبدالقاهر - رحمه الله - أننا حينما ننطق بأي جملة، ونركبها من كلماتها، فإن هذا التركيب ناشئ - أولاً وقبل كل شيء - عن المعنى الذي هيأناه في نفوسنا، وأردنا أن نعبر عنه بهذه الألفاظ.

النظم إذن لا بد له من أمرين اثنين: المعنى الذي نريد التحدث عنه، ثم اللفظ الذي نعبر به عن هذا المعنى، فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ، حتى إن كانت مادته واحدة.

هناك إذن: الصورة، والمعنى الذي نعبر عنه بهذه الصورة، خذ مثلاً هذه الجمل: إنما المتنبي شاعر. أتقرأ كتاب «الأيام» ؟ لا ضجة في الحجرة المجاورة.

هذه أمثلة ثلاث، ولكننا سنجد أنه حينما يختلف المعنى تختلف الصورة لهذه الأمثلة، مع أن مادتها اللغوية واحدة.

قد نتجاذب الحديث معاً، فيرى بعضنا أن المتنبي كان حكيماً، وليس حرياً أن يوصف بأنه شاعر. وقد أرى طالباً قرب موعد امتحانه ينصرف عن دراسة مواد الامتحان، وينهمك في قراءة كتاب «الأيام»! وقد أعجب من طلاب الحجرة المجاورة لنا لهدوئهم، فأريد أن أعبر عن هذه المعاني الكائنة في نفسي، فأعبر بهذه العبارات: إنما المتنبي شاعر. أتقرأ كتاب الأيام؟! لا ضجة في الحجرة المجاورة! .

ولكن قد يتغير المعنى، فقد نتجاذب الحديث هذه المرة، فبعضنا يرى أن أبا تمام أشعر من المتنبي، وبعضنا الآخر يرى أن ابن الرومي أشعر منهما، ولكني أرى عكس ذلك، فقد ثبت في نفسي أن المتنبي أشعر منهما، فاعبر عن هذا المعنى، فأقول: إنما الشاعر المتنبي.

وقد يرى راءٍ أن كتاب «الأيام» ليس حرياً بأن يُقرأ، فيعبر عن هذا المعنى – وهو ينكر على قارئه – بقوله: أكتاب «الأيام» تقرأ؟ .

وقد تؤلمني هذه الضجة التي أجدها في الحجرة التي أجلس فيها، والحجرة المجارة خالية من الضجيج، هذا المعنى في نفسي أريد أن أعبر عنه بعبارة مناسبة له، أقول: لا في الحجرة المجاورة ضجة.

هذه جمل ثلاث؛ مادة الكلام فيها واحدة لم تتغير، إنما الذي تغير هو الصورة؛ صورة هذا الكلام، فالجملة الأولى: إنما المتنبي شاعر؛ صارت هكذا: إنما الشاعر المتنبي، والجملة الثانية: أتقرأ كتاب الأيام؟ صارت هكذا: أكتاب الأيام تقرأ؟ والجملة الثالثة: لا ضجة في الحجرة المجاورة؛ أصبحت: لا في الحجرة المجاورة ضجة.

ولكن لِمَ اختلفت هذه الصور في هذه المادة الكلامية من صورة إلى صورة؟!.

الحق أننا لم نفعل ذلك رغبةً في التغيير، ولا حذلقة في القول، وإنما حملنا على ذلك التغيير المعنى، لقد تغير المعنى، فتغيرت الصورة.

ترتيب الألفاظ في النطق إذن إنما هو ناشئ عن ترتيب المعاني في النفس. ذلك هو النظم الذي يعنيه عبدالقاهر - رحمه الله - .

النظم إذن أن يكون ترتيب الكلام وأنت تنطق به قد صمم تصميماً تاماً؛ ليوافق المعاني التي تريد أن تعبر عنها.

وبعد هذا البيان نقول: إن علم المعاني هو العلم الذي نؤدي به الكلام حتى يكون مطابقاً لمقتضى الحال من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير، وقصر، وإيجاز، وإطناب.

ومهما تعددت التعريفات، وكثرت الأقوال، فلن تخرج عن هذا التعريف، وهو العلم الذي يدلك على أن لكل مقام مقالاً.

**الجملة الاسمية والفعلية:**

وهذا العلم - كما رأيت - أساسه الذي يبحث فيه الجملة، لذلك كان من القضايا الأولية فيه تقسيم الجملة إلى: اسمية، وفعلية. والاسمية: وهي التي تتكون من مبتدأ وخبر. والفعلية: وهي التي تتكون من فعل وفاعل، أو نائب فاعل.

ولكل من هاتين الجملتين ركنان أساسيان:

المسند إليه: وهو المبتدأ الذي له خبر، أو الفاعل، أو نائبه.

المسند: وهو المبتدأ الذي له فاعل أو نائب فاعل يسد مسد الخبر، أو الخبر في الجملة الاسمية، أو الفعل في الجملة الفعلية.

بيان ذلك أن علماء النحو قسموا المبتدأ إلى قسمين:

١- قسم يحتاج إلى خبر؛ كقولنا: السماء صافية.

٢- وقسم يحتاج إلى فاعل أو نائب فاعل، وهما يسدان مسد الخبر، وإنما يكون هذا إذا كان المبتدأ اسم فاعل أو اسم مفعول.

فإذا قلت: أمسافر أخوك؟ فمسافر هنا مبتدأ، وهو اسم فاعل كذلك، فكونه مبتدأ يحتاج إلى خبر، وكونه اسم فاعل يحتاج إلى فاعل؛ لأن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل.

هو محتاج إذن إلى أمرين؛ لأن له صفتين، وليس عندنا إلا كلمة واحدة، وهي كلمة (أخوك)، فهذه الكلمة لا بد أن تقوم مقام الاثنين معاً؛ أعني مقام الفاعل والخبر، ولما كان الفاعل ألصق بفعله؛ جعلوها فاعلاً سد مسد الخبر، فيقولون: أخوك: فاعل سد مسد الخبر.

ومثله: أقائم زيد؟ قائم: مبتدأ. وزيد: فاعل سد مسد الخبر.

كذلك إذا كان المبتدأ اسم مفعول، فكونه مبتدأ يحتاج إلى خبر، وكونه اسم مفعول يحتاج إلى نائب فاعل، وليس عندنا إلا كلمة واحدة فيبقى أن تقوم مقام الأمرين معاً؛ نقول: أمهملة الدروس؟ أمنسية فلسطين؟ أمحزون الأقصى؟ فالكلمة الأولى في هذه الجمل مبتدأ، والثانية نائب فاعل سد مسد الخبر.

إذا عرفت هذا، فالمبتدأ الذي له خبر مسند إليه؛ مثل:السماء صافية، فالسماء: مسند إليه، وصافية: مسند. أما الثاني – أعني المبتدأ الذي له فاعل أو نائب فاعل سد مسد الخبر – فهو مسند، فمسافر في قولنا: أمسافر أخوك؟ مسند، وأخوك: مسند إليه. وأمنسية فلسطين؟ منسية: مسند، وفلسطين: مسند إليه، فافهم هذا، واحرص عليه.

وقولنا: الشعر ديوان العرب. عمر بن عبدالعزيز أعدل بني أمية. ابن الفارض سلطان العاشقين. ابن تيمية غزير العلم. الغزالي حجة الإسلام. البحتري شاعر الطبيعة. هذه كلها جمل اسمية؛ لأنها تكونت من مبتدأ وخبر عند النحويين. لكن علماء البلاغة يسمون الجزء الأول: المسند إليه. والجزء الثاني: المسند.

فأنت ترى أننا قد أسندنا في الجمل السابقة ديوان العرب وسجلهم للشعر، كما أسندنا العدل لعمر، وسلطنة العاشقين لابن الفارض، وغزارة العلم لابن تيمية، وحجية الإسلام للغزالي، وشاعرية الطبيعة للبحتري. فعمر: مسند إليه، وأعدل بني

الية: مسند. والشعر: مسند إليه، وديوان العرب: مسند. وابن الفارض: مسند إليه، وسلطان العاشقين: مسند. وابن تيمية: مسند إليه، وغزير العلم: مسند. والغزالي: مسند إليه، وحجة الإسلام: مسند. والبحتري: مسند إليه، وشاعر الطبيعة: مسند.

أما حينما نقول: جمع أبو بكر القرآن. حرر صلاح الدين فلسطين من الصليبيين. اكتشف علماء المسلمين الدورة الدموية. وضع عبدالقاهر نظرية النظم في البلاغة. اغتصبت فلسطين في القرن العشرين مع كثرة العرب الذين يحيطون بها. فإن هذه جمل فعلية إلا أن الجزء الأول فيها هو المسند، والجزء الثاني هو المسند إليه.

فنحن قد أسندنا التحرير إلى صلاح الدين، فحرر: مسند، وصلاح الدين: مسند إليه. وكذلك: اكتشف: مسند، وعلماء المسلمين: مسند إليه. وهكذا يقال في الأمثلة الباقية.

تدرك مما سبق أن تعبير البلاغيين بالمسند إليه والمسند أعم مما يقصده علماء الإعراب، فالمسند إليه قد يكون مبتدأ؛ كما رأيت في الجمل الاسمية، وقد يكون فاعلاً أو نائب فاعل؛ كما رأيت في الجمل الفعلية، أما المسند، فقد يكون خبراً؛ كما في الجمل الاسمية، وقد يكون فعلاً؛ كما في الجمل الفعلية، وقد يكون مبتدأ إذا كان له فاعل أو نائب فاعل يسد مسد الخبر.

والمسند والمسند إليه هما ركنا الجملة، وقد يكون في الجملة غير هذين الركنين، وهو ما يسميه علماء البلاغة قيوداً، فإذا قلنا: حرر صلاح الدين فلسطين من الصليبيين عام كذا في ذكرى الإسراء. فركنا الجملة المسند إليه فقط، أي: حرر صلاح الدين. وما بقي فهو من القيود، ففلسطين: قيد، ومن الصليبيين: قيد آخر،... وهكذا.

تدرك مما سبق أن ما زاد على المسند إليه والمسند في الجملة فهو قيد، اللهم إلا شيئين اثنين:

١- صلة الموصول.

٢- المضاف إليه.

فإذا قلت: الذي أكرمني أحبه. فالذي: مسند إليه، وأحبه: مسند، وأكرمني: صلة الموصول، وهي ليست قيداً هنا.

وإذا قلت: صاحب الحاجة أرعن. فصاحب: مسند إليه. وأرعن: مسند. والمضاف إليه – وهو الحاجة – ليس قيداً هنا.

والسبب في أنهم لم يجعلوا صلة الموصول والمضاف قيدين؛ أنه لا يتم الكلام إلا بهما، فالموصول لا يمكن أن يُفهم بدون صلته، والمضاف لا يتم معناه إلا بالمضاف إليه.

القيود[1] إذن: كل ما زاد عن المسند والمسند إليه؛ غير صلة الموصول والمضاف إليه، فالمفاعيل الخمسة – المفعول به، والمفعول فيه، والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، والمفعول منه –، والتوابع – وهي: النعت، والتوكيد، وعطف البيان، وعطف النسق، والبدل –، والحال، والتمييز، والنفي، وأدوات الشرط، والأفعال الناسخة؛ كلها قيود؛ لأنها زيادة على ركني الجملة.

فإذا قلت: كان أبو مسلم بن بحر إماماً في التفسير. فركنا هذه الجملة: (أبو مسلم)؛ المسند إليه، و(إماماً)؛ المسند، ما بقي فهي قيود؛ فـ(كان) قيد، و(ابن بحر) قيد، و(في التفسير) قيد، أما كلمة (مسلم)، وهي المضاف إليه؛ فليست قيداً.

وليقس على هذا المثال غيره.

وعلماء البلاغة حينما يقسمون هذا التقسيم؛ لا يقفون عند هذه الناحية اللفظية، فيكتفون بالقول بأن هذه جملة اسمية أو فعلية، وإنما يذكرون هذا توطئة لما بعده مما يقصده البلاغيون، فلكل من الجملة الاسمية والفعلية أغراضها البيانية، ومميزاتها البلاغية.

---

(١) علماء النحو يسمون هذه فضلات، فالحال فضلة، والتمييز فضلة، وهكذا. قال ابن مالك:
الحال وصفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ.

فإذا أرادوا التعبير عن معنى الثبوت، فإنهم يأتون بالجملة الاسمية، كقولنا: الله خالق كل شيء. وحاتم جواد.

وإذا أرادوا أن يعبروا عن معنى التجدد والحدوث، فإنهم يأتون بالجملة الفعلية؛ كقولنا: ينزل المطر. يرزق الله الخلق. وهذا ما سأبيّنه لك.

إن الجملة الاسمية تدل على ثبوت شيء لشيء؛ كالأمثلة السابقة، وربما تفيد الدوام والاستمرار بقرينة، مثل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر:٥٤]، ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣]، ومثل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:٤٧]، ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٤]، فإن هذه الجمل تفيد مع الثبوت شيئاً آخر، وهو الدوام، وإنما عرفنا هذا من القرائن.

وإذا لاحظت الأمثلة السابقة؛ وجدت أن الخبر في هذه الجمل ليس فعلاً، أما إذا كان الخبر في الجملة الاسمية فعلاً، فالجملة تفيد التجدد، مثل: الحركة تقوي العضلات. المؤمن يراقب ربه. فمن هاتين الجملتين نفهم تجدد تقوية العضلات؛ كلما كانت الحركة، وكذلك المراقبة ما دام الإيمان.

فالجملة الاسمية إذا كان الخبر فيها اسماً مفرداً؛ مثل: الضوء ساطع. أو جملة اسمية؛ مثل: الله فضله عظيم. فهي تفيد الثبوت، وربما تفيد الدوام بالقرائن.

وإذا كان الخبر فيها جملة فعلية، فإنها تفيد التجدد.

أما الجملة الفعلية فإنها تفيد الحدوث: يجيء الشتاء، يفوز المجتهد، يكافأ المتفوقون. وقد تفيد الاستمرار بالقرائن: يهنأ الموظف ما ظل بعيداً عن الرشوة.

# الفَصْلُ الثّاني

## الخبـر

**مقدمة في معنى الخبر والإنشاء:**

أي كلام مفيد ننطق به، فإما أن نقرر أمراً من الأمور ونخبر عن قضية من القضايا، وإما أن نتحدث عن أمر لم يحصل بعد؛ نطلب تحقيقه، أو ننهى عنه، أو نتمناه، أو نستخبر ونستفهم عنه، أو نناديه.

والقسم الأول هو الخبر، فحينما أقول: حرقت مكتبة الإسكندرية قبل عهد عمر بن الخطاب ﷺ فأنا أقرر خبراً؛ لأردّ على أولئك الذين يزعمون أن عمر ﷺ هو الذي أمر بحرق مكتبة الإسكندرية.

وحينما أقول: لم يعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد. فأنا أقرر خبراً؛ لأصحح الفرية التي شاعت بين الناس من أن عمر عزل خالد بن الوليد حينما تولى الخلافة.

وحينما أقول: البلاغة العربية عربية في أصولها. فأنا أرد على أولئك الذين يزعمون أنها مزق من بلاغة اليونان والفرس والهنود وغيرهم.

وكذلك حينما أقول: حس الأمة إسلامي. المشكلات الاقتصادية في بلادنا ليست ناشئة عن كثرة السكان. فأنا أقرر خبراً أيضاً.

وهذه الأخبار كلها يمكن أن ينازع فيها بعض الناس بنفيها كلاً أو بعضاً.

لكنني حينما أردد قول القائل:

قـــم للمعلـــم وفـــه التبجـــيلا

وقول الآخر:

لا تنـــه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه

وأقرأ قوله الله تعالى: ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس:٢٦]، و﴿ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود:٤٤]، ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾ [مريم:١٢]، ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ ﴾ [النمل:١٠]، وأردد قول القائل:

الإســــــرائيل تعلـــــو رايـــــة[(١)]

فإن هذه الجمل جميعها ليس فيها خبر عن شيء ما قد وقع بالفعل، وإنما – كما رأيت – هي أنواع من القول؛ أمر تارة، ونهي تارة، واستفهام تارة، وتمنٍّ تارة، ونداء أخرى. وهذا ما نسميه بالإنشاء.

ونستنتج مما سبق أن الخبر ما احتمل الصدق والكذب، وأن الإنشاء ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً.

وهناك تعريف آخر، وهو أن الخبر لا يتوقف تحققه ووجوده على قول المتكلم، أما الإنشاء؛ فهو ما يتوقف تحققه على تلفظ المتكلم به.

عندما أقول: عمر خليفة عادل. فإن وجود هذه القضية ليس متوقفاً على تلفظي بها، لكن إذا قلت للطالب: اقرأ موضوع التشبيه. فإن تحقق هذا الشيء – القراءة – متوقف على تلفظي به.

فأنا لا أستطيع أن أقول لمن أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو تمنى شيئاً، أو استفهم عن شيء، أو نادى أحداً؛ لا أستطيع أن أقول له: هذا صدق أو كذب؛ لأن الصدق والكذب إنما يوصف بهما الشيء الذي ادعينا وقوعه، والحكم الذي أثبتناه لشيء ما.

---

(١) تكملته: في حمى المهد وظل الحرم.

ولكن ربما يقول قائل: عرفت الخبر بأنه ما يحتمل الصدق والكذب، ونحن نعرف أن هناك نوعاً من الكلام لا يمكن أن يحتمل الكذب أبداً، فكلام الله تبارك وتعالى صدق، كذلك ما صحّ عن النبي ﷺ ، كذلك كل كلام نجزم بصدق قائله؛ لا يحتمل كذباً. وهناك كلام لا يحتمل الصدق أبداً، فقول كل من مسيلمة الكذاب وزوجه سجاح: أنا نبي. وادعاء اليهود بأن فلسطين لهم. وادعاء بعضهم بأن اللغة العربية لا تساير التطور. هذا كلام كاذب قطعاً؛ لا يحتمل صدقاً، وكذلك كل كلام نحن على يقين من كذب قائله، فكيف يصح هذا التعريف للخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب؟!.

وأقول: من أجل هذا فإنهم وضعوا قيداً آخر في تعريف الخبر، فقالوا: ما احتمل الصدق والكذب لذاته - أي لذات الخبر نفسه - وهذا بالطبع يخرج ما كان صادقاً قطعاً، وما كان كاذباً قطعاً؛ لأن آيات القرآن والأحاديث الصحيحة وإن احتملت هذا لذاتها، لكننا إذا نظرنا لمن قالها، فهي صادقة قطعاً، كذلك أقوال مسيلمة وسجاح ومن أشبههما، وإن احتملت الصدق والكذب لذاتها، إلا أننا إذا نظرنا لقائلها، فهي يقيناً كاذبة، فقولنا في تعريف الخبر: «لذاته» . نخرج به ما كان صدقاً بالنظر إلى قائله، وما كان كذباً كذلك.

أما الآن وقد عرفت الخبر وما قيل في تعريفه؛ فحري بك أن تعرف ما يتصل به من مباحث، وأهمها مبحثان اثنان:

المبحث الأول: أغراض الخبر.

المبحث الثاني: أضرب الخبر.

## المبحث الأول

# أغــراض الخبــر

ونعني بهذا العنوان: ما هو الغرض الذي نقصده حينما نلقي أي خبر من الأخبار؟ وما هي الفائدة التي نبغيها حينما نخاطب بهذا الخبر من نخاطب؟.

لعلك لا تختلف معي بأن أهم غرض من الأغراض التي يقصدها المتكلم إنما هي الفائدة؛ فائدة المخاطب، كقولي مثلاً: تمتاز اللغة العربية عن غيرها، وكذلك الحرف له خصائصه. العربية لغة الإيجاز. المسافة بيننا وبين الشمس أضعاف ما بيننا وبين القمر. كان أبو العلاء وابن جني معجبين بالمتنبي. ففي هذه الأخبار جميعاً؛ إنما أبتغي إفادة المخاطب، وأنا أعرفه بهذه الأمور، ويسمى هذا فائدة الخبر.

وقد لا يكون الغرض من إلقاء الخبر فائدة المخاطب؛ لأن المخاطب عالِم به، وإنما الغرض أن أشعر المخاطب بأنني عالِم بهذا الخبر، لست أجهله؛ كما إذا عرفت أن فلاناً كان مسافراً وقَدِمَ من سفره، فأقول له: أنت قدمت من سفرك أمس. وقد أقول للطالب: أنهيت الامتحان قبل يومين. فالمسافر والطالب لا يجهلان هذا الخبر، لكنني أردت أن أخبرهما بأنني على علم بخبريهما وإن كتماهما عني. ويسمى هذا لازم الفائدة.

وهذا الغرض متوقف على الذي قبله؛ لأنني حينما أخبر المخاطب بشيء يعلمه، فمعنى هذا أنه قد حصلت له فائدة الخبر.

هذان غرضان رئيسان للخبر عند إلقائه إلى المخاطب: فائدة الخبر إذا كان يخاطب جاهلاً يود إخباره بشيء لم يعرفه، ولازم الفائدة؛ إذا كان المتكلم يريد أن يخبر المخاطب بأنه عارف بهذا الخبر، ليس خافياً عليه.

لكن هناك أغراضاً يمكن أن نستنتجها؛ يدلنا عليها سياق الحديث، وأهم هذه الأغراض:

١- التنشيط: كأن تقول: الشباب عدة المستقبل، بسواعدهم يُبنى الوطن.

٢- التحسر والتأسف: ضاعت فلسطين. ومنه قول شوقي:

يــا أُخْـتَ أَنْـدَلُسٍ علَيْـكِ سَـلامُ    هَوتِ الخِلافَـةُ عنكِ والإسـلامُ[1]

ومنه - والله أعلم - قول أم مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦][2].

وهكذا كل كلام يقصد به المتكلم إظهار أسفه وأساه وتحسره ولوعته.

٣- إظهار الضعف: ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه - ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، وقوله على لسان زكريا عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤].

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة:٢٤٩] وهكذا كل كلام يلوح صاحبه بالضعف، وتشم منه رائحة الخَوَر.

٤- التوبيخ: كما تقول لكثير الأخطاء والعثرات: الشمس طالعة.

ومنه قول الرصافي:

فَـشرُّ النَّـاسِ قَـومٌ ذو خُمـولٍ    إذا فـاخَرْتَهُم ذكَـروا الجُـدودا

ومنه قول الخطيب لجمهوره: هذا العدو يمرح في أرضنا، ونحن بين عازف وخائف. ومنه: ما فاز إلا النوم. ومنه قولنا للمعتدي: من حفر حفرة لأخيه المؤمن وقع فيها. ومنه المثل: يداك أوكتا وفوك نفخ. وهو يُضرب لمن أصابه كرب نتيجة تقصيره.

٥- الاسترحام والاستعطاف: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦].

---

(١) «الشوقيات» (١/ ٢٣٠).

(٢) ونعني بالخبر ما بعد جملة النداء؛ لأن النداء من أقسام الإنشاء.

٦- إظهار الفرح: كما يقول من نجح في امتحانه: نجحت بتفوق. وكما نقول: هذه اليقظة الإسلامية نرجو أن تؤتي ثمارها.

٧- الشماتة: وذلك كما يقول المستضعفون في الأرض: ها هم الظالمون يلقون مصارعهم، وها هم الخونة يتساقطون واحداً إثر واحد.

٨- التذكير ما بين المراتب: وذلك كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥].

ومنه قول الزهاوي:

والنـــــاسُ إمّـــــا ســـــادةٌ ... هُـــــمُ الإرادةُ أو عبيـــــدُ

٩- الوعظ: ومنه قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ومنه قول أبي العتاهية:

إنَّ الـــشّبابَ والفَـــراغ والجِـــدَهْ ... مَفْـــسَدَةٌ للمَـــرْءِ أيُّ مَفْـــسَدَهْ[١]

واعلم أن الأغراض لا تنحصر فيما ذكرناه، فهناك أغراض كثيرة يمكن أن ندركها من سياق المتكلم، ويمكن للمتكلم أن يقصدها؛ كالعتاب، والتعريض، والسخرية، والإلهاب، وهذا كله يعتمد على بلاغة المتكلم، وذكاء المخاطب.

---

(١) «معاهد التنصيص» (٢/ ٢٨٣).

## المبحث الثاني

# أضـرب الخبـر

**الخبر المؤكد والخبر الخالي من التأكيد:**

عرفت فيما مضى الأغراض التي يلقى من أجلها الخبر، ونودّ الآن لك أن تعرف كيف يجب أن تلقي الخبر، فتراعي أحوال المخاطبين الذين تتحدث إليهم.

وقد عرفت – من قبل – أن علم المعاني من شأنه أن يدلنا كيف يكون كلامنا مطابقاً لمقتضى الحال، أي: كيف نراعي المقامات التي نتحدث فيها، فمقام المنكر يختلف عن مقام الشاكّ المتردد، وهذا يختلف عن خالي الذهن الذي لا شك ولا تردد عنده؛ لذلك وجب على المتكلم أن يراعي هذه الأحوال، فيلقي كلامه بقدر من غير زيادة ولا نقص، فإذا كان النقص عيباً فإن الزيادة كذلك.

إذا كان الذي تخاطبه خالي الذهن، لا تعرف منه إنكاراً، ولا تجد في نفسه شكاً أو تردداً فيما تلقيه إليه، فينبغي أن تلقي إليه الخبر خالياً من التأكيد، فتقول له مثلاً: الدين المعاملة. الحسد داء. بالعلم حياة الأمم.

أما إذا كنت تدرك من الذي تخاطبه شكاً، فيحسن أن تؤكد له الخبر؛ لتزيل ما في نفسه من شك، فتقول له مثلاً: نتائج الامتحان ظهرت.

أما إذا كنت تعرف أنه منكر، فيجب أن تؤكد له الكلام على قدر ما تعرف من إنكاره، ولا تنسى أن تفرق بين قولنا: يجب أن تؤكد الخبر للمنكر. وبين قولنا فيما مضى: يحسن أن تؤكد الخبر للشاك أمر مستحسن، أما تأكيده للمنكر فواجب، فإذا كان ينكر أن خالداً مسافر، فيجب أن تقول له: إن خالداً لمسافر. أو: والله إن خالداً لمسافر.

وخير ما يرشدك في هذا المقام القرآن الكريم، وذلك حينما يحدثنا عن أصحاب القرية التي جاءها رسل عيسى عليه السلام فيقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ

جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يس:١٣-١٦].

فانظر كيف أكدوا لهم الخبر أولاً بـ (إن) والجملة الاسمية؛ ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، ولكنهم لما أمعنوا بالتكذيب، وأصروا عليه، وكذبوا الرسل؛ زادوا في تأكيده، فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فجاؤوا بمؤكدين جديدين؛ الأول: القسم، وهو مفهوم من قوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ والثاني اللام: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

**أدوات التأكيد:**

وللتأكيد في العربية أدوات وطرق لا بد لدارس البلاغة من معرفتها؛ ليستعملها عند الحاجة، وهذه الأدوات كما ذكرها النحويون والبلاغيون هي: (إنَّ)، ولام الابتداء، وضمير الفصل، والقسم، وإما الشرطية، وحرفا التنبيه: ألا و(أما)، والحروف التي سمَّوْها زوائد.

(إن)، و(أن)، و(ما)، و(من)، والباء، و(قد) التي هي للتحقيق، والسين وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد أو وعيد، وتكرير النفي، و(إنما)، ونونا التوكيد.

١- (إنَّ): وهي الأصل في التوكيد، ولها معانٍ تستفاد منها غير التوكيد، سنذكرها فيما بعد – إن شاء الله – وكثيراً ما استعملت في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

وكثيراً ما يذكر معها لام الابتداء والقسم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢] وقولك: والله إن الحياء من الإيمان.

٢- لام الابتداء: ومنه قول النبي ﷺ : «لله أكثر فرحاً بتوبة عبده المؤمن»(١)، وقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر:١٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ومثله قولك لمن تخاطب: لأنت حريٌّ بالتقدير.

٣- القسم: وقد يكون بالواو؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]، وقد يكون القسم بالباء والتاء كذلك.

ولا يختص القسم بالجملة الاسمية، فقد يدخل على الجملة الفعلية كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧].

٤- ضمير الفصل: كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] وقوله سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى:٩]، ومنه: حجة الأقوى هي الفضلى.

ونحب أن ننبهك إلى أن ضمير الفصل هذا إنما سمي ضميراً تجوزاً؛ لأنه جاء على صورة الضمير.

فالضمائر - كما عرفت في علم النحو - هي أسماء، وهي من أنواع المعارف، لكن ضمير الفصل ليس اسماً، وإنما هو حرف في المشهور عند النحويين، وسمي ضمير الفصل؛ لأنه - كما رأيت - جاء يفصل بين المبتدأ وخبره، ولهذا تقول في إعرابه: هو ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٤)، حديث رقم (٥٩٥٠).

وهذا الضمير يفيد التأكيد ومن فوائده غير التأكيد أنه يأتي للاختصاص، وأن ما بعده يكون خبراً لا صفة، فلو أنك قلت: وأولئك المفلحون. والله الولي. وحجة الأقوى الفضلى؛ جاز أن تكون هذه الكلمات: (المفلحون)، (الولي)، و(الفضلى) صفات لا أخباراً، لكن بمجيء ضمير الفصل لا يجوز إعرابها صفات، بل يتعين أن تكون أخباراً، ولا شك أن الخبر أقوى في الدلالة وفي تثبيت الحكم من الصفة: لأن الخبر عمدة في الكلام.

٥- (أمَّا) الشرطية: تقول لصاحبك: أنا عازم على الجهاد. فإذا أحسست منه شكّاً وتردُّداً في ما قلت، فإنك تؤكد له هذا الخبر بقولك: أما أنا فعازم على الجهاد. أما خالد فقد قام بواجبه. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [البقرة:٢٦].

وينبغي أن تتنبه إلى الفرق بين (أمَّا) بالفتح، و(إمَّا) بالكسر؛ مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد:٤]، وهذه ليست من أدوات التأكيد.

٦- حرفا التنبيه: وهما (ألا) و(أما)، وقد كثر الأول في كتاب الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة:١٣]، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢]، فأنت ترى أن (ألا) تفيد تحقق ما بعدها، فالمنافقون الذين اتهموا المؤمنين بالسفه؛ تؤكد لنا الآية الكريمة أنهم الأحقون بهذا الوصف، والآية الثانية تؤكد أن الذين اتخذوا الله وليّاً أو والاهم الله سبحانه وتعالى بعيدون عن أن ينالهم خوف أو حزن.

و(أمَا) مثل (ألاَ)؛ إلا أنه يكثر بعدها القسم، كقول أبي صخر:

أمـا والـذي أبْكَـى وأضْحَكَ والـذي أمـاتَ وأحْيـا والـذي أمْـرُهُ الأمْـرُ

لقَـدْ تَـركَتْني أغْبـِطُ الـوَحْشَ أنْ أرى أليفَـيْنِ مِنها لا يَروعُهُمـا الزَّجْـرُ[1]

٧- الحروف التي سموها زوائد: وهي (من) الاستغرافية، والباء الواقعة في خبر ليس، و(إن) - بكسر الهمزة - الواقعة بعد النفي، و(أن) - بفتح الهمزة - الواقعة بعد لمَّا الظرفية، و(ما).

أما (من) الاستغراقية، فمثل قولك: ما جاءني من أحد، وما فعلت من ذنب، وما في اللهو من فائدة. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١].

وأما الباء، فكقولك: لست بالطامع، ولست بالحاسد. وكقول عمرو بن معدي كرب:

لـــيسَ الجمـــالُ بمِئْـــزَرٍ فـــاعْلَمْ وإنْ رُدِّيـــتَ بُـــرْداً[2]

ومثل (ليس): (ما) المشبهة بها؛ كقولك لصاحبك وقد جار في حكمه: ما أنت بالعادل في حكمك.

أما (إن)؛ فتأتي بعد (ما) النافية، ومنه قول عمرو بن معدي كرب:

مـــا إنْ جزعْـــتُ ولا هَلِعْـــتُ ولا يَـــرُدُّ بُكـــايَ زَنْـــدا[3]

ومثله قولك: ما إن ظلمت أحداً. ما إن قصرت بواجب.

أما (أن)، فمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦]، وقولك: لما أن ظهر لي الحق اتبعته. فلما أن عرفتك صادقاً آثرت صداقتك.

---

(١) «ديوان الهذليين» [٢/ ٩٥٧].

(٢) «شرح ديوان الحماسة» (١/ ١١٠-١٧٤).

(٣) «خزانة الأدب» (١١/ ٢١٨، ٢١٩)، «شرح ديوان الحماسة» (١/ ١٧٩). والهلع: أفحش الجزع؛ لأنه جزع مع قلة صبر.

أما (ما) التي هي للتأكيد، فكقوله سبحانه: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال:٥٧]، وكقولك: إما تدعُونَّ إلى حق فاعمل به. إما تَرَيَنَّ فقيراً فساعده. إما تسمعنَّ موعظة فاعمل بها. وإما ترينَّ حادثة فاعتبر.

وقد تأتي بعد النكرة، مثل قوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة:٤١]، وقولك: قليلاً ما أعتبر بالحوادث.

٨- (قد): واعلم أن (قد) من الحروف التي لا تدخل إلا على الفعل، والنحويون يقسمونها أربعة أقسام:

فهي إن دخلت على الماضي تكون للتحقيق، أو التقريب، مثال التحقيق: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:١]، ومثال التقريب: قد قامت الصلاة.

وإن دخلت على المضارع تكون للتقليل أو التكثير، فمثال التكثير: قد يجود الكريم، ومثال التقليل: قد يجود البخيل. وما ذكروه فيه نظر.

والذي يهمنا ما ذكره البلاغيون، وهو أن (قد) تكون للتأكيد إذا قصد منها تحقيق الفعل الذي دخلت عليه، وذلك كقول ابن زريق البغدادي:

لا تَعْذِلِيهِ فإنَّ العَذْلَ يُولِعُهُ ... قدْ قلتِ حقاً ولكِنْ ليسَ يَسْمَعُهُ

وقد رأيت لبعض الكاتبين أنها إنما تكون للتأكيد إذا دخلت على الماضي فقط، والحق أنها تكون للتأكيد حينما تدل على التحقيق؛ لا فرق في ذلك بين الماضي والمضارع؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف:٥] [1].

٩- السين و(سوف): وهما حرفان يدخلان على المضارع، فيمحِّضانه للاستقبال، أي: يصير الفعل مستقبلاً، إلا أن السين - كما يقول بعض النحويين -

---

(١) وفي التنزيل كثير من هذا؛ كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب:١٨]، وقوله سبحانه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ [النور:٦٣].

تدل على الزمن القريب، ويسمونه التنفيس، و(سوف) على الزمن البعيد، ويسمونه التسويف، وتكونان للتأكيد إن دخلتا على مضارع فيه الوعد أو الوعيد، أي: إن دلّ الفعل على محبوب أو مكروه، كقولك: سأمنح المجتهد جائزة. سأعاقب المقصر في واجبه. ومنه قوله سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

١٠- لن: وهي لتأكيد النفي، ورأى بعضهم أنها تفيد التأبيد كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

١١- نونا التوكيد: ونعني بهما نون التوكيد الثقيلة المشددة المفتوحة، ونون التوكيد الخفيفة الساكنة غير المشددة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢]، ووردت النون الخفيفة في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥]، ومثال الثقيلة قول الشاعر:

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنى ... فما انْقَادَتِ الآمالُ إلاّ لِصابِرِ

ونونا التوكيد تدخلان على المضارع وجوباً أو جوازاً، وقد يمتنع دخولهما، وذلك مبين في علم النحو.

أما دخولهما على فعل الأمر، فلا يهمنا الآن، لأننا نتحدث عن الخبر، وفعل الأمر ليس من باب الخبر، وإنما هو من باب الإنشاء.

١٢- تكرير النفي: كما تقول: لا، لا أرضى بالذل. ومنه قول الشاعر:

لا لا أبوحُ بحُبِّ بَثْنَةَ إنَّها ... أخَذَتْ عليَّ مَواثِقاً وعُهودا

ومنه قولك: لا، لا أجيء لدار أنت تسكنها.

١٣- (إنما): كقولك: إنما الجشع الحرص. إنما السعادة الرضا. إنما الجهاد العمل. وهذه أداة قصر، نقصر الحديث عنها هنا، لنتحدث عنها في موضعها إن شاء الله.

**طرق التوكيد:**

أذكرك هنا بما قلته عندما حدثتك عن التوكيد بأن له أدوات وطرقاً، والذي عرفته في ما مضى هو الأدوات، وقد يكون التوكيد بغير هذه الأدوات، قد يكون له طرق أخرى، أوجزها لك في ما يلي:

١- **الجملة الاسمية**: كقولنا: الشهداء أحياء. الإيمان حياة القلوب. فلسطين مسؤولية الأمة.

٢- **تقديم الفاعل من حيث المعنى**: وإنما قلنا من حيث المعنى؛ لأن الفاعل – كما علمت في النحو – لا يتقدم على فعله، فإذا تقدم أعربوه مبتدأ؛ كما تقول: الشمس طلعت.

والبلاغيون لا يختلفون مع النحويين في هذا الإعراب، فـ (الشمس) مبتدأ عند الجميع، إلا أن البلاغيين يذهبون إلى ما هو أبعد من هذا، فيعدون الشمس فاعلاً من حيث المعنى، فهم يفرقون بين: طلعت الشمس، والشمس طلعت، ويجعلون الجملة الثانية مفيدة للتأكيد؛ لما فيها من تكرير الإسناد، ألا ترى أن كلمة (الشمس) هنا ذكرت مرتين، ذكرت أولاً اسماً ظاهراً، وذكرت ثانياً ضميراً مستتراً.

ومن هذا القبيل – أي: تقديم الفاعل في المعنى – قولك لصاحبك: أنا مضيت في حاجتك. كأنك تؤكد له بأنك أنت وحدك؛ إن كان يعتقد أن معك شريكاً. أو أنت لا غيرك؛ إذا كان يعتقد أن غيرك هو الذي سعى فيها. ولنا عودة إلى هذا في باب القصر إن شاء الله .

تدرك مما سبق الأمور التالية:

**أولاً**: إن للتوكيد طريقين اثنين؛ فتارة يكون بأداة دالة على التوكيد، وتارة يكون بغير الأداة، وإنما يعرف من تركيب الجملة.

**ثانياً**: إن أدوات التوكيد منها ما يختص بالجملة الاسمية، مثل: (إن)، و(أن)، (لكنّ)، وضمير الفصل، ومنها ما يختص بالجملة الفعلية، كـ(قد)، والسين، و(سوف)، و(لن)، ومنها ما يدخل عليهما معاً كالقسم، وبعض الزوائد.

**ثالثاً**: قد تؤكد الجملة بعدة مؤكدات، مثل: القسم، و(إنَّ)، واللام، والجملة الاسمية، وذلك يرجع إلى ما يقتضيه المقام.

**رابعاً**: إن هذا التأكيد ليس لجزء من الجملة، ليس للمسند إليه، وليس للمسند؛ لأنني حينما أقول: والله إن الجهاد فرض. فأنا لا أؤكد كلمة الجهاد - وهو المسند إليه - ؛ لأنني لو أردت تأكيده لقلت: الجهاد نفسه، ولا أؤكد المسند - وهو (فرض) - لأني لو أردت تأكيده؛ لأكدته بالتكرار، فقلت: فرض، فرض، وإنما أؤكد الحكم والنسبة، فأنا أؤكد نسبة الفرضية للجهاد.

**خروج الكلام عن مقتضى الظاهر:**

إذا أنعمنا النظر؛ وجدنا أن من الأقوال البليغة ما جاء على غير هذه القاعدة، فقد نلقي الكلام للمنكر غير مؤكد، وقد علمنا أن المنكر يجب له التأكيد، وكذلك المتردد والسائل الذي يستحسن له التأكيد، قد لا نؤكد له، أما خالي الذهن الذي لا ينبغي أن يؤكد له الكلام، فقد ننزله منزلة السائل أو المنكر، فنؤكد له.

**هذه حالات ثلاث:**

**أولاها**: أن ننزل غير السائل منزلة السائل، فيستحسن تأكيد الكلام له.
**ثانيها**: أن ننزل غير المنكر منزلة المكر، فنؤكد له الكلام بأكثر من تأكيد.
**ثالثاً**: أن ننزل المنكر منزلة غير المنكر، فلا نؤكد له.

ويسمى هذا التصرف خروجاً على مقتضى الظاهر، وهذا كلام يحتاج إلى بيان وتفسير:

عرفت أن الفائدة من علم المعاني أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال، فحال المنكر يوجب التأكيد، والسائل يستحسن له التأكيد، وخالي الذهن الذي ليس سائلاً ولا منكراً لا ينبغي أن نؤكد له الكلام؛ لأنه فضول وزيادة، وهذا هو الظاهر كذلك.

الظاهر - إذن - أن يؤكد الكلام وجوباً للمنكرين، واستحساناً للسائلين، والشاكين، والمترددين، وأن لا يؤكد لغيرهم.

هذا مقتضى الحال ومقتضى الظاهر معاً.

أما أنه مقتضى الحال؛ فلأن حال كل من هؤلاء الثلاثة، أعني: المنكر، والمتردد، وخالي الذهن، ينبغي أن يختلف عن صاحبه عند مخاطبته.

وأما أنه مقتضى الظاهر؛ فلأنه يدركه كل واحد لأول وهلة، لكننا لاعتبارات عدة قد نخالف هذه القاعدة - كما قلت من قبل - فلا نؤكد لمن يستحسن له التأكيد أو يجب، وقد نؤكد لمن ليس كذلك.

ولكن حذار أن تظن أننا نفعل ذلك دون مراعاة اعتبارات، أو نهمل مقتضيات الأحوال، إننا لا نفعل ذلك رغبة في الخروج عن قواعد البلاغة، ولا نفعل ذلك رغبةً في تغيير حديثنا من أسلوب إلى أسلوب، وإنما نفعله؛ لأن هناك أحوالاً تقتضي هذا الفعل، صحيح نحن بذلك نخرج عن مقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر وجوب التأكيد للمنكر، واستحسانه للشاك، وتركه لخالي الذهن، ولكننا لا نخرج عن مقتضى الحال؛ لأن الخروج عن مقتضى الحال خروج عن البلاغة، وإليك بيان ذلك عملياً بعد أن شرحته لك، وأرجو أن تكون قد فهمته نظرياً:

**أولاً**: اقرأ قول الله تعالى يحدثنا عن الأطوار التي يمر بها الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٥].

تدبر هذه الآية الكريمة؛ تجد أنها تخبر عن الموت، والموت لا ينكره أحد، فهو سنّة الله في الخلق، ولكن نجد أن الله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية مؤكدة بأكثر من مؤكد؛ بـ (إن)، واللام، والجملة الاسمية، وقد علمنا من قبل أن هذه المؤكدات تكون للمنكرين، لكن لماذا خرجت هذه الآية عن مقتضى الظاهر، فأكدت لغير المنكر؟! أكدت الحديث عن الموت! لا بد من اعتبارات اقتضت هذا.

أنعم النظر في الآية الكريمة وأحوال الناس؛ ترك أن سبب التأكيد فيها هو غفلة الناس، وعدم ذكرهم للموت، واعتداء بعضهم على بعضهم لا ينكرون الموت، لكن أعمالهم وأحوالهم تدل على غفلتهم، وعدم اعترافهم بأنهم سيموتون.

أحوالهم إذن اقتضت هذا التأكيد في الآية الكريمة، هذا التأكيد مطابق لمقتضى الحال؛ حال الغافلين عن الموت، وإن كان مخالفاً لمقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر أن لا يؤكد الكلام لغير المنكر، أما إذا أكد الكلام لغير المنكر، ولم يكن هناك داعٍ للتأكيد، فإن الكلام لا يكون من البلاغة في شيء.

وهكذا تدرك أن الكلام البليغ قد يخرج عن مقتضى الظاهر؛ لكنه لا يمكن أن يخرج عن مقتضى الحال.

وكذلك تقول للأمة اللاهية المنهمكة في شهواتها، وعدوها يتربص بها الدوائر، وهم لا ينكرون ذلك، تقول لهم: والله إن عدوكم لماكر، والله إنه ليتربص بكم الدوائر.

وكذلك تقول لمن يعقُّ والديه، ولمن يفرط في الأمانة، ولمن لا يعمل بعلمه؛ وهم لا يجحدون نتائج هذه الأعمال: لتعرفن أنهما لوالداك. لتدركن أنها الأمانة. إنك لمسؤول عما علمك الله.

ثانياً: وكما نزلنا غير المنكر منزلة المنكر، فإننا ننزل غير السائل منزلة السائل، وهذا عندما نخاطبه بكلام، فندرك أن هذا الكلام أثار تساؤلات في نفسه، فيستحسن أن نؤكد له الكلام ببعض المؤكدات؛ لنزيل آثار هذه التساؤلات من نفسه.

هو في الحقيقة ليس بسائل، لكن لما كان الخطاب الذي خوطب به جعله يقلب الأمور، ويتساءل عن الغاية والنتيجة؛ نزلناه منزلة السائل، وإليك الأمثلة:

أكثر كتب البلاغة تذكر قوله تعالى خطاباً لنوح – عليه وعلى أنبياء الله صلاة الله وسلامه – : ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧].

لقد أكدت الجملة الأخيرة – وهي الإخبار بإغراق القوم – ولكن لِمَ هذا التأكيد؟! هل تسائل نوح عليه السلام عما سيحدث لقومه؟ لم تحدثنا آيات الذكر الحكيم عن شيء من هذا التساؤل، لكن قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ يجعل نوحاً يتساءل في نفسه:

ماذا سيحدث لأولئك المعاندين؟ ولم الفلك وليس هناك ماء؟ هل يريد الله أن يبعث ماء من السماء والأرض عقاباً لأولئك؟ هذه التساؤلات بين نوح ونفسه اقتضت أن يلقى الكلام مؤكداً، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود:٣٧].

وقال تعالى للنبي ﷺ مبيناً حكم أولئك الذين اعترفوا بذنوبهم؛ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التوبة:١٠٣]. وهذا الحديث من شانه أن يثير في النفس تساؤلات: ماذا سيفيدون من هذه الصلاة؟ هل تزيل عنهم أرقاً؟ وهل تخفف عنهم اضطراباً وقلقاً؟ فجاء قوله سبحانه مزيلاً هذه التساؤلات، مؤكداً ببعض المؤكدات: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣].

**ثالثاً**: وقد يؤكد الكلام من أجل المتكلم لا من أجل المخاطب، وذلك حينما يستبعد المتكلم حكماً ما، أو أمراً من الأمور؛ فيأتي بالكلام مؤكداً حتى يزيل ما علق في نفسه، وما استقر فيها من رواسب، وما هيمن عليها مما كان يستبعد وقوعه.

اقرأ مثلاً قوله تعالى يحدثنا عن أمر مريم عليها السلام: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦]. وأظنك تتساءل: لم هذا التأكيد: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وهي تخاطب ربها، والله أعلم بما وضعت؟!.

يقيناً؛ لا يعقل أن يكون هذا التأكيد للمخاطب، إذن هل تؤكد لنفسها هي؟! ولم؟! نعم، إنها تؤكد لنفسها، لقد استقر في هذه النفس بأن جنينها الذي تحمله ذكر،

وهذا نذرته للعبادة: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾ [آل عمران:٣٥]، فإن من شأن الذي يقوم على خدمة المعابد أن يكون ذكراً لا أنثى، ولكنها فوجئت حينما تم الوضع بأنها أنثى، وهذا لم يكن يخطر لها على بال، من أجل ذلك كان هذا التأكيد، إنها تريد أن تمحو ما استقرّ في نفسها، وأن تزيل آثار ذكريات الماضي، وأن تبدد ما أحدثه ذلك الأمل، فجاءت بقولها مؤكداً؛ ليتم لها كل ذلك: ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾.

ويمكنك بعد ذلك أن تفيد من هذا الأسلوب، فالطالب الذي كان متيقناً من نجاحه، أو كان يغلب على ظنه أنه كذلك، وجاءت النتيجة على خلاف ما يتوقع؛ فإنه يلقي كلامه مؤكداً ليزيل من نفسه آثار هذا الأمل، كذلك من كان على عكس هذه الحال، وكذلك الأمة حينما تدخل معركة، ولا يساورها شك بأنها هي الغالبة، وتكون النتيجة غير ما توقعت؛ كما حدث في حرب حزيران سنة سبع وستين، فإنك تستعمل هذا الأسلوب كذلك.

رابعاً: أن ننزل المنكر منزلة غير المنكر: في ما مضى رأيت أننا أنزلنا غير المنكر منزلة المنكر، ونزلنا غير السائل منزلة السائل، ولكننا الآن سنعكس هذا، فنعامل المنكر كما نعامل غيره، فنخرج الكلام عن مقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر أن يؤكد الكلام للمنكر، ولكن ما هو الحال الذي يقتضي الخروج عن الظاهر؟.

حينما نخاطب المنكر في أمر ما، ونريد أن نشعره أن هذا الأمر الذي ينكره واضح الدلالة، بيّن المعالم، يدركه كل ذي بصيرة، ويتوصل إليه كل ذي عقل، فنلقي إليه هذا الخبر غير مؤكد، كأنما نحثه على أن يعمل فكره.

نقرأ قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١]، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل:٢٢]. وهاتان الآيتان الكريمتان مكيتان، وأهل مكة – كما نعلم – كانوا ينكرون الوحدانية، فكان الظاهر أن يلقى إليهم هذا الخبر مؤكداً، ولكن خرج عن مقتضى الظاهر، وألقى إليهم الخبر بدون تأكيد، وفي ذلك بيان أن القضية

في حقيقتها ظاهرة، حري بها أن لا ينكرها أحد؛ لأن أدلة الوحدانية في كل مظهر من مظاهر هذا الكون.

وفي كُـــلِّ شَـــيْءٍ لَــهُ آيــةٌ تَــدُلُّ علـــى أنـــَّهُ الواحِـــدُ

وننبهك هنا إلى أن الخبر يختلف باختلاف المخاطبين فقد يخرج الخبر عن مقتضى الظاهر في حال من الأحوال، ولفئة من الفئات – كما رأيت – ولكن هذا الخبر نفسه قد يكون مطابقاً لمقتضى الظاهر في حال آخر، ولقوم آخرين.

الحديث عن الوحدانية في الآيات المكية كان منسجماً مع مقتضى الحال، خارجاً عن مقتضى الظاهر – كما رأينا – ولكننا حينما نقرأ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] في سورة البقرة، وهي مدنية، ندرك أن الخاطب لم يخرج عن مقتضى الظاهر في هذه الآية؛ لأن الصحابة – رضوان الله عليهم – والمجتمع المسلم في المدينة؛ لا ينكر التوحيد، فجاءت الآية الكريمة هنا مطابقة لمقتضى الظاهر؛ كما هي مطابقة لمقتضى الحال كذلك.

# الفَصْلُ الثَّالِث

## الإنشـاء

**تقسيم الإنشاء إلى طلبي وغير طلبي :**

تقدم لك أن الإنشاء ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، وهو قسمان: طلبي، وغير طلبي، وذلك لأنه إن استدعى الكلام الذي تقوله شيئاً غير حاصل عند النطق؛ فهو الطلبي، ألا ترى أنك إذا قلت لغيرك: اكتب الدرس. فإن هذا القول يستدعي شيئاً غير حاصل عند تلفظك به: لأن الذي تخاطبه لم يكن قد كتب الدرس، ولو كان قد كتبه؛ لكان كلامك تحصيل حاصل، لا فائدة منه، وهكذا إذا قلت: لا تفتح الباب. فإن الذي تخاطبه لم يفتح الباب بعد.

أما إذا كان الإنشاء لا يستدعي أمراً حاصلاً عند الطلب، فهو إنشاء غير طلبي، وذلك كالتعجب، والمدح، والذم، والدعاء، وصيغ العقود، والقسم، وبعض أفعال المقاربة، وهي: (كاد) و(كرب)، وأفعال الرجاء: (عسى)، و(حرى)، و(اخلولق).

إذا قلت: ما أجمل السماء! وما أحسن المصطاف والمتربعا! لله دره فارساً! فإن هذا قول لا يحتمل الصدق والكذب، فهو إنشاء، ولكنه لا يستدعي شيئاً غير حاصل؛ لأنك بقولك لا تطلب شيئاً، وكذلك إذا بعت أو اشتريت؛ تقول لصاحبك: بعتك هذا الكتاب. فإن هذا القول لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، ولكن لا يستدعي شيئاً غير حاصل عند النطق[1].

---

(١) وليس من هذا القبيل قولك لأحد الناس: بعت فلاناً كتاباً واشتريت منه قلماً. فإن هذا من باب الخبر؛ يحتمل الصدق والكذب وحديثنا في صيغ العقود التي تنشئ بها بيعاً، أو شراء، أو هبة، أو إجارة، أو أي عقد من العقود.

وهذا القسم لا يبحث فيه البلاغيون؛ لأنه لا تتعلق فيه مباحث بيانية، ولأن أكثر صيغه هي في أصلها أخبار، اللهم إلا أفعال الرجاء وصيغة القسم، وإنما يقصرون بحثهم على القسم الأول - وهو الإنشاء الطلبي - وينحصر في مباحث خمسة: الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء.

## المبحث الأول

# الأمـر

**تعريفه:**

وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل:٢٠].

**صيغه:**

وله صيغ أربع:

١- فعل الأمر: كما مرّ في المثالين السابقين.

٢- المصدر النائب عن الفعل: وذلك كقوله ﷺ: «صبراً آل ياسر؛ فموعدكم الجنة»[(١)]. وقول عبدالله بن رواحة؛ كما ورد في «سيرة ابن هشام»:

رَكْـضاً إلى الله بغَيْـرِ زادِ غَيْـرِ التُّقـى وعَمَـلِ المَعـادِ

٣- المضارع المقترن بلام الأمر: مثل قوله سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧]، وقولك: لتتق الله. ليقم كل بواجبه.

٤- اسم فعل الأمر: مثل: مه! لا تقولن إحداكن: فعلت كذا وكذا. صه! لا تتكلم إلا بخير.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)؛ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وفي سنده انقطاع.

واسم فعل الأمر؛ منه ما هو سماعي؛ مثل: (مه)، و(صه)، و(آمين)، ومنه ما هو قياسي، وهو ما كان على صيغة (فعال) من الفعل الثلاثي؛ مثل: (دَراكِ) بمعنى (أدرك)، و(نزالِ) بمعنى (انزل).

**خروج صيغة الأمر عن دلالتها الأصلية:**

والأصل في الأمر أن يدل على الوجوب، وإنما يدل على غيره بالقرائن، ومن هنا لا بد أن يكون جهة العلو، أي: من الأعلى لمن هو أدنى منه.

فإن كان من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو الدعاء؛ مثل: اللهم اغفر لنا وارحمنا.

وإن كان إلى من يساويك؛ فهو التماس؛ كقولك لصاحبك: أعطني الكتاب.

وقد يخرج عن معنى الأمر إلى معانٍ أخرى، أهمها:

١- **الإرشاد**: وذلك كقوله سبحانه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾، وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقول النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١].

٢- **الاعتبار**: كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وقوله سبحانه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩٩]، وقولك: انظر في نفسك وفيما حولك. وازنْ بين حال الأمم الجادة والهازلة.

٣- **التخيير**: كقولك: اقرأ في النحو كتب ابن هشام أو ابن مالك، واقرأ في التفسير من كتب الأقدمين «جامع البيان» لابن جرير الطبري، أو كتاب «الكشاف» للزمخشري. اكتب عن مساوئ الشيوعية أو الرأسمالية.

ومنه قول الشاعر:

---

(١) رواه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، رقم (١٩٨٨).

عِشْ عَزيزاً أو مُتْ وأنْـتَ كَـريمٌ    بـينَ طَعْـنِ القَنـا وخَفْـقِ البُنـودِ

٤- الإباحة: كقوله سبحانه: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة:١٨٧].

٥- الدوام: مثل قول المؤمنين: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، أي: أدم هدايتنا، وثبّتنا عليها[١].

٦- التأديب: ومنه قوله ﷺ : «يا غلام! سمِّ الله، وكل بيمنك، وكل مما يليك»[٢]، وهو قريب من الإرشاد.

٧- التعجب: مثل قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الإسراء:٤٨].

٨- التهديد: ومنه قوله سبحانه: ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت:٤٠]، ومنه قوله ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»[٣].

٩- التمني: ومنه قول امرئ القيس:

ألا أيُّهـا الليـلُ الطَّويـلُ ألا انجـلِ    بصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنْكَ بأمْثَلِ[٤]

ومنه قولك: تنفس أيها الصبح! وأشرقي يا شمس؛ لنسر إلى فلسطين.

١٠- الإهانة والتحقير: مثل قول جرير:

---

(١) ويمكن أن يكون هذا من الدعاء.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب: الأكل مما يليه، حديث رقم (٥٠٦٣)، باب رقم (٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٩٦)، وفي الأدب: «إذ لم تستحي فاصنع ما شئت»، رقم (٥٧٦٩).

(٤) «الديوان» (ص١٨).

انجل: انكشف. وما الإصباح: أي: أنا أبداً مهموم في الليل وفي الصبح.

زَعَمَ الفـرزدَقُ أنْ سَـيَقْتلُ مَرْبعـاً ... أَبْـشِرْ بطـولِ سَـلامَةٍ يـا مَرْبَـعُ

وقريب من هذا التوبيخ، ويمثل له بما قيل لآخر ملوك العرب في الأندلس:

ابـكِ مِثـلَ النِّـساءِ مُلْكـاً مُـضاعاً ... لَـمْ تُحـافِظْ عليـهِ مِثـلَ الرِّجـالِ

١١- التعجيز: كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣].

ومنه قول الفرزدق:

أولئـكَ آبـائي فَجِـئْني بِمِـثْلِهم ... إذا جَمَعَتْنـا يـا جَريـرُ المَجَـامِعُ[١]

١٢- التسوية: مثل قوله تعالى: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور:١٦].

١٣- الامتنان: كقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [النحل:١١٤].

وننبهك هنا إلى أمرين:

أولاً: أن هذه الصيغ قد يتداخل بعضها في بعضها الآخر.

ثانياً: هذه الصيغ ليست على سبيل الحصر، فهناك صيغ كثيرة يمكن أن تستفاد من السياق؛ كالندب، والتلهيف، والتحسر، والخبر، والإكرام، والتكوين، والتفويض، والتكذيب، والمشورة، والتسخير، والتسليم.

(١) «الديوان» (ص١٣٨).

## المبحث الثاني

# النهـي

**تعريفه وصيغته:**

وهو طلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة، وهي المضارع مع (لا) الناهية؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، فإن لم يكن على جهة الاستعلاء؛ كان دعاء - إن كان من الأدنى إلى الأعلى - كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، أو التماساً - إن كان من متماثلين - كقولك لصديقك: لا تسبقني. وكقول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لـهُ لا تَبْـكِ عيْنُـكَ إنـَّما ... نُحاوِلُ مُلْكـاً أو نموتَ فَنُعْـذَرا[1]

وأجمعوا على أن النهي يقتضي الفور، أما الأمر؛ فقد اختلفوا فيه؛ هل هو للفور أو للتراخي؟ وهذه مباحث أصولية لا نقحمها ولا نقحم البلاغة فيها.

**خروج صيغة النهي عن دلالتها الأصلية:**

وقد تخرج صيغة النهي عن مدلولها الرئيس - وهو طلب الكف - إلى معانٍ تعرف بالقرائن، وتستفاد من السياق، ومنها:

١- الإرشاد: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]، وكقول القائل:

---

(١) «الديوان» (ص٦٦)، شرح محمد أبو الفضل إبراهيم.

إذا نطَـقَ الـسَّفيهُ فـلا تُجِبْـهُ          فَخَيْـرٌ مِـن إجابَتِـهِ الـسُّكوتُ

٢- التهديد: كما تقول للمهمل في دراسته: لا تدرس.

٣- التيئيس: كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم:٧]، ومنه قول الشاعر:

فـلا يَخْـدعنكَ لُمـوعُ الـسَّرابِ          ولا تَـأْتِ أمْـراً إذا مـا اشْـتَبَهْ

ومنه قولك لمن فرط في واجبه، فضاعت فرصته: لا تأمل، ولا ترج.

٤- التوبيخ: قال أبو الأسود الدؤلي:

لا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وتـأْتِيَ مِثْلَـهُ          عـارٌ عليـكَ إذا فَعَلْـتَ عَظـيمُ[1]

٥- التسلية والتصبر: نحو قول النمر بن تولب:

لا تَجزَعِـي إنْ مُنْفِـساً أهْلَكْتُـهُ          فـإذا هَلَكْـتُ فعِنْدَ ذلـكَ فـاجْزَعي[2]

٦- التحقير: كقوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر:٨٨].

٧- التمني: نحو قول الخنساء:

أَعَيْنَـيَّ جُـوداً ولا تَجْمُـدا          ألا تَبْكِيـانِ لِـصَخْرِ النَّـدى

ويمكن أن يكون هناك معانٍ أخرى تستطيع إدراكها بذوقك.

---

(١) «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٤).

(٢) «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٤).

## المبحث الثالث

# التمنـي

**تعريفه، والفرق بينه وبين الترجي:**

وهو طلب حصول الشيء المحبوب دون أن يكون لك طمع وترقب في حصوله، ذلك لأن الشيء الذي تحبه إن كان قريب الحصول مترقب الوقوع كان ترجياً، ولا يسمى تمنياً، والترجي ليس من أقسام الإنشاء الذي ليس طلبياً، وإنما لم يعدوا الترددي من الإنشاء الطلبي، مع أنهم جعلوا التمني منه؛ لأن التمني طلب الشيء، ولكن الترجي ترقب حصول الشيء.

ولهذا تدرك أن ما استقر عند بعض الناس من أن التمني طلب المستحيل، والترجِّي طلب الممكن؛ خال من الدقة؛ لأن التمني قد يكون لغير المستحيل كما ستعرف، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن الترجي ليس طلباً، وإنما هو ترقب حصول الشيء، لذلك لم يعدوه من الإنشاء الطلبي.

التمني – إذن – طلب الشيء المحبوب، وقد يكون ممكناً، وقد يكون مستحيلاً، فالنفس كثيراً ما تطلب المستحيل، فإذا كان الشيء المتمنى ممكناً، فيجب أن لا يكون مما تتوقعه نفسك؛ لأنك إذا توقعته كان ترجياً، فإذا قلت: ليت لي داراً. فينبغي أن لا تكون متوقعاً لما تتمناه؛ لقلة ذات اليد، ولكثرة التكاليف، وغيرهما من الأسباب، وهذا أمر ممكن غير مستحيل، لكن صعوبة تحققه تجعلك غير متوقع له.

أما إذا كانت الأسباب مهيأة لك، وكنت تتوقع الحصول على تكاليف هذه الدار، فإنك تستعمل (لعل)، فتقول: لعل لي داراً.

ولعلك قد أدركت الآن دقة الفرق بين التمني والترجي.

**أدوات التمني:**

والأداة الأم التي وُضعت للتمني (ليت)، ولذلك كثر مجيئها في كتاب الله تعالى، ففي التنزيل: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧]، كما نقرأ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص:٧٩]، ومن مشاهد يوم القيامة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، وفي الحديث يقول ورقة بن نوفل: «يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك»[1]، وذلك كثير في أقوال البلغاء:

يقول مالك بن الريب:

ألا لَيْـتَ شِـعْري هـل أبيـتَنَّ ليلَـةً ... بجَنْبِ الغَضَى أُزْجي القِلاصَ النَّواجيا

لقَـدْ كـانَ في أهـلِ الغـضى لـو دَنـا ... مَـزارٌ ولكِـنَّ الغَـضَى لـيسَ دانِيـا[2]

وإذا تأملت الأمثلة السابقة؛ وجدت أن بعضها كان تمنياً لأمور مستحيلة، وكان بعضها الآخر لأمور ممكنة، ولكنها صعبة التحقق.

وهناك أدوات أخرى للتمني خرجوا بها عن أصل وضعها، وهذه الأدوات هي: (لعل)، و(هل)، و(لو)، ومن الأخيرتين ركبت هذه الكلمات: (هلاَّ)، و(لولا)، و(لوما).

أما (هل) فهي في أصلها أداة استفهام.

وأما (لو)؛ فهي حرف امتناع لامتناع.

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، باب رقم (١).

(٢) «خزانة الأدب» (٢/ ٢٠٣)، «جمهرة أشعار العرب» (٢٦٩)، «الأمالي» (٣/ ١٣٥).

وأما (لعل)؛ فهي للترجي.

وهم يستعملون هذه الأحرف مكان (ليت)، وهذا الاستعمال لا بد له من غرض بلاغي، ونكتة بيانية.

فـ (هل) تستعمل للتمني إذا أردنا أن نبرز المتمنَّى في صورة الممكن الذي لا نجزم بانتفائه، وذلك لكمال العناية به، قال تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣]، وقال ذو الرمة:

أمَنْزِلَتَـــيْ مَـــيٍّ سَـــلامٌ عَلَيْكُمـــا هَلِ الأَزْمُنُ اللائي مَضَيْنَ رَواجِعُ[(١)]

وإنما كان المتمنى بـ (هل) بصورة المكن؛ لأن (هل) أداة استفهام، والمستفهَم عنه أمر ممكن الوقوع.

ومن أدوات التمني (لو)، ونأتي بها حينما يكون المتمنّى عزيزاً، صعب الوقوع، بعيد المنال؛ قال تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢][(٢)]، وقال سبحانه على لسان لوط عليه السلام: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود:٨٠]، ومنه قوله تعالى يحدثنا عن المستضعفين الذين أعطوا الذلة من أنفسهم في الدنيا، وقد تبرأ منهم سادتهم: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ

---

(١) «الديوان» (ق٤٢)، (٢/ ١٢٧٣)، «الكامل»، للمبرد (١/ ٨٤، ٢/ ١٧٨).
أمنزلتي: حيث كانت تنزل، يعني في الشتاء والصيف.

(٢) وتدبرك للقرآن الكريم يرشدك إلى الفرق بين (هل) و(لو)، تأمل قوله سبحانه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣] وقوله سبحانه: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ [الشعراء:١٠٢]؛ ألا تر أن وجود الشفعاء أمر ممكن الحصول، وهو أيسر كثيراً من رجوعهم إلى الدنيا، الذي استعملت فيه كلمة (لو)؛ ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا.
وهكذا تدرك الفرق بين هاتين الأداتين، مع أن كلاً منهما للتمني، لكن حذار أن تستعمل إحداهما مكان الأخرى.

﴿ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

وقال جرير:

وَلَّى الشبابُ حميدةً أيّامُه ... لو كانَ ذلكَ يُشترى أو يَرْجِعُ[(١)]

وقال صريع الغواني:

واهاً لأيامِ الصِّبا وزمانِهِ ... لو كانَ أسْعفَ بالمَقامِ قليلاً[(٢)]

وإنما كان المتمنى بـ (لو) - كما قلنا - عزيزاً، بعيد المنال، على عكس المتمنى بـ (هل)؛ لأن (لو) وضعت في حقيقتها لتدل على امتناع الشيء، ومن هنا كانت حرف امتناع لامتناع.

ومن أدوات التمني التي خرجت عن الأصل (لعل)، فإن أصل وضعها للترجي، والغرض من استعماها للتمني الدلالة على استحالة الأمر المتمنى بها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص:٣٨]، وفي آية أخرى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

وقال العباس بن الأحنف:

أسِرْبَ القَطا هَلْ مَنْ يُعيرُ جَناحَهُ ... لعَلّي إلى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أطيرُ[(٣)]

---

(١) «ديوان جرير».

(٢) «الديوان» (ص٥٤).

واهاً لأيام الصبا: أي: ما كان أطيبها لو كان الصبا أسعف لنا بالمقام قليلاً، ولو ساعد وأطاعنا في أن يقيم علينا حتى نشتفي منه.

(٣) «شرح ابن عقيل» (١/ ١٤٨).

وكما استعلمت (لعل) مكان (ليت)، فقد تستعمل (ليت) – على قلة – مكان (لعل)، فيقصد بها الترجي، ومن ذلك قول قريط بن أنيف:

فليْـتَ لـي بهِـمُ قومـاً إذا رَكِبـوا ... شَـنُّوا الإغـارَةَ فُرْسـاناً ورُكْبانـا

وهذا يفهم من السياق.

وإنما كان التمني بـ (لعل) أمراً مستحيلاً؛ لأن (لعل) وضعت في أصل الوضع للترجي، وهو ترقب حصول الأمر، فلو كان المتمنى بها أمراً ممكناً؛ لالتبس الأمر، وفهم منها الترجي؛ لذا لا يتمنى بها إلا الأمر المستحيل، وهذه نكتة بيانية دقيقة، تدل على دقة الوضع في العربية، وسلامة الطبع لأهلها.

## المبحث الرابع

# النـــداء

### تعريفه :

وهو طلب إقبال المخاطب، وإن شئت فقل: دعوة مخاطب بحرف نائب مناب فعل، كـ (أدعو) أو (أنادي).

وحروفه ثمانية: (يا)، والهمزة، و(أي)، و(آي)، و(أيا)، و(هيا)، و(وا)، و(آ).

وقبل أن نحدثك عن أدوات النداء؛ يجمل أن تعرف أن الجملة في النداء تتكون من الفعل الذي ناب عنه حرف النداء وفاعله، فإذا قلت: يا صلاح الدين! وأردت استخراج المسند إليه والمسند من هذه الجملة، فإن المسند هو الفعل (أدعو) الذي ناب عنه حرف النداء (يا)، والمسند إليه الفاعل، وهو (أنا)، وقد عرفت من قبل أن كل جملة في الخبر أو الإنشاء لا بد أن تتكون من ركنين أساسيين، وهما المسند إليه والمسند، وما سواهما فهو قيد، اللهم إلا المضاف إليه وصلة الموصول، وعلى هذا يمكنك أن تميز الجملة في النداء على ضوء ما بيناه لك.

وإنما آثرت أن أنبهك هذا في النداء خاصة؛ لأن استخراج المسند إليه والمسند فيما سواه ظاهر، ولكن استخراج الجملة في النداء يشتبه على كثير من الناس.

وفي النداء مطلبان اثنان: أدوات النداء أولاً، والأغراض التي تخرج إليها صيغة النداء ثانياً.

### أدوات النداء :

أما أدوات النداء، فإنها تنقسم إلى قسمين اثنين: قسم لنداء القريب، وقسم لنداء البعيد:

**أدوات نداء القريب:**

**وهما حرفان: الهمزة، و(أي)، فتقول لمن يسمعك، ولمن هو قريب منك: أي بني، أبني.**

وقد ينزل البعيد منزلة القريب، فينادى بالهمزة أو أي؛ تنبيهاً على أنه – مع بُعده – لا يغيب عن القلب، بل هو مالك للفؤاد واللبّ؛ كما يقول المتلهف على وحدة الأمة: أي صلاح الدين. أنور الدين أين أنت. ومنه قول الضبي في رثاء أخيه أُبَيٌّ:

أَأُبَـيُّ لا تَبْعُـدْ ولـيسَ بخالِـدٍ حَـيٌّ ومَـنْ تُـصِبِ المَنـونُ بَعيـدُ

ومنه قول الشاعر:

أسـكَّانَ نُعْمـانَ الأراكِ تَيَقَّنـوا بأنـكم في رَبْـع قَلْـبِيَ سُـكَّانُ

**أدوات نداء البعيد:**

**وهذه الأدوات هي:**

١ – (يا): وهي أكثر أدوات النداء استعمالاً، ولهذا قيل: إنها مشتركة بين النداء البعيد والقريب، ولكن كثيراً من العلماء ذهب إلى أنها وُضعت لنداء البعيد؛ قال الزمخشري:

«هي لنداء البعيد، أو من هو بمنزلته من نائم أو ساهٍ، وإذا نودي من عداهم فلحرص المنادى عليه، ومفاطنته لما يدعوه.. وقول الداعي: يا رب! ويا الله! استقصار منه لنفسه، وهضم لها، واستبعاد عن مظان القبول والاستماع، وإظهار للرغبة في الاستجابة بالجوار»[(١)].

ومنه قول الفارعة بنت طريف ترثي أخاها الوليد:

أيـا شَـجَرَ الخـاربُورِ مـا لَـكَ مُورِقـاً كأنَّـكَ لَمْ تَحْزَنْ على ابـنِ طَرِيـفِ[(٢)]

---

(١) «شرح المفصل»، لابن يعيش (١/١١٩-١٢١).

(٢) «الأغاني» (١٢/٨٦)، «شرح شواهد المغني» (١/٢٧٧).

وكثيراً ما تحذف؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [القصص:١٦]، وقال سبحانه: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف:٤٦].

٢- (أيا): ومنه قول الشاعر:

أيـا جَبَلَـيْ نُعْمَـانَ بـالله خَلِّيـا نَسيمَ الـصَّبا يَخْلُـصْ إلـيَّ نَـسيمُها

ومنه قوله:

أيـا جـامِعَ الـدُّنيا لغيـرِ بلاغَـةٍ لِمَـنْ تَجْمَـعُ الـدُّنيا وأنـتَ تمـوتُ

٣- (وا): وهي أكثر ما تستعمل في الندبة، مثل: واحر قلباه، وامعتصماه، وكقول أبي العلاء:

فوا عَجَباً كَمْ يَدَّعي الفَضْلَ نـاقِصٌ ووا اسفا كَمْ يُظْهِـرُ النَّقْصَ فاضِـلُ

٤- بقية أحرف النداء، (هيا) و(آ) و(آي): وهي أقل استعمالاً من سابقاتها؛ تقول: هيا ذكريات الماضي. آفلسطين سلاماً واعتذاراً. آي بني قومي.

**إنزال القريب منزلة البعيد في النداء:**

وقد ينزل القريب منزلة البعيد؛ فينادى بإحدى أدواته، وذلك لأسباب أهمها[1]:

١- **للدلالة على أن المنادى رفيع القدر، عظيم الشأن**: فيجعل بُعد المنزلة كأنه بُعد في المكان؛ كقول بكر بن النطاح في مدح أبي دلف العجلي:

أبـا دُلَـفٍ بورِكْـتَ في كـلِّ بلـدةٍ كما بورِكَتْ في شهرِها ليلةُ القَدْرِ

٢- **للإشارة إلى أنه وضيع منحط الدرجة**: وعليه قول الفرزدق يهجو جريراً:

أولئـكَ آبـائي فجِـئْني بِمِـثْلِهِم إذا جَمَعَتْنـا يـا جَريـرُ المَجامِعُ[2]

(١) «علوم البلاغة» ، للمراغي، (ص٨٥).

(٢) «ديوانه» (ص١٣٨).

ومنه قولك لمن تخاطبه وهو قريب منك: يا مفرطاً في وطنك خبت وخسرت.

٣- للإشعار بأن السامع غافل لاهٍ: فتعده كأنه غير حاضر في مجلسك، ومنه قولك: يا أيها الغارقون في لذاتكم، المفتونون بعدوكم، سيطلع الفجر. وعليه قول البارودي:

يا أيُّها السَّادِرُ المزورُ مِن صَلَفٍ　　مهلاً فإنك بالأيامِ منخَدعُ

## المبحث الخامس
# الاستفهام

الاستفهام طلب الفهم، وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به، وبعضهم يفرق بين الاستفهام والاستخبار، وليس في ذلك جد عناء في علم البلاغة

وأدواته إحدى عشرة أداة: حرفان؛ هما: الهمزة، و(هل)، وتسعة أسماء؛ وهي: (من)، و(ما)، و(متى)، و(أين)، و(أيَّان)، و(أنّـى)، و(كيف)، و(كم)، و(أي).

وفي هذا الفصل قضايا دقيقة، حري بك أن تتنبه إليها، وأن تشحذ لها همتك، وتوليها عنايتك، ونرجو الله أن يعينك ويعيننا.

وفي الحديث عن الاستفهام مطلبان:

المطلب الأول: الفرق بين أدوات الاستفهام، وما يُستفهم عنه بكل أداة.

المطلب الثاني: الأغراض والمعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام.

## المطلب الأول
### الفرق بين أدوات الاستفهام وما يُستفهم عنه بها

اعلم أن هذه الأدوات تنقسم من حيث المُستفهم عنه إلى أقسام ثلاثة:

١- منها ما يُستفهم عن الحكم - وهو إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه - فنقول: هل تحب العلم؟ هل يسافر أخوك؟ هل تستيقظ الأمة؟ .

فأنت في هذه الأمثلة لم تستفهم عن مفرد، فلم تستفهم عن المحبة أو العلم، ولم تستفهم عن السفر أو عن أخيك، ولم تستفهم عن الاستيقاظ أو عن الأمة، وإنما كان استفهامك عن الحكم الذي هو إثبات حبك للعلم، وسفر أخيك، واستيقاظ الأمة.

وهذا الذي يعبرون عنه بالتصديق، وهو إدراك النسبة بين أمرين.

٢- ما يُستفهم به عن مفرد؛ تقول مثلاً: ما البُرُّ؟ فيقال لك: القمح. وما القسورة؟ فيقال لك: الأسد.

فأنت ترى هنا أن لا حكم، فلم نثبت شيئاً لشيء، وهذا ما يسمونه التصور.

٣- ما يُستفهم به عن هذين معاً، أعني: عن القضية التي فيها إثبات حكم أو نفيه، وهو التصديق، وعن المفرد الذي هو التصور.

وهذا القسم الذي يستفهم به عن التصور والتصديق هو الهمزة، أما الذي يُستفهم به عن التصديق وحده؛ فهو (هل)، وأما الذي يُستفهم به عن التصور وحده فهو باقي الأدوات.

**ولنبدأ الآن باستعراض هذه الأدوات واحدة تلو الأخرى.**

**الهمزة:**

الهمزة - كما عرفت - يُستفهم بها عن التصور والتصديق، أي: عن المفرد وعن الحكم؛ تقول: أطلعت الشمس؟ أجاء الأستاذ؟ أفهمت الدرس؟ فأنت هنا إنما تسأل عن الحكم، وهو إثبات طلوع الشمس، ومجيء الأستاذ، وفهم الدرس، وهذا هو التصديق؛ لأن التصديق إنما هو إدراك النسبة بين شيئين، وإن شئت قل: إثبات حكم الشيء، أو نفيه عنه.

وقد يُستفهم بالهمزة عن التصور، فتقول: ألبلاغة صعبة أم الرياضيات؟ أنت هنا لا تستفهم عن الحكم؛ لأنك تعرف أن أحدهما صعب، ولكنك تريد تعيين هذا الصعب، فيقال لك مثلاً: البلاغة. وربما يقول لك قائل: الرياضيات.

وتقول: أسعيد فاز بالجائزة أم خالد؟ أنت هنا لا تسأل عن الحكم؛ لأنك تعرف أن أحدهما قد فاز بالجائزة، لكنك تريد تعيين هذا الفائز من هو؟ فيقال لك: سعيد، أو: خالد.

وتقول: أفي الشتاء تتحسن صحتك أم في الصيف؟ أن هنا لا تسأل عن الحكم؛ لأنك تعرف أن من تخاطبه تتحسن صحته في أحد هذين الفصلين، ولكنك لا تعرف على التعيين أيهما؟!.

في هذه الأمثلة جميعاً ترى أن الهمزة للتصور وليست للتصديق؛ لأنه لم يُستفهم بها عن حكم، أي: إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه، وإنما استُفهم بها عن تعيين شيء ما.

**أحكام الهمزة:**

وللهمزة أحكام لا بد أن تعرفها حتى لا تخطئ في قولك، ولا تتعثر في حديثك:

الحكم الأول: سبق أن عرفت الحكم الأول للهمزة، وهو أنها للتصور والتصديق، وعرفت معنى كل من التصور والتصديق.

الحكم الثاني: وهو أنها يليها المسؤول عنه دائماً، وإليك بيان ذلك:

إذا أردت أن تسأل: من المسافر؛ سعيد أم خالد؟ فإنك تقول: أسعيد مسافر أم خالد؟ لكن إذا أردت أن تسأل عن سعيد أمسافر أم مقيم؛ فيجب أن تقول: أمسافر سعيد أم مقيم؟ وإذا أردت أن تسأل عن الكتاب وأنت لا تعرف أنه في المكتبة أو على المكتب؛ فيجب أن تقول: أعلى المكتب الكتاب أم في المكتبة؟ وإذا كنت تجهل أن في الإبريق شاياً أو قهوة؛ فيجب أن تقول: أشاي في الإبريق أم قهوة؟ أما إذا كنت تجهل أن القهوة في الإبريق أم في الكأس؛ فيجب أن تقول: أفي الكأس القهوة أم في الإبريق؟.

الهمزة إذن لا بد أن يليها المسؤول عنه للتصور.

وهذا الحكم للهمزة – أعني أنه يليها المسؤول عنه – ، وأمثلته التي مرت معك؛ كانت للقسمين، فقولنا: أجاء أخوك من السفر؟ هذا من باب التصديق، وقولنا: أراكباً جاء أم ماشياً؟ من باب التصور.

الحكم الثالث: أما الحكم الثالث من أحكام الهمزة؛ فهو إن كانت للتصور؛ فيجب أن يذكر بعدها المعادل، ومعادل الشيء ما يساويه؛ لأن العدل هو المساواة،

ومن هذا القبيل: فلان عديل فلان، فإذا كان المسؤول عنه زيد؛ فمعادله عمرو أو خالد، وإذا كان المسؤول عنه السفر؛ فالمعادل له الإقامة... وهكذا، وستدرك ذلك من الأمثلة الآتية:

ولا بد أن يأتي المعادل بعد أم التي هي من حروف العطف، فإذا قلت: أزيد مسافر؟ وأردت التصور، فيجب أن تذكر المعادل، فتقول: أزيد مسافر أم عمرو؟ ولا تقول: أم مقيم؟ لأن المعادل لزيد والمقابل له: عمرو. وتقول: أمسافر خالد أم مقيم؟ لأن المعادل لكلمة مسافر والمقابل لها كلمة مقيم. وتقول: أفي فلسطين تقول شعرك أم في الأندلس؟ لأن الذي يعادل فلسطين ويقابلها الأندلس.

وقد يترك المعادل إذا فهم من السياق؛ كما إذا عرف السائل الذي تقول له: أفي الدار أبوك؟ عرف أنك تسأله: أفي الدار أم في العمل؟ فيمكن أن تحذف المعادل اعتماداً على فهم المخاطب.

حذار إذن أن تأتي بعد الهمزة بغير المسؤول عنه، فتقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ والصحيح: أمسافر أم مقيم؟ أو أن تذكر بعده غير المعادل له؛ فتقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ والصحيح: أسعيد مسافر أم خالد؟.

الحكم الرابع: إن الهمزة إذا كانت للتصور، يكون الجواب عها بتعيين المسؤول عنه من فعل أو فاعل أو غيره، ولا يصح أن يكون الجواب بـ (نعم) أو (لا)، وإذا كانت للتصديق يكون الجواب عنها بـ (نعم) أو (لا).

ونظن هذا يسهل عليك معرفة التصور والتصديق، والتفرقة بينهما، فإذا كانت للتصور؛ لا يكون الجواب بـ (نعم) أو بـ (لا)، بل بتعيين المسؤول عنه: أأبوك في البيت أم أخوك؟ فأنت تعين أحدهما، فتقول مثلاً: أبي. أفي البيت أخوك أم في الجامعة؟ تعين أحدهما، فتقول مثلاً: في الجامعة. أراكباً جئت أم ماشياً؟ أيوم الجمعة جئت أم يوم الخميس؟ ..

الجواب كما ترى لا يصلح فيه (نعم) أو (لا). إذن: الهمزة هنا للتصور.

وتقول: أفي الشتاء تتحسن صحتك أم في الصيف؟ أن هنا لا تسأل عن الحكم؛ لأنك تعرف أن من تخاطبه تتحسن صحته في أحد هذين الفصلين، ولكنك لا تعرف على التعيين أيهما؟! .

في هذه الأمثلة جميعاً ترى أن الهمزة للتصور وليست للتصديق؛ لأنه لم يُستفهم بها عن حكم، أي: إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه، وإنما استُفهم بها عن تعيين شيء ما.

**أحكام الهمزة:**

وللهمزة أحكام لا بد أن تعرفها حتى لا تخطئ في قولك، ولا تتعثر في حديثك:

**الحكم الأول:** سبق أن عرفت الحكم الأول للهمزة، وهو أنها للتصور والتصديق، وعرفت معنى كل من التصور والتصديق.

**الحكم الثاني:** وهو أنها يليها المسؤول عنه دائماً، وإليك بيان ذلك:

إذا أردت أن تسأل: من المسافر؛ سعيد أم خالد؟ فإنك تقول: أسعيد مسافر أم خالد؟ لكن إذا أردت أن تسأل عن سعيد أمسافر أم مقيم؛ فيجب أن تقول: أمسافر سعيد أم مقيم؟ وإذا أردت أن تسأل عن الكتاب وأنت لا تعرف أنه في المكتبة أو على المكتب؛ فيجب أن تقول: أعلى المكتب الكتاب أم في المكتبة؟ وإذا كنت تجهل أن في الإبريق شاياً أو قهوة؛ فيجب أن تقول: أشاي في الإبريق أم قهوة؟ أما إذا كنت تجهل أن القهوة في الإبريق أم في الكأس؛ فيجب أن تقول: أفي الكأس القهوة أم في الإبريق؟.

الهمزة إذن لا بد أن يليها المسؤول عنه للتصور.

وهذا الحكم للهمزة - أعني أنه يليها المسؤول عنه - ، وأمثلته التي مرت معك؛ كانت للقسمين، فقولنا: أجاء أخوك من السفر؟ هذا من باب التصديق، وقولنا: أراكباً جاء أم ماشياً؟ من باب التصور.

**الحكم الثالث:** أما الحكم الثالث من أحكام الهمزة؛ فهو إن كانت للتصور؛ فيجب أن يذكر بعدها المعادل، ومعادل الشيء ما يساويه؛ لأن العدل هو المساواة،

من هذا القبيل: فلان عديل فلان، فإذا كان المسؤول عنه زيد؛ فمعادله عمرو أو خالد، وإذا كان المسؤول عنه السفر؛ فالمعادل له الإقامة... وهكذا، وستدرك ذلك من الأمثلة الآتية:

ولا بد أن يأتي المعادل بعد أم التي هي من حروف العطف، فإذا قلت: أزيد مسافر؟ وأردت التصور، فيجب أن تذكر المعادل، فتقول: أزيد مسافر أم عمرو؟ ولا تقول: أم مقيم؟ لأن المعادل لزيد والمقابل له: عمرو. وتقول: أمسافر خالد أم مقيم؟ لأن المعادل لكلمة مسافر والمقابل لها كلمة مقيم. وتقول: أفي فلسطين تقول شعرك أم في الأندلس؟ لأن الذي يعادل فلسطين ويقابلها الأندلس.

وقد يترك المعادل إذا فهم من السياق؛ كما إذا عرف السائل الذي تقول له: أفي الدار أبوك؟ عرف أنك تسأله: أفي الدار أم في العمل؟ فيمكن أن تحذف المعادل اعتماداً على فهم المخاطب.

حذار إذن أن تأتي بعد الهمزة بغير المسؤول عنه، فتقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ والصحيح: أمسافر أم مقيم؟ أو أن تذكر بعده غير المعادل له؛ فتقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ والصحيح: أسعيد مسافر أم خالد؟.

الحكم الرابع: إن الهمزة إذا كانت للتصور، يكون الجواب عنها بتعيين المسؤول عنه من فعل أو فاعل أو غيره، ولا يصح أن يكون الجواب بـ (نعم) أو (لا)، وإذا كانت للتصديق يكون الجواب عنها بـ (نعم) أو (لا).

ونظن هذا يسهل عليك معرفة التصور والتصديق، والتفرقة بينهما، فإذا كانت للتصور؛ لا يكون الجواب بـ (نعم) أو بـ (لا)، بل بتعيين المسؤول عنه: أأبوك في البيت أم أخوك؟ فأنت تعين أحدهما، فتقول مثلاً: أبي. أفي البيت أخوك أم في الجامعة؟ تعين أحدهما، فتقول مثلاً: في الجامعة. أراكباً جئت أم ماشياً؟ أيوم الجمعة جئت أم يوم الخميس؟ ..

الجواب كما ترى لا يصلح فيه (نعم) أو (لا). إذن: الهمزة هنا للتصور.

أما إذا قلت: أحال أمتنا يرضيك؟ أتنتظر من أمريكا خيراً؟ أتركن لليهود؟ أيجوز الصلح بيننا وبينهم؟ فإن هذه الأمثلة – كما ترى يكون الجواب فيها: (لا)، وتقول: أتحب الشهادة في سبيل الله؟ أتأخذ من التاريخ درساً؟ أتستجيب لداعي الحق؟ أتبذل من أجل مقدساتك وأرضك؟ ويكون الجواب: (نعم).

الحكم الخامس: وخامس أحكام الهمزة أنها إذا كانت للتصديق؛ فلا يجوز ذكر المعادل بعدها، فإذا أردت أن تسأل عن كتاب «دلائل الإعجاز»؛ هل هو لعبدالقاهر؟ تقول: ألعبدالقاهر كتاب «دلائل الإعجاز»؟ وإذا كنت تعرف عبدالقاهر وتجهل أنه مؤلف «دلائل الإعجاز» ؛ فإنك تسأل: أمؤلف «دلائل الإعجاز» عبدالقاهر؟ .

أنت في هاتين الجملتين تسأل عن الحكم.

وإذا أردت أن تسأل عن سفر خالد؛ فقلت: أسافر خالد؟ أو أردت أن تسأل عن خالد أمسافر؟ فتقول: أخالد مسافر؟ فإنك في هذه القضايا جميعها لا تأتي بـ (أم) ولا بالمعادل، ولهذا ترى أن الجواب فيها بـ (نعم) أو(لا).

وقد عرفت أنه إذا كان الجواب بـ (نعم) أو (لا)؛ كانت الهمزة للتصديق، فإذا سألت عن سبب ذلك؛ لماذا ذكر المعادل في حالة التصور وامتنع في حالة التصديق؟ فإليك الجواب، وانتبه لما فيه من دقة نرجو لك أن تمنحها من يقظتك.

الهمزة حينما تكون للتصديق؛ فأنت تسأل فيها عن الحكم، وأنت لا تسأل عنه إلا لأنك تجهله، فإذا قلت: أخالد جاء من السفر؟ أفنون البلاغة صعبة؟ فأنت تجهل الحكم، فإذا ذكرت المعادل؛ فقلت: أخالد جاء من السفر أم سعيد؟ أفنون البلاغة صعبة أم علم النحو؟ فأنت هنا لا تجهل الحكم، كل ما تريده تعيين واحد من هذه الأشياء ثبت له هذا الحكم، ألا ترى أن هنا تناقضاً في الجملة الواحدة لو ذكر المعادل؛ لأن المفترض أنك تجهل الحكم، وليس للتصديق معنى غير هذا، ومجيئك بـ (أم) والمعادل معناه أنك لا تجهل الحكم.

الحكم السادس: الهمزة هي أعرق أدوات الاستفهام، ولهذا لا يتقدم عليها حرف العطف كما يتقدم على غيرها، فإذا اجتمعت مع حرف العطف تقدمت عليه؛

تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧]، ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٣]، فأنت ترى هنا أنها تقدمت على الفاء.

وكذلك حينما تجتمع مع الواو أو (ثم)؛ فمثالها مع الواو: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

ومثالها مع (ثم) قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس:٥٠-٥١].

أما بقية أدوات الاستفهام؛ فإنها تتأخر عن حروف العطف، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:١٤].

الحكم السابع: وهو قريب من السابق، فهي لا تقع بعد (أم)؛ فلا يقال: أم أأنت مسافر. أما غيرها من أدوات الاستفهام فإنها تقع بعد (أم)؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [الرعد:١٦]، وقال سبحانه ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك:٢٠-٢١].

هـل:

من أدوات الاستفهام (هل)، وهي للتصديق فحسب، لا يسأل بها عن التصور، ولهذا يمتنع أن تأتي بعدها (أم) والمعادل؛ تقول: هل يستعد العرب لإنقاذ فلسطين؟ هل تعوض ما فاتك في هذا العام؟ هل يقاطع العرب أمريكا؟.

أما أن المعادل لا يذكر بعدها؛ فلأن ذلك يؤدي إلى التناقض كما مر معك من قبل، فإن سؤالك بـ (هل) يقتضي جهلك بالحكم، وذكرك المعادل بعد (أم) يدل على معرفتك بالحكم، فيجتمع في الجملة الواحدة علمك بالحكم وجهلك به، وقد وضحت ذلك لك عند الحديث عن الهمزة.

**أحكام هل:**

الحكم الأول: عرفت أن أول حكم من أحكام هل هو أنها لا تكون إلا للتصديق، ولهذا لا تذكر بعدها (أم) ولا المعادل؛ لأن ذلك يفضي إلى التناقض، فإن ذكِرَتْ (أم) بعدها؛ فهي المنقطعة.

الحكم الثاني: أما الحكم الثاني من أحكام (هل)؛ فهو أنها إذا دخلت على المضارع؛ فإنها تخلصه للاستقبال، فهي كالسين و(سوف)، ألا ترى أنهما حينما تدخلان على المضارع فإنما يكون للاستقبال ولا يكون للحال.

فإذا دخلت (هل) على الفعل المضارع؛ فيجب أن يكون هذا الفعل للاستقبال، ولا يجوز أن تدخل على الفعل إذا كان للحال، أو كان معناه ماضياً؛ فلا يجوز أن تقول لمن عرفته يعق والديه ويؤذي زملاءه ويغش في امتحانه؛ لا يجوز أن تقول: هل تعق والديك؟ وهل تؤذي زملاءك؟ وهل تغش في امتحانك؟ لأن هذه الأفعال ليست للمستقبل، وإنما وقعت في الماضي؛ والصحيح أن تقول: أتعق والديك؟ .

لذلك يجب أن تدخل الهمزة على الفعل دون (هل): أتعق والديك؟ أتؤذي زملاءك؟ أتغش في امتحانك؟ .

ولا تدخل (هل) على الفعل المضارع إلا إذا كان يدل على الاستقبال: هل تكمل دراستك؟ هل تنشئ أبناءك تنشئة تحول بينهم وبين الميوعة والإلحاد؟ وقال تعالى: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الصف:١٠]، ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾ [الزمر:٩]، فإن هذه الأفعال جميعاً تدل على المستقبل، أما إذا دخلت هل على الماضي، أو الجملة الاسمية فلا تغير فيهما شيئاً.

الحكم الثالث: الحكم الثالث من أحكام (هل) أنها لا تدخل على الشرط، فلا تقول: هل إن جئتك تكرمني؟ كما أنها لا تدخل على (إنّ)، فلا تقول: هل إنك ناجح؟ ولا على المضارع المنفي، فلا تقول: هل لم يستيقظ النائمون؟ ولا حرف العطف؛ كما تقدم لك من قبل.

الحكم الرابع: الحكم الرابع من أحكام (هل) أنها يقبح دخولها على جملة يشعر نظمها بمعرفة الحكم؛ فلا يحسن أن تقول مثلاً: هل فنونَ البلاغة أحببت؟ وهل خالداً أكرمت؛ لأن (هل) يستفهم بها عن معرفة الحكم، فإذ كان نظم الجملة يدل على أن الحكم غير مجهول؛ يقبح أن تأتي بـ (هل)؛ كما في الجملتين السابقتين؛ لأن قولك: فنون البلاغة أحببت. وخالداً أكرمت. لا يدل على حبك لفنون البلاغة وإكرامك خالداً فحسب، وإنما يدل على شيء، وهو اختصاصك لهذه الفنون بالحب دون غيرها، واختصاصك خالداً بالإكرام، فإذا قلت: هل فنون البلاغة أحببت؟ فتركيب الجملة يوحي بأنك لا تجهل حبه لفنون البلاغة، و(هل) يستفهم بها من جهل هذا الحكم، فيحسن أن تقول إذن: هل أحببت علوم البلاغة؟ وهل أكرمت خالداً؟ أما إذا أردت إبقاء التركيب على ما هو عليه؛ فإنك تجيء بالهمزة: أفنون البلاغة أحببت؟.

واعلم أن (هل) يكثر أن يأتي بعدها الفعل؛ لذلك ذهب بعض النحويين إلى أن (هل) في أصلها بمعنى (قد)، وخرجوا عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]؛ قالوا: معناه: قد أتى على الإنسان.

وتدل على الاستفهام إذا اقترنت بالهمزة، ومنه قول زيد الخير:

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشدَّتِنا ... أَهَلْ رَأَوْنا بِسَفْحِ القاعِ ذي الأَكَمِ[1]

ولكن الهمزة تنوسيت فيما بعد.

---

(١) «الخزانة» (١١/ ٢٦١)، «شرح شواهد المغني» (٦/ ٦٧).

## بقية أدوات الاستفهام

**(ما) :**

وأكثر ما يستفهم بها عن غير العقلاء، وقد تكون لتعريف الشيء، وبيان معناه من حيث اللغة؛ كما يقال لك: ما الغضنفر؟ فتقول: الأسد. وما البر؟ فتقول: القمح.

وقد يسأل بها عن حقيقة الشيء؛ كما يقال لك: ما البلاغة؟ فتقول: وصول المعنى إلى القلب بأحسن صورة من اللفظ.

وقد كثر استعمال ما الاستفهامية في كتاب الله تعالى، وبخاصة في التهويل والتعظيم، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٣].

**(من) :**

وأكثر ما تُستعمل للعقلاء؛ تقول: من في البيت؟ فيقول لك: فلان. من حرر فلسطين من الصليبيين؟ فتقول: صلاح الدين. من كان دليل أبرهة إلى مكة؟ فتقول: أبو رغال.

وذهب السكاكي إلى أنه يُسأل بها عن الجنس كذلك، وأنكر عليه صاحب «التلخيص» هذا، واستدل السكاكي بقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩]، أي: ملك أم بشر؟ فقال عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠]، أي: هو الذي خلق الأجناس كلها.

ويستأنس لقول السكاكي بما جاء في الشعر:

أتَــوْا نــارِي فَقُلْــتُ مَنــون أنــتُم ... فَقالوا الجِنُّ قلـت عمـوا ظلامـاً[1]

فقد سئلوا بـ (من)، وأجابوا بالجنس.

---

(١) حاشية «الكشاف» (١/ ٢). قيل: لسمير بن الحارث الضبي. وقيل: لتأبط شراً. وقيل: لشمر الغساني.

(أي) :

ويسأل بها عما يميز أحد المتشاركين في أمر من الأمور، قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٨١].

وقد كثر في السنّة أسئلة الصحابة – رضوان الله عليهم – أي الإيمان أفضل؟ أي الناس أحق بصحبتي؟ أي الأعمال خير؟

وفي قول أبي فراس:

فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهَوى قتِيلُكِ، قالت: أيُّهم؟ فهمُ كُثْرُ

فأنت ترى أن ما دخلت عليه (أي) إنما هو مشترك مع غيره، فكان الهدف من السؤال تمييزه.

(كم) :

ويُستفهم بها عن العدد. قال في «المفتاح»[1]:

«فإذا قلت: كم درهماً لك؟ وكم رجلاً رأيت؟ فكأنك قلت: أعشرون، أم ثلاثون، أم كذا، أم كذا؟ وتقول: كم دراهمك؟ وكم مالك؟ أي: كم دانقاً، وكم ديناراً؟ وكم ثوبك؟ أي: كم شبراً، وكم ذراعاً؟ وكم زيد ماكث؟ أي: كم يوماً، أو كم شهراً؟ وكم رأيتك؟ أي: كم مرة؟ وكم سرت؟ أي: كم فرسخاً، أو كم يوماً؟ قال الفرزدق:

فيمن روى بنصب المميز» .

(كيف) :

ويُستفهم بها عن الحال، كقولك: كيف زيد؟ فالجواب: صحيح أو سقيم.

---

(١) «المفتاح» ، للسكاكي، (ص١٣٥).

(أين) :

ويُستفهم بها عن المكان؛ كقولك: أين زيد؟ فالجواب: في الدار أو في السوق.

(متى) :

ويُستفهم بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً؛ كقولك: متى جئت؟ والجواب: سَحَراً. وتقول: متى تأتي؟ والجواب: بعد شهر.

(أيَّان) :

ويُستفهم بها عن المستقبل؛ كقولك: أيان يثمر هذا الغرس؟ والجواب: بعد سنة، وتستعمل في مواضع التفخيم؛ كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [القيامة:٦]، وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٢].

(أنّـى) :

وتكون:

١- بمعنى (كيف)؛ كقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[البقرة:٢٢٣]، أي: كيف شئتم.

٢- بمعنى (من أين)؛ كقوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴾ [آل عمران:٣٧].

٣- بمعنى (متى)؛ كقولك: أنّـى يحضر الغائبون؟ .

## المطلب الثاني

## الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام

الأدوات السابقة وضعت للاستفهام – كما رأيت – ولكنها قد تخرج عن هذا الوضع إلى أغراض يمكن أن تفهم من السياق؛ كما مرّ في الأمثلة السابقة، وأهم هذه الأغراض:

**أولاً: التقرير:**

مفهومه: ومعناه أن تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده، لكنك تخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام، ذلك لأنه أوقع في النفس، وأدل على الإلزام... انظر إلى قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك:٨]، فإن الغرض منه إقرارهم بمجيء النذير؛ لكنه أخرجه بصورة الاستفهام، وذلك لما فيه من حجة دامغة.

**أقسامه:**

١- **بمعنى التحقيق والتثبيت**: ومنه قولك لصاحبك: ألم أفتح لك كثيراً من أبواب الخير؟ أي: قد فعلت ذلك.

ومنه قولك لابنك وقد نهيته عن فعل ما، ولكنه فعله: أفعلت هذا؟ .

أنت لا تستفهم أفعل أم لم يفعل؟ لذلك أنت لا تريد جواباً، بل تريد أن تخبره بأنه فعل، وأن تنتزع اعترافه بذلك.

وهذا كثير في التنزيل؛ يقول العبد الصالح لموسى عليه السلام: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٥]؛ فهو تحقيق وتثبيت لما قاله لموسى من قبل، وقد حدثنا القرآن الكريم أن موسى لما طلب من العبد الصالح أن يتبعه، بين له أنه لا يستطيع: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف:٦٥-٦٨]. قول العبد الصالح إذن: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٥]؛ معناه: إنني قد قلت ذلك، فهو تثبيت للقول، وتحقيق له.

وهذا القسم من الاستفهام التقريري هو إنشاء من حيث اللفظ، خبر من حيث المعنى؛ إنشاء من حيث اللفظ؛ لأن صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء - كما عرفت - ،

خبر من حيث المعنى؛ لأن معناه – كما رأيت – تثبيت الخبر وتحقيقه، فمعنى ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ [الشعراء:١٨] قد ربيناك، ومعنى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح:١]؛ قد شرحناه.

فهذه الجمل: لفظها إنشاء، ومعانيها أخبار؛ وهذا القسم كذلك لا يطلب المتكلم له جواباً؛ لأنه إنما يريد تحقيق الخبر فقط، فهو لا يحتاج إلى جواب من المخاطب.

**٢- طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم:** وهذا كثير في التنزيل كذلك؛ قال تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس:٨١]، ومنه قولك لأحد طلابك: ألست بأستاذك؟.

**يختلف هذا القسم عن سابقه بما يلي:**

**أ- هو إنشاء لفظاً ومعنى:** فقولك: ألست بأستاذك؟ هذه إنشاء من حيث اللفظ؛ لأنها على صورة الاستفهام، والاستفهام من أقسام الإنشاء، وهي إنشاء كذلك من حيث المعنى؛ فإن المقصود من العبارة حمل تلميذك على أن يقر بذلك، وهكذا الآيات الكريمة.

**ب- إن هذا القسم يحتاج إلى جواب:** ألا ترى أنه قد جاء في كثير من الآيات الكريمة جواب على هذا الاستفهام، مثل قوله سبحانه: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١]، ويندب لمن قرأ: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٤٠]، أو ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين:٨] – وهما آخر آيات السورتين – أن يقول: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين[١].

---

(١) جواب هذا الاستفهام – كما رأيت – حرف (بلى)، ولا يجوز أن يكون (نعم).

وهكذا حين تقول لتلميذك: ألست بأستاذك؟ فإنك تنتظر منه جواباً.

ولا تظن أن الاستفهام التقريري لا يكون إلا بالهمزة وحدها؛ مثل: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح:١]، أو بها و بـ (ليس)؛ مثل: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]، فقد يكون بالهمزة مع (لم) – كما عرفت من قبل – وقد يكون بالهمزة من غير نفي؛ كقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٢].

وقد يكون الاستفهام التقريري بغير الهمزة كذلك، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان:١]، فهذا استفهام تقريري، معناه التحقيق؛ لذلك ذهب كثير من العلماء إلى أن معنى (هل) في الآية الكريمة (قد)، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر.

ومنه قول عمر أبي ريشة:

أُمَّتي هَلْ لَكِ بينَ الأُمَمِ ... مِنْبَرٌ للسَّيْفِ أو لِلْقَلَمِ

والغرض البياني من الاستفهام التقريري إلزام المخاطب بالحجة، وانتزاع الاعتراف منه بما يريده المتكلم، وفي ذلك غرض نفسي، وذلك لأن البيان والبلاغة لهما صلة وثيقة بقضايا النفس، وبعلم النفس كذلك.

**ثانياً: الإنكار:**

**مفهومه:** من أهم الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام عن وضعها الحقيقي، ومن أكثرها شيوعاً: الإنكار، ويسمى استفهاماً إنكارياً.

والفرق بينه وبين الاستفهام التقريري أنك في الاستفهام التقريري تريد تثبيت الأمر وتحقيقه؛ كما في النوع الأول، أو تنتزع إقرار المخاطب واعترافه؛ كما في القسم الثاني، أما في الاستفهام الإنكاري؛ فأنت لا تقرر المخاطب في شيء، وإنما تنكر عليه، وتستهجن ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل.

أقسامه: والاستفهام الإنكاري قسمان كذلك: تكذيبي وتوبيخي؛ لأنك حينما تنكر من شخص أمراً ما؛ فإما أن يكون هذا الأمر قد ادعاه لنفسه، وليس ذلك صحيحاً، فأنت تكذبه فيما ادعى، وإما أن تنكر عليه قولاً قاله، أو عملاً عمله، ولم يكن ينبغي له ذلك، فأنت توبخه على ما صدر منه، وكل من التكذيبي والتوبيخي؛ إما أن يكون على أمر قد مضى، أو على أمر في الحال، فالأقسام أربعة: تكذيب لأمر مضى، وتكذيب لأمر في الحال أو في الاستقبال، وكذلك التوبيخي.

١- الاستفهام التكذيبي: فمثال التكذيب في الماضي أن يدعي عليك أحد أنك غبت عن عملك، أو هادنت عدواً من أعداء الأمة، أو أخذت رشوة على واجب قمت به، فتقول له: أرأيتني ارتشيت؟ أقلت: إني هادنت أعدائي؟ أزعمت بأنني غبت عن عملي؟ فأنت هنا لست مستفهماً عن شيء لم تعمله، وإنما جئت بأداة الاستفهام، فأخرجتها عن وضعها الحقيقي، فأنت تنكر على صاحبك وتكذبه فيما صدر منه في الماضي.

ومنه هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، فإنه ينكر عليهم هذه الافتراءات والادعاءات، وهي أن الله أصفاهم بالبنين، واتخذ من الملائكة بنات له، فهو يكذبهم بهذا القول الذي صدر منهم، ومثله قوله سبحانه ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٥]، فهو إنكار عليهم، وتكذيبهم لهم فيما ادعوه.

ومثال التكذيب في غير الماضي قولك لمن تعرف أنه غارق في اللهو، ممعن في مودة أعداء الله: أتزعم أنك ستحرر الأقصى؟ فأنت تنكر عليه، وترد عليه ادعاءه. وقولك لمن تعرف جشعه: أهو يبني مدرسة للأيتام؟ وقولك لمن تعرف كسله وإهماله في الدارسة: أتدعي أنك ستفوز بالجائزة؟ فأنت تكذبه في دعواه، وتنكر أن يكون له ذلك.

التكذيب في الماضي إذن معناه أن هذا الشيء لم يحصل، ولم يحدث، والتكذيب في غير الماضي معناه أن هذا الشيء لن يحصل، ولن يحدث، ولن يكون.

**٢- الاستفهام التوبيخي**: أما التوبيخي – وهو القسم الثاني من الاستفهام الإنكاري – ؛ فمثاله في الماضي أن تقول لمن عرفته جاداً مجتهداً، ولكنه رسب في امتحانه الأخير: أرسبت في امتحانك؟! فأنت توبخه، وكأنك تقول له: ما كان ينبغي منك هذا. وكذلك قولك لمن نشئ على الفضيلة، ولكنه عمل عملاً غير لائق: أأنت يصدر منك هذا الفعل؟ فأنت توبخه، وتقول له: ما كان ينبغي أن يكون منك هذا، غيرك يمكن أن يصدر منه.

ومثال التوبيخ في المستقبل أن تقول لمن سمعت أنه سيذهب ليفاوض الأعداء: أتذهب لمفاوضة يهود؟ وكذلك قولك لمن عرفت أنه سيترك الدراسة: أتترك دراستك؟ ولمن سمعت أنه سيرحل عن وطنه: أتترك وطنك؟ فأنت توبخه على هذا، وتقول له: لا ينبغي أن يكون ذلك منك.

الاستفهام التوبيخي في الماضي إذن معناه أنه ما كان ينبغي لك هذا، وما كان يليق أن يصدر منك، والتوبيخي في غير الماضي معناه لا يصح أن يكون ذلك منك ويحدث.

ومن هنا تدرك أن الاستفهام التوبيخي قد يكون على شيء حدث بالفعل، أو يمكن أن يحدث، وهذا هو الفرق بينه وبين التكذيبي، فقد عرفت أن التكذيبي هو ما لم يحدث في الماضي، ولن يحدث في المستقبل.

ومثال الاستفهام التوبيخي في كتاب الله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨]، فهو يوبخهم على أن يقع منهم ذلك؛ كأنه يقول: لا ينبغي أن يكون منكم الكفر، وهذه نعم الله عليكم كما تعرفون.

**ثالثاً: الأغراض الأخرى:**

ومن الأغراض التي يمكن أن تخرج لها أدوات الاستفهام غير التقرير والإنكار:

١- التعجب: أرفعت هذه الصخرة؟ أفتح مسلمة ذلك الحصن؟

ومنه قول الشاعر:

ألإسـرائيلَ تَعْلــو رايــةٌ   في حِمَـى المَهْـدِ وظِـلِّ الحَـرَمِ

٢- الوعيد والتخويف: ومنه قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات:١١]، ومنه قولك لولدك: ألم تر ما فعلته أمس بأخيك؟ ولتلاميذك: ألم تسمعوا بنتيجة امتحان الفصل الأول؟.

٣- الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٥]، وقوله سبحانه: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١]، وقولك لزميلك: هل أنت متعظ؟.

٤- النهي: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ [التوبة:١٣].

٥- التهكم: ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧].

٦- الاستبعاد: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقوله سبحانه: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان:١٣]، ومنه قولك: كيف نحرر الأقصى وأمتنا مزق متفرقة؟.

٧- التهويل: وهو كثير في كتاب الله: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:١-٢]، ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٢]، ومنه قولك: فلسطين وما فلسطين؟.

٨- التحقير: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان:٤١]، وهو قريب من التهكم: أهذا الذي زعم أنه سيرجع المغتصب والسليب من الأرض؟.

٩- التنبيه على ضلال المخاطب: كقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير:٢٦]، ومنه قولك للسادرين في الغي: أين أنتم؟.

١٠- التمني: كقوله تعالى: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾ [الأعراف:٥٣].

١١- الاستبطاء: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]، ومنه قول الضجر: متى يطلع الصبح؟ ويقول المتعب المنهك: متى تنتهي السنة الدراسية؟.

١٢- التعظيم: كقول أبي نواس:

إذا لَمْ تَـزُرْ أَرْضَ الخَـصيبِ رِكابُنا ... فـأيُّ فتـى بعـدَ الخَـصيبِ تَـزورُ[1]

ومنه قولك: أي رسول هذا الذي منَّ الله علينا به؟ وأيّ دين هذا الذي أكرمنا الله به؟ وأي تراث الذي أضعناه؟ .

١٣- النفي: كقول الشاعر:

هلِ الـدَّهرُ إلاّ سـاعةٌ ثـم تَنْقَضي ... بما كانَ فيها من بلاءٍ ومـن خَفْضِ

ومنه قولك للمتكبر: هل أنت إلا نطفة مذرة، وجيفة قذرة؟ .

١٤- التشويق: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف:١٠]، ومنه قولك لصاحبك وله عندك ما يسره: هل أبشرك بما يفرح به قلبك؟ .

١٥- التكثير: قول أبي العلاء المعري:

صاحِ هـذي قُبورُنـا تَملأ الرُّحْـبَ ... فـأينَ القُبـورُ مِـنْ عَهْـدَ عـادِ[2]

١٦- التسوية: كقوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦].

---

(١) «الديوان» (ص٤٨١)، تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي.

(٢) «معاهد التنصيص» (١/ ١٣٥).

وأنبهك أخيراً إلى أمرين اثنين:

أ- إن هناك أغراضاً غير هذه يمكن أن تفهم من السياق.

ب- قد يكون هناك تداخل بين هذه الأغراض، فقد يكون التقرير مع التوبيخ، وقد يكون التقرير مع التعجب، وهذا كثير في كتاب الله تعالى، مثل: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وهذه خلاصة لمبحث الاستفهام، وهو مبحث مهم، ولذلك كثر في آيات الذكر الحكيم، فاحرص عليه، وحاول أن تفيد منه في حديثك وكتابتك، والله يتولانا جميعاً بالرعاية والتوفيق.

**خلاصة في مباحث الإنشاء:**

هذه مباحث الإنشاء، وهي ذات أثر ملحوظ في البلاغة العربية، فهي – إن استفيد منها – تثري أسلوب الكاتب والمتكلم بكل ما يثير النفوس، ويرهف الإحساس، ويوقظ المشاعر، ويؤثر في القلوب.

وقد يوضع كل من الخبر والإنشاء مكان صاحبه، فلقد عرفت في مباحث الاستفهام أن منه ما يكون إنشاء في اللفظ خبراً في المعنى؛ مثل: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح:١]؛ أي: شرحناه، وإنما ألبسناه ثوب الإنشاء لأغراض بيانية من شأنها أن تجعل الكلام أكثر تأثيراً في النفوس، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك، فنلبس الإنشاء ثوب الخبر، أي: كما استعملنا الإنشاء في موضع الخبر، نستعمل الخبر في الموضع الإنشاء، وذلك لأغراض بيانية؛ منها:

١- **التفاؤل**: مثل: أعاذك الله من الشبهة. وعصمك من الحيرة. وأذاقك حلاوة التقوى. فهذه جمل خبرية، لكن المقصود بها الدعاء، وهو إنشاء لا ريب.

٢- **لإظهار الحرص في وقوعه**: لأن الطالب إذا عظمت رغبته في شيء؛ كثر تصوره إياه، فربما يخيل إليه حاضراً، فيورده بلفظ الماضي، وذلك كقولك لمن يرجو بلوغ أمنية: بلغك الله ما تريد. قضى الله دينك، وجعل لك من ضيقك مخرجاً.

٣- للاحتراز عن صورة الأمر: وذلك من باب التأدب في الحديث، واللطف في القول؛ كقولك لمن تريد منه أمراً: ينظر الأستاذ في قضيتي. فهو أكثر لطفاً من أن يقول له: انظر في قضيتي.

٤- لحمل مخاطبك على مطلوب منه: فبدلاً من أن تقول له: ائتني غداً. واقرأ موضوع كذا. تقول: تقرأ موضوع كذا. وتأتيني غداً.

والإنشاء يشترك مع الخبر في كثير من مباحثه؛ كالتقديم والتأخير، والتأكيد وعدمه، إلا أن تأكيد الخبر – كما عرفت من قبل – يكون لإزالة الشك، أو الإنكار، ولكن تأكيد الإنشاء لا يمكن أن يكون لهذا السبب، فالإنشاء – كما عرفت – لا يوصف قائله بالصدق والكذب، ومن أجل ذلك ظن بعض الكاتبين المحدثين أن الإنشاء ليس فيه تأكيد، والحق أن الإنشاء يؤكد كما يؤكد الخبر، لكن تأكيد الإنشاء إنما يكون لاستبعاد المطلوب، وعدم تأكيده؛ لكونه غير مستبعد.

# الفصل الرابع

## التقديم والتأخير

بعد أن حدثناك عن الجملة الخبرية والإنشائية، يحسن بنا أن نحدثك عن مباحث جليلة تتعلق بالنظم، وأكثر هذه المباحث تتعلق بالجملة الواحدة، وقد يتعلق بعضها بجملتين اثنتين؛ كالفصل والوصل، وأول ما نبدؤك به الحديث التقديم والتأخير.

حدثناك من قبل عن النظم، وقلنا: إنه ترتيب الألفاظ في النطق تبعاً لترتيب المعاني في النفس، ومن هنا فقد يكون الكلام واحداً في مادته وحروفه، ولكن قد تختلف صيغته وترتيب كلماته من متكلم لآخر، بل عند المتكلم الواحد، إذا اختلف المعنى في نفسه.

قد تريد أن تنفي عن نفسك الغش في الامتحان، ولكن دون أن تثبته لأحد، وفي حالة أخرى تريد أن تثبته لغيرك، وتنفيه عن نفسك. هاتان حالتان من حالات النفس، تشتركان في نفي الغش عن نفسك، وتنفرد إحداهما في إثباته لغيرك، والتعبير عن الحالتين لا يجوز أن يكون على نمط واحد:

**ففي الحالة الأولى تقول:** أنا ما غششت في الامتحان. إذا وجدت داعٍ للتأكيد، وما غششت في الامتحان. إذا لم يكن للتأكيد داع، فأنت هنا تنفي الغش عن نفسك دون أن تعرض لأحد آخر.

**أما في الحالة الثانية، فإنك تقول:** ما أنا غششت في الامتحان، والفرق بين العبارتين - مع اتحاد حروفهما وكلماتهما - أنك قدمت فيهما بعض الكلمات على بعض.

وعلى هذا المنوال تدرك مطمئناً أن قولنا: بالقلم الجاف أكتب. يختلف عن قولنا: اكتب بالقلم الجاف. وأن قولنا: أتصادق خالداً؟ يختلف عن قولنا: أخالداً تصادق؟ وأن قولنا: الحمد لله. يأتي في سياق لا يصلح أن تقول فيه: لله الحمد.

ولهذا جاء في التنزيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، كما جاء فيه كذلك: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية:٣٦]، وجاء في التنزيل: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩]، وجاء فيه كذلك: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ [الروم:٤].

وإذا أردت أن تعرف خبر التقديم والتأخير؛ فاستمع إلى قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، ولم يقل: يحيي ويميت ربي. والفرق كبير، فقول: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ يفيد أنه لا محيي ولا مميت إلا الله، ولو قيل: يحيي ويميت ربي. لكان المعنى: إن الله قادر على الإحياء والإماتة، ولا مانع أن يقدر عليهما غيره. ولهذا قال ذلكم المجادل: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾. أي: أنا لا غيري؛ لأن النزاع ليس على قدرة الله على الإحياء والإماتة، بل في تفرد الله تبارك وتعالى بهما.

واستمع إلى هاتين الآيتين: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، وقوله سبحانه: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٥]، فانظر كيف قُدِّم الذكر في الآية الثانية، وأُخِّر في الأولى، كيف جاء الإضراب في كل منهما، وفي الآية أكثر من وجه من وجوه الإعجاز، تجد تفصيله إن شاء الله في كتابنا: «إعجاز القرآن المجيد؛ عرض ونقد وتجديد».

وإنما جئت لك بهذه النماذج؛ لتدرك خطر التقديم والتأخير، وعِظَم شأن النظم الذي هو عمود إعجاز القرآن، ولتدرك ما للعرب من تفنن في نطقهم، ولتتذوق إعجاز القرآن، الذي تراه يقدم الكلمة تارة، ويؤخرها أخرى.

وحديثنا في التقديم والتأخير ينحصر في مباحث ثلاثة:

الأول: تقديم المسند إليه.

الثاني: تقديم المسند.

الثالث: تقديم متعلقات الفعل.

## المبحث الأول
# تقديم المسند إليه

يقدم المسند إليه لاعتبارات وأغراض أهمها:

**أولاً: التشويق:**

وذلك بأن يكون في المسند إليه غرابة من شأنها أن تشوق المخاطب إلى معرفة المسند، وذلك لأن المسند والمسند إليه متلازمان، والمثال الذي يمثلون به قول أبي العلاء:

والـــذي حـــارتِ البريَّـــةُ فيـــهِ حيـوانٌ مُـسْتَحْدَثٌ مِـن جَمـادِ[1]

فالمسند إليه الاسم الموصول، وهو (الذي)، والجملة التي بعده: «حارت البرية فيه»؛ صلة له، والموصول وصلته متلازمان؛ كأنهما شيء واحد، والمخاطب هنا تتشوف نفسه، ويتشوق فؤاده؛ لمعرفة الخبر – أعني المسند – ذلك لأن في المسند إليه غرابة، ما الذي حارت الرية فيه يا ترى؟ فيجيء الخبر متأخراً: «حيوان مستحدث من جماد».

والذي يعنيه أبو العلاء البعث الجسماني؛ يوم يخرج الناس من أجداثهم، فالناس قد تحيروا في البعث الذي هو إعادة الناس بعد أن كانوا تراباً، ودليل هذا ما جاء في البيت الذي قبل هذا البيت:

بـانَ أمْـرُ الإلَـهِ واخْتَلَـفَ النَّـاسُ فَـداعٍ إلى ضَـلالٍ وَهــادي[2]

فلا تلتفت إلى ما قاله بعض الكاتبين المحدثين من أن أبا العلاء يعني ببيته هذا الإنسان، إذ كيف يحار الإنسان في أمر الإنسان.

---

(١) «المعاهد» (١/ ١٣٥).

(٢) «المعاهد» (١/ ١٣٦).

هذا هو المثال الذي كادت الكتب قديمها وحديثها تقتصر عليه، ويمكنك أن تقيس عليه كل ما يشبهه، فإذا قلت: الداء العضال الذي أعيا كل نطاسي. فهذا كلام فيه غرابة، والنفوس مستشرفة لتعرف ما هو؟ أهو الصداع؟ أم السرطان؟ فإذا قلت: التفرق. فأنت قدمت المسند إليه لتشوق السامع إلى ما بعده.

وكذلك إذا قلت: أعدى أعدائك. فإنك تجعل السامع تواقاً لمعرفته، فإذا قلت: نفسك التي بين جنبيك. فإنك تذهب صداه، وتبل ظمأه.

وكذلك إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]؛ فالمخاطبون يستعجلون معرفة الخبر، ولا سيما أنهم كانوا يحسبون أن الكرم هو البذل، ولكنه هنا شيء آخر، إنه التقوى.

وهكذا يمكنك بعد هذه الأمثلة أن تعي هذه القاعدة، وهي أنك تقدم المسند إليه إذا كان فيه غرابة تجعل المخاطب تستشرف نفسه معرفة المسند الذي لا تتم الفائدة إلا به.

**ثانياً: إفادة التخصيص وتقوية الحكم:**

**وهذه صور ثلاث:**

**الأولى:** وهي أن يكون المسند إليه بعد النفي، وأن يكون المسند فعلاً: ما أنا فتحت الباب.

**الثانية:** أن يتأخر النفي عن المسند إليه، وأن يكون المسند فعلاً: أنا ما فتحت الباب.

**الثالثة:** أن لا يكون المسند إليه منفياً، ويكون الخبر فعلاً: أنا فتحت الباب.

**الصورة الأولى:**

لتوضيح هذه الصورة إليك هذه الأمثلة:

ما أنا غششت في الامتحان. ما أنا فرطت في وطني. ما المسلم يضيع وقته.

أنت ترى هذه الأمثلة اجتمع لها هذان الشرطان؛ فالمسند إليه وقع بعد النفي، وجاء الخبر فعلاً.

ومعنى إفادة التخصيص أن المسند إليه ليس هو الذي وقع منه هذا الفعل، ولكن هذا الفعل وقع من غيره، فقولك: ما أنا غششت في الامتحان. أردت منه أمرين اثنين:

أولاً: نفي الغش عن نفسك.

ثانياً: إثباته لغيرك.

وكذلك قولك: ما أنا فرطت في وطني. لا تقوله إلا إذا أردت نفي التفريط عنك، وإثباته لغيرك.

وقولك: ما المسلم يضيع وقته. لا يقال إلا إذا أردت أن تثبت أن هناك من الناس من يضيع وقته.

وهكذا ندرك أننا لا نستعمل هذا الأسلوب، ولا نركب الجملة هذا التركيب؛ إلا إذا أردنا هذين الأمرين معاً، أعني نفي الفعل عن أنفسنا، وإثباته لغيرنا، فلا يجوز أن تقول: ما أنا غششت في الامتحان. وأنت لا تريد إلا نفي الغش عن نفسك دون أن تثبته لأحد.

ومما سبق ندرك أنه لا يجوز أن تقول: ما أنا غششت في الامتحان ولا غيري. لأن في هذا الكلام تناقضاً ظاهراً، إذ قولك: ما أنا غششت في الامتحان: فيه إثبات الغش لغيرك، وقولك: ولا غيري،. في نفي للغش عنه، فتكون قد أثبت شيئاً ونفيته في جملة واحدة. وكذلك لا تقول: ما أنا فتحت الباب ولا غيري؛ لأن قولك: ما أنا فتحت الباب، دالٌّ على أن غيرك فتحه، فكيف تقول: ولا غيري؟ .

فإذا أردت نفي الشيء عن نفسك فقط، ولا تريد أن تثبته لأحد غيرك، فيجب أن تغير هذه الصورة من النظم، فتقول: أنا ما غششت في الامتحان. وهذه الصورة التي سنتحدث عنها بعد قليل – فإن هذا التركيب يمكن أن يكون معناه نفي الغش عن نفسك؛ دون إثباته لأحد آخر. وإنما قلنا: يمكن؛ لأنه قد يفيد التخصيص إذا كانت هناك قرائن، وكان السياق يساعد على ذلك.

والخلاصة: أنه إذا كان المسند إليه منفياً، وكان المسند فعلاً، فإن تقديم المسند إليه يفيد التخصيص قطعاً.

وهنا دقيقة بيانية لا بد أن أنبهك لها، فلقد عرفت أن تقديم المسند إليه يفيد التخصيص في شرطين اثنين:

١- أن يقع بعد نفي.
٢- أن يكون المسند فعلاً.

والشرط الأول مجمع عليه، أما الثاني - وهو أن يكون الخبر فعلاً - فهذا ما ذهب إليه الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - لكن الزمخشري - رحمه الله - وتبعه كثير من العلماء، يتوسعون في هذا الشرط، فهم يعطون هذا الحكم للفعل وما في معناه؛ كاسم الفاعل، واسم المفعول، فإذا كان المسند إليه مسبوقاً بنفي، وكان الخبر فعلاً أو ما في معناه؛ أفاد التخصيص، ويطبق الزمخشري هذه القاعدة على آي من الكتاب العزيز، فعند قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١]؛ يبين أن المسند إليه هنا يفيد التخصيص، إذ ليس غرض قومه أن ينفوا العزة عنه فحسب، بل إن لهم غرضاً آخر، وهو أن يثبتوها لرهطه وقومه، ولو قالوا: ما عززت علينا. لذهبت هذه الفائدة.

ويستدل الزمخشري، على ما ذهب إليه بما جاء في الآية التي تلي هذه الآية: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٩٢]، ولو أن المسند إليه لا يفيد التخصيص ما صحت العبارة، فيُفهم من قولهم إذن: إنك لست العزيز، إنما هم قومك.

وعلى هذا يمكن أن تطبق هذه القاعدة إذا كان الخبر شبيهاً بالفعل في قوله سبحانه عن الكافرين: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة:٣٧]، فليس الغرض منه نفي خروجهم فحسب، بل إثبات قضية أخرى، وهي أن غيرهم يخرجون من النار.

**الصورة الثانية:**

أن يكون النفي متأخراً عن المسند إليه، وإذا كان كذلك؛ كان الغرض منه تقوية الحكم، وقد يفيد التخصيص بقرائن.

ونعني بتقوية الحكم تأكيده والتنبيه على صدقه وأحقيته؛ تقول إذا أردت التأكيد: أنا لا أضيع وقتي. أنا لا أضعف عن الحق. المسلم لا يساوم على دينه. المستغرق في شهوته لا يعول عليه في خدمة وطنه.

ففي هذه الأمثلة جميعها وما يشابهها أنت لا تقصد تخصيصاً، وربما لا تقصد إثبات هذا الحكم لغيرك، ولكنك تقصد تقوية هذا الحكم وتأكيده؛ فقولك: أنا لا أضيع وقتي. أبلغ وأكثر تأكيداً من قولك: لا أضيع وقتي. وكذلك قولك: أنا لا أضعف عن الحق. أبلغ وأقوى في تأكيد الحكم من قولك: لا أضعف عن الحق. لأنك ذكرت الاسم مرتين؛ مرة ظاهراً في أول الجملة، وهو قولك: أنا. ومرة ضميراً مستتراً تقديره أنا؛ لأن الفعل في الجملة يحتاج إلى فاعل، وهذا الفاعل يعود على المسند إليه.

وقد جاء هذا كثيراً في التنزيل؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٩]، فهو أبلغ من قوله: والذين لا يشركون بربهم. وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٣].

وهذا النوع قد يفيد التخصيص إذا دلت القرائن على ذلك، وإذا فُهم ذلك من السياق، فإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥]؛ أدركنا أن المقصود هنا ليس تقوية الحكم فحسب – مع أنها مستفادة من النظم – بل تفيد الآية الكريمة كذلك التخصيص؛ لأن غير الله يخفى عليه ما في السماوات والأرض، والله وحده هو الذي لا يخفى عليه شيء.

**الصورة الثالثة:**

وهي أن يكون المسند إليه مثبتاً لا منفياً، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٥]، فالمسند إليه (هم)؛ جاء مثبتاً لا منفياً، وهذا لا

يفيد التخصيص عند السكاكي، ويرى السعد أنه يفيد التخصيص، فإن معنى التخصيص هنا أن نثبت أن اليهود وحدهم يقولون الكذب ويعلمون أنه كذب، أما تقوية الحكم؛ فأن نثبت هذا الحكم لليهود، وقد يكون لغيرهم من الناس كذلك.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف:٤٠]، يرى السكاكي أنه لتقوية الحكم، ويقول السعد: إنه يفيد التخصيص، ورجح بعض الأجلّة رأي السكاكي.

وكذلك قولك لصاحبك: أنت تحترم رأي غيرك. فأنت لا تقصد هنا أن تنفي هذا الحكم عن غيره، وهذا معنى تقوية الحكم، فإذا قصدت إثباته له، ونفيه عن غيره، فهو التخصيص.

والذي يبدو لي أن هذا القسم كثيراً ما يفيد التخصيص، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [النحل:٧٠]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل:٨١]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]؛ فالمسند إليه في هذه الآيات جميعها أفاد التخصيص، فالله وحده القادر على هذه الأفعال لا غيره، وقد يفيد تقوية الحكم أحياناً؛ مثل قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]؛ فليس المراد أن غير الله يستهزئ بهم كذلك، لكن الغرض تقوية الحكم وتأكيده، وهو أن استهزاء الله بهم يفوق كل استهزاء، وهذا هو الذي يُفهم من كلام الزمخشري في «كشافه».

**ومما تقدم رأينا أن هناك صوراً ثلاثاً:**

إحداها: مجيء المسند إليه منفياً، والمسند فعلاً، وهذه الصورة تفيد التخصيص قولاً واحداً.

الصورة الثانية: أن يدخل النفي على المسند.

**الصورة الثالثة:** أن يكون الكلام مثبتاً لا منفياً.

وهاتان الصورتان تفيدان تقوية الحكم، وقد تفيدان التخصيص إذا دل السياق على ذلك، وكانت هناك قرائن يُفهم منها هذا التخصيص.

وقد كثر في التنزيل تقديم المسند إليه، تدبر قوله سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨]، فتأمل قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾، ولم يقل: اجتباكم. و: سماكم. وفي هذا من تقوية الحكم ما لا يخفى، وهو يفيد التخصيص كذلك؛ لأن الله هو الذي اجتبى هذه الأمة، ولأن أبانا عليه السلام هو الذي سمانا مسلمين.

هذا كله إذا كان المسند إليه معرفة.

أما إذا كان نكرة، وأخبر عنه بجملة فعلية؛ فإن المعول فيه على القرائن، وبخاصة حال المخاطب الذي تخاطب، فقد يفيد التخصيص، وقد يفيد تقوية الحكم، وإليك بيان ذلك:

إذا قلت: طالب نال الجائزة، فقد تقصد من هذا القول إثبات الجنس، وذلك إذا كان المخاطب يظن أن من نالت الجائزة طالبة، فيكون قولك لتخصيص الجنس، وقد يكون الغرض نفي الكثرة وإثبات الوحدة، وذلك إذا كان المخاطب يظن أن من نال الجائزة طالبان أو أكثر.

وكذلك إذا قلت: رجل جاءني. فقد يكون القصد إلى تعيين الجنس، فيكون المعنى أن الجائي رجل لا امرأة إذا كان مخاطبك يظن أن الجائية امرأة، وقد يكون القصد إلى الإفراد، أي: رجل لا رجلان؛ إذا كان من تخاطب يظن ذلك، ذلك لأن النكرة تصلح لأن يقصد بها الجنس، أو يقصد بها فرد من الأفراد، وقد رأيت مما تقدم أن النكرة أفادت التخصيص؛ سواء قصدت إثبات الجنس، أم الوحدة.

وقد يكون الغرض تقوية الحكم؛ كما إذا كان المخاطب يدرك أن الذي جاءك رجل، إلا أنه بحاجة إلى مزيد من التأكيد؛ لتزيل ما في نفسه من شك.

ولعلك الآن تدرك الفرق البعيد بين قولنا: رجل جاءني. وقولنا: جاءني رجل. فالقول الأول أفاد التخصيص، أو تقوية الحكم، أما قولك: جاءني رجل. فليس كذلك، فلا يفيد شيئاً منهما، فقد يكون مع الرجل رجل آخر، أو امرأة؛ لذا تقول: رجل جاءني وامرأة[1]. إن أردت الجنس، ولا تقول: رجل جاءني ورجل آخر، إن أردت الوحدة، ولكنك تقول: جاءني رجل وامرأة، أو رجل آخر.

**ثالثاً: إفادة التعميم:**

الغرض الثالث من أغراض تقديم المسند إليه إفادة التعميم، وإنما يكون ذلك إذا اجتمع في الجملة أداة تدل على العموم وأداة تدل على النفي، وتقدمت أداة العموم على أداة النفي، فأدوات العموم: (كل)، و(جميع)، و(عامة)، و(كافة)[2]، وما يشبهها، مثل (مَن)، وأدوات النفي؛ (لا)، و(لم)، وما أشبههما.

فإذا أردت التعميم؛ قدمت المسند إليه، فقلت: كل الناجحين لم يأخذوا جوائزهم. كل المسلمين لم يقوموا بواجبهم. كل أصحاب الأموال لم يبذلوا ما فيه الكفاية. من يظلم الناس لا يفلح.

فأنت هنا تثبت هذا الحكم لجميع الأفراد؛ دون أن تستثني فرداً واحداً، ويسمى هذا عموم السلب.

وأنبهك هنا إلى أمر مهم، وهو أننا نتحدث عن المسند إليه، فكلمة (كل) وما يشبهها ينبغي أن تكون هي المسند إليه، أما إذا كانت معمولة لما بعدها، فليست مما نتحدث عنه.

---

(١) ذلك لأن الاسم ذكر مرتين ظاهراً أولاً، ضميراً مستتراً ثانياً.

(٢) (كافة)؛ لا تجيء مضافة، فلا يقال: كافة الناس!.

مثال ذلك: إذا قلت: كل الدراهم لم آخذ. كل الطلاب لم أمتحن. فـ (كل) هنا ليست مسنداً إليه، وإنما هي مفعول به، فليس هذا من عموم السلب، إذ الأصل: لم آخذ كل الدراهم. ولم أمتحن كل الطلاب. بل هو من سلب العموم، ومعناه أنني أخذت بعض الدراهم، وامتحنت بعض الطلاب.

وسلب العموم سلب الحكم عن بعض الأفراد، وهو أن يتقدم النفي على أداة العموم.

فإذا قلت: لم يأخذ كل الناجحين جوائزهم. لم يقم كل المسلمين بواجبهم. لم يبذل كل أصحاب الأموال ما فيه الكفاية. فإنك هنا سلبت الحكم عن بعض الأفراد.

عموم السلب – إذن – أن تتقدم أداة العموم على أداة النفي.

وسلب العموم أن تتقدم أداة النفي على أداة العموم.

وقولنا: كلَّ الدراهم لم آخذ. وإن تقدمت فيه أداة العموم؛ إلا أن محلها التأخير؛ لأنها مفعول به، والمفعول به حقه التأخير عن فعله.

مثال سلب العموم قول المتنبي:

مـا كُـلُّ مـا يتمنَّـى المَـرْءُ يُدْرِكُـهُ تَجْري الرِّياحُ بمـا لا تَـشْتَهي الـسُّفُنُ[(١)]

ومثال عموم السلب؛ قول رسول الله ﷺ : «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر» .

ومنه قول أبي النجم:

قـد أصْـبَحَتَ أمُّ الخِيـارِ تَـدَّعي عَلَـيَّ ذنـباً كُلُّـهُ[(٢)] لم أصـنع[(٣)]

---

(١) «الديوان» (٤/ ٣٦٦).

(٢) فـ (كله) مبتدأ، وليست مفعولاً، فهو يريد أن ينفي عن نفسه أي ذنب؛ لا أن يثبت بعض الذنوب، وشتان بين المعنيين. ومن هنا تعرف أن نصب (كل) في البيت لا يجوز؛ لأنه يصير مفعولاً به، ويصير المعنى أنه لم يصنع كل ذنب ادعته عليه، بل صنع هذه الذنوب، وغرضه أن يبرئ نفسه من كل خطأ.

(٣) «المعاهد» (١/ ١٤٧)، «الأسرار» (٣٦٠)، و«الخزانة» شاهد (٥٦).

واعلم أن هذه القاعدة – أعني قاعدة عموم السلب – قاعدة مطردة لا تتخلف، إذا سبقت أداة العموم أداة النفي؛ كان سلباً لجميع الأفراد، أما قاعدة سلب العموم، وهي أن تسبق أداة العموم، فهي خاضعة للسياق، فهي وإن كانت أغلبية، إلا أنها غير مطردة.

ففي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة:٢٧٦]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]، فعلى ضوء ما عرفناه من قبل؛ ينبغي أن يكون هذا من سلب العموم، بمعنى أنه لا يشمل جميع الأفراد، فهو مثل قولك: لم آخذ كل الدراهم. لكن المراد من الآيتين الكريمتين غير هذا، فالله تبارك وتعالى لا يحب أي واحد اتصف بهذه الصفات.

**رابعاً: إذا كان كلمة (مثل) أو (غير):**

ومما اطرد فيه تقديم المسند إليه إذا كان كلمة (مثل)، أو (غير)، ولكنهما خرجتا عن المعنى الظاهر الذي وُضعت له كل منهما، بيان ذلك:

إنني إذا قلت: مثلي يسهر الليل. وغيري يستحق الويل. فالمعنى الظاهر أنني لست أنا الذي يسهر الليل، وإنما يسهره واحد مثلي. وأنني لا أستحق الويل، ولكن يستحقه واحد غيري.

ومثل هذا القول كثير من أبناء العرب: مثلنا يفصح عما في نفسه. مثلنا يأخذ حقه دون منازع. مثلنا من أبناء الأمم لا يجبن عن قول الحق.

أما كلمة (غير)، فكقول القائل: نحن نزرع وغيرنا يحصد. نحن نصاب بلسع النحل، وغيرنا يأخذ عسله. ومنه قول النابغة:

لَكَلَّفْــتَني ذنــبَ امــرئٍ وتَرَكْتَــهُ كَذي العُرِّ يُكْوَى غَيْـرُهُ وهـو راتِـعُ [1]

---

(١) العر – بضم العين وفتحها – ؛ بالفتح: الجرب، وبالضم: قروح في الأعناق، أو داء ينسل منه الوبر. والراتع: الذي يأكل ويشرب في خصب وسعة – ما شاء. والجمع: رتاع؛ كنيام والبيت في «ديوانه» (ص٤٨)، و«شرح شواهد العيني» (١/ ٩٩).

وكقول ابن شرف القيرواني[(١)]:

غَيْـري جَنَـى وأنـا المُعاقَـبُ فـيكُمُ      فكأنـــــنّي سَـــبَّابَةُ المُتَنـــــدِّمِ[(٢)]

ولكن العرب خرجوا بهاتين الكلمتين عن هذا المعنى الظاهر المتبادر؛ فإذا قلت: مثلك لا يكذب. وغيرك يعطي الدنية. فليس مرادنا أن ننفي الكذب عن مثلك، أو نثبت إعطاء الدنية لغيرك، إنما الذي نقصده أن ننفي عنك الكذب، وأن ننفي عنك إعطاء الدنية؛ دون أن نعرض لغيرك من الناس.

فقولنا: مثلك لا يكذب. أبلغ وأقوى في الحكم من قولنا: أنت لا تكذب. فكأننا نقول: إن من اجتمعت فيه هذه الصفات، وإن من كان يتحلى بهذه الأخلاق التي اجتمعت لك، والتي تتحلى بها؛ إن مثل هذا لا يمكن أن يصدر منه الكذب، فقولنا: أنت لا تكذب. هذه مجرد دعوى. أما قولنا: مثلك لا يكذب. فهي دعوى ودليلها معها.

---

(١) محمد بن سعيد بن شرف القيرواني، أبو عبدالله، أديب، ناظم، ناثر، وُلد بالقيروان، توفي بإشبيلية سنة (٤٦٠هـ). [المعجم: ١٠/ ٢٥].

(٢) «الخزانة» (٢/ ٤٦٣)، «التحرير التحبير» (ص٥٠٩).

## المبحث الثاني

# تقديم المسند

يقدم المسند على المسند إليه، والمسند حين يكون خبراً - كما نعلم - حقه التأخير، ولكننا نقدمه إذا اقتضى الحال تقديمه، فمن مقتضيات تقديم المسند:

**أولاً: تخصيصه بالمسند إليه:**

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:٣٦]، وتقول: على الله اعتمادي. وفي الحديث: «لك العتبى حتى ترضى»(١).

فنحن نرى في هذه الأمثلة أن تقديم المسند قصد منه التخصيص، فإذا قلت: لله الأمر. فمعنى هذا أنه لله وحده، لا لأحد غيره، وكذلك: لله الحمد.

ومثل هذا ما جاء في هاتين الآيتين اللتين ننبهك لهما؛ قال تعالى يصف خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٧]، وقال تعالى في وصف الكتاب الكريم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، ففي الآية الأولى قدم المسند، وهو (فيها)، وأخر المسند إليه، وهو (غول)، وفي الآية الثانية قدم المسند إليه، وهو (ريب)، وأُخِّر المسند، وهو (فيه).

أما الآية الأولى، فإن تقديم المسند فيها للتخصيص، فمعنى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ نفي للغول عن خمرة الآخرة، وإثباته في خمر الدنيا. ولو أن الآية الثانية جاءت كذلك،

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (١/ ٢٦٠-٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، ورواه ابن جرير (٢/ ٨٠).

فقال: لا ريب؛ لكان المعنى نفي الريب عن القرآن، وإثباته لغيره من الكتب السماوية، وهذا غير مقصود بالطبع، ولهذا جاء النظم كما هو عليه، جاء على أحسن صورة وأبلغها، إنه نفي للريب عن القرآن الكريم، دون تعريض بغيره من الكتب، وهذا لا تخصيص فيه، إنما التخصيص في الآية الثانية، حيث خص خمر الآخرة بنفي الغول عنه، وأثبته في خمر الدنيا.

ويمكنك أن تدرك الآن أنك إذا أردت التخصيص؛ فلا بد أن تقدم المسند، فإذا قلت: في الحجرة المجاورة هدوء. فليس غرضك التحدث عن الحجرة المجاورة فحسب، وإنما تُريد أن تثبت الضجة في حجرتك التي أنت فيها، فهو إثبات للهدوء في الحجرة المجاورة، ونفي عن الحجرة الأخرى، وهذا هو التخصيص.

**ثانياً: التنبيه على الخبرية:**

من مقتضيات تقديم المسند التنبيه على أنه خبر، حتى لا يلتبس بالصفة، وبيان ذلك أن الخبر والصفة متقاربان، وإنما يفرق بينهما باعتبارات معنوية، فالذي يصلح أن يكون صفة قد يصلح ليكون خبراً، فإذا قلنا: مستقر في الأرض لنا. فإن كلمة (لنا) تحتمل أن تكون صفة أو خبراً، وكذلك: مصلى لنا في القدس. تحتمل كلمة لنا أن تكون خبراً أو صفة.

واعلم أن الخبر أقوى من الصفة في دلالته؛ لأن الخبر ركن في الجملة، وليس كذلك الصفة، فإذا جعلنا الشيء خبراً، فهو أدل على شأنه وخطره، أكثر من كونه صفة من الصفات.

إذا عرفت هذا، فإنهم قد يقدمون المسند؛ لتدرك لأول وهلة بأنه خبر لا صفة، فالصفة لا تتقدم على الموصوف، ولكن الخبر قد يتقدم على المبتدأ، وإذا كان خبراً، كان أقوى في الدلالة على ما يريدون، من ذلك قول أبي بكر بن النطاح لأبي دلف القاسم بن عيسى:

لـــه هِمَـــمٌ لا مُنْتَهـــى لِكِبارِهـــا وهِمَّتُــهُ الـصُّغْرَى أجَـلُّ مِـنَ الـدَّهْرِ

لـهُ راحَـةٌ لـو أنَّ مِعْـشَارَ جُودِهـا     على البَرِّ كانَ البرُّ أنْـدَى مـن البَحْـرِ[1]

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]. ونقول: لنا في فلسطين مقدسات. ولنا في صلاح الدين أسوة.

**ثالثاً: التشويق:**

وقد تقدم المسند تشويقاً لذكر المسند إليه، ولقد مرّ معنا من قبل أننا قدمنا المسند إليه تشويقاً لمعرفة المسند، وهنا على العكس من ذلك، ومنه قول محمد بن وهيب يمدح المعتصم:

ثلاثـةٌ تُـشْرِقُ الـدُّنْيا ببَهْجَتِهـا     شَمْسُ الضُّحى وأبو إسْحاقَ والقَمَرُ[2]

إذ الأصل: الشمس والقمر وأبو إسحاق ثلاثة تشرق الدنيا...

وكذلك قولنا: اثنان يعطر ذكرهما كل مجلس: نور الدين، وصلاح الدين. ومن حملة مشعل الحق في العصر الحديث عز الدين القسام. هذا كله في باب المدح والثناء.

وقد يكون التشويق في غير هذا الباب؛ كالعبر، والمواعظ، والتاريخ، كقول أبي العلاء:

وكالنَّـارِ الحَيـاةُ فمِـنْ رَمـادٍ     أواخِرُهـا وأوّلُهـا دُخـانُ

ومثل ذلك أيضاً قولنا: كشجر السرو كثير من الناس. كالظلمات الباطل. كالنور الإيمان.

**رابعاً: للتفاؤل:**

وقد يقدم المسند للتفاؤل؛ كما مر معنا من قبل.

---

(١) «الكامل» للمبرد (٢/ ١٠٣٢)، «الأغاني» (١٩/ ١٠٩).

(٢) «العمدة» ، لابن رشيق، (٢/ ١٣٩).

## المبحث الثالث

# تقديم متعلقات الفعل

نقصد بمتعلقات الفعل: الزمان والمكان الذي يقع فيهما الفعل، والجار والمجرور، والحال، والمفعول.

فإذا قلت: أقرأ باسم الله متكئاً في أثناء الليل كتب أحاديث الرسول ﷺ . فهذه كلها من متعلقات الفعل.

وقد قدمنا لك في باب الاستفهام أن تقديم المفعول أو تأخيره، وكذلك الحال، والزمان، والمكان؛ لها أسبابها التي يوجبها المعنى الذي تريد، فقولنا: أسعاد تزورين؟ يختلف عن قولنا: أتزورين سعاد؟ لأننا إذا أوقعنا الهمزة على الفعل فإننا ننكر وقوع الفعل فحسب دون النظر إلى المفعول، ففي قولنا: أتزورين سعاد؟ ننكر الفعل، وهو الزيارة؛ لأن هناك أمراً أولى منه؛ كالدراسة، أو الصلاة، أو عمل البيت. أما قولنا: أسعاد تزورين؟ فإن الإنكار واقع على المفعول، فكأن سعاد ليست أهلاً للزيارة.

وكذلك قولنا: أتقرأ كتاب «الأيام» ؟ فإن الإنكار هنا وقع على الفعل، فربما يكون هناك أعمال وأفعال حري أن تقدم على القراءة، أما قولنا: أكتاب «الأيام» تقرأ؟ فإن إنكارنا هنا واقع على كتاب «الأيام» نفسه.

وهذه القواعد نجد تطبيقها في التنزيل الحكيم: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠]، فقدم المفعول هنا ليبين أن غير الله ليس جديراً بالدعاء، ومثله قوله سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤].

وعلى هذا المنهج يمكننا أن نعرف كيف نرتب كلامنا؛ ليكون متسقاً مع المعنى الذي نريد، فإذا عرفت أن أخاك قد جاء من سفره، ولكني لم أعرف أجاء يوم الجمعة

أم يوم الخميس؟ أجاء في الطائرة أم في السيارة؟ كل الذي علمته أنه جاء، فما هو القالب الذي أضع به سؤالي يا ترى؟ أأقول لك: أجاء أخوك يوم الجمعة؟ أجاء أخوك في الطائرة؟ إن هذا القول معيب عند البلغاء، والكلام البليغ أن أقول: أيوم الخميس جاء أخوك أم يوم الجمعة؟ أفي الطائرة جاء أخوك أم في السيارة؟ أماشياً جئت هنا أم راكباً؟ .

أما إذا لم أعرف مجيء أخيك من سفره، فيمكن أن أضع السؤال بهذا القالب:أجاء أخوك؟ ولا يجوز أن أقول: أيوم الخميس جاء أخوك؟ .

وكل هذا قررته لك في باب الاستفهام، فعرفت أن الهمزة ينبغي أن يليها المسؤول عنه، وبقي أن أحدثك عن متعلقات الفعل الخالية من الاستفهام، فأقول وبالله التوفيق:

تقديم المفعول وما يشبهه من المتعلقات يكون غالباً للتخصيص، ولذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]: المعنى نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة. وهكذا قوله سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر:٦٦]، وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر:٣].

فإذا قلت: زيداً ضربت. وأحمد كافأت. وألفية ابن مالك حفظت. فمعنى قولك أنك تقصر الضرب على زيد، والمكافأة على أحمد، والحفظ على ألفية ابن مالك، فهناك أمور ثلاثة تُفهم من قولك:

أولاً: وجود ضرب منك.

ثانياً: كون هذا الضرب وقع على زيد.

ثالثاً: أنه لم يقع على غير زيد.

وكذلك المثال الثاني والثالث، ولهذا لا يجوز أن تقول: زيداً ضربت وعمراً. وأحمد كافأت وخالداً. وألفية ابن مالك حفظت وألفية السيوطي. لأن قولك: زيداً ضربت. تخصيص له بالضرب، فإذا قلت: وعمراً. ناقضت نفسك.

والنفي مثل الإثبات؛ فإذا قلت: ما زيداً ضربت. وما ألفية ابن مالك حفظت. فإن هنا أموراً ثلاثة كذلك:

**أولاً**: وجود الضرب والحفظ منك.

**ثانياً**: أن هذا الضرب لم يقع على زيد، والحفظ لم يقع على ألفية ابن مالك.

**ثالثاً**: أن الضرب وقع على غير زيد، والحفظ على غير ألفية ابن مالك.

وكما لا يجوز أن تقول: ما زيداً ضربت وعمراً. لا يجوز أن تقول: ما زيداً ضربت ولكن أكرمت. ما ألفية ابن مالك حفظت ولكن فهمت. لأن حديثك عن تخصيص المفعول، فإذا قلت: ولكن أكرمت، أو: ولكن فهمت. كان حديثك عن الفعل، والفعل ليس محل نزاع.

ففي الأمثلة يدل تقديم المفعول على التخصيص - كما رأيت - وهذا هو الغالب، وإنا قلنا هذا هو الغالب؛ لأن التقديم قد يكون للعناية به، والاهتمام بشأنه؛ قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى:٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢]، وقال: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام:٨٤]، ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس:٣٩].

ولا تلتفت إلى ما يقال من أن هذا التقديم لرعاية الفاصلة، فمع تقديرنا لجمال الإيقاع، وحلاوة الجرس، لكنه في كتاب الله تعالى لن يستقل بتقديم أو تأخير، أو حذف أو ذكر، وإنما - إن كان ذلك - فلا بد أن يكون تابعاً لمعنى أراده القرآن الكريم.

ويلوح لي في الآيات الكريمة كذلك أنها لا مانع من أن تحمل على التخصيص، كأنه قيل: إذا كان لا بد من قهر ونهر، فحذار أن يكون لليتيم والسائل، وهكذا يقال في المواضع الأخرى، وهو رأي أرتئيه، فاعرضه على نفسك، فإن حاز القبول فبها ونعمت، وإلا فلتسلك مسلك الجمهور، ولكن أحذرك ثانية من عد رعاية الفاصلة من المقتضيات البلاغية التي يكون من أجلها التقديم والتأخير وغيرها.

وما قيل عن المفعول يقال عن غيره من متعلقات الفعل؛ كالجار والمجرور، والظرف، والحال، فإن تقديمها على الفعل للقصر غالباً، ونفي الفعل عما سواه، وإن الفعل ثابت لا خلاف فيه، والخلاف في المتعلق.

ففي الإثبات مثل: بهذا أمرتك. يوم الجمعة قدمت. في المسجد صليت. راكباً جئت. ماشياً حججت. يفيد التقديم ثلاثة أمور:

**أولاً:** حصول الفعل بلا شك.
**ثانياً:** تعلقه بالجار والمجرور، أو الظرف، أو الحال المقدم.
**ثالثاً:** عدم تعلقه بغيره.

وفي النفي؛ نحو: ما بهذا أمرتك... إلخ. يفيد ثلاثة أمور أيضاً:

**أولاً:** حصول فعل من المخاطب
**ثانياً:** نفي تعلقه بالجار المجرور.
**ثالثاً:** ثبوت تعلقه بغيره[1].

**بيان ذلك:** تطلب من ولدك أن يرتب المكتبة، لكنه بدلاً من هذا رتب غرفة الجلوس، فتقول له: ما بهذا أمرتك. فلقد حصل منه فعل، وهو ترتيب غرفة الجلوس، وحصل منك أمر، ولكنه لم يتعلق بالفعل الذي فعله، بل هو متعلق بغيره، وهو ترتيب المكتبة.

وتستطيع إذن أن تعلم أنه لا يصح أن تقول: بهذا أمرتك وبغيره. لأن قولك: بهذا أمرتك. فيه تخصيص يدل على أنك لم تأمره بغيره، فإذا قلت: وبغيره. كان ذلك تناقضاً.

كما لا يجوز أن تقول: ما بهذا أمرتك ولا بغيره. لأن قولك: ما بهذا أمرتك. دال على أنك أمرت بغيره، فقولك: ولا بغيره. تناقض.

---

(١) «دراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير» (ص٢٧٣).

وكذلك لا يجوز أن تقول: يوم الخميس صمت ويوم الجمعة. وفي المسجد صليت وفي البيت. وفي الجامعة حاضرت وفي النادي. لأن تقديم المتعلق هنا يفيد قصر الفعل عليه، فإذا لم ترد القصر قدمت الفعل، فقلت: ضربت زيداً. وكافأت أحمد. وحفظت ألفية ابن مالك. وصمت يوم الخميس. وحاضرت في الجامعة. وصليت في المسجد.

ومن لطائف ما جاء في التنزيل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فـ (بسم) جار ومجرور، ولا بد له من فعل يعلق به، وهذا الفعل تقديره: (أتلو)، وإنما قدر متأخراً؛ ليفيد التخصيص، فهو رد على الذين يبدؤون أعمالهم بغير اسم الله تبارك وتعالى، فالمعنى: باسم الله أبدأ لا باسم أحد غيره.

لكننا نقرأ قوله سبحانه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق:١]، فنجد الجار والمجرور جاء متأخراً عن القراءة، وسر ذلك أنها أول آية نزلت، فكانت القراءة هي المقصود الأول.

# الفصل الخامس

## الحذف والذكر

من مباحث الجملة التي عني بها علماء البلاغة الحذف، فمن الخصائص الأولى للعربية الإيجاز، وما دام الأمر كذلك؛ فإن كل كلمة أو جملة يمكن أن يُفهم المعنى بدونها؛ لوجود قرائن تدل على الحذف حري بها أن تُحذف، فإن الحذف - إذن - أمر لا مناص منه، فما بالك إذا كان للحذف مزية أخرى يزدان بها الكلام حُسْناً، ويجمل رونقاً، ويكون أكثر رواء؟! فذلك مما يؤكد الحذف؛ إن لم نقل يوجبه.

هاتان ميزتان للحذف إذن:

١- كمال المعنى مع المحذوف من جهة.

٢- حكم بيانية وأغراض بلاغية تُفهم من هذا الحذف من جهة أخرى.

وإذا أردت أن تدرك القيمة البيانية للحذف؛ فتصور أحد الناس وهو يكلمك كلاماً ممجوجاً، يكرر فيه المعنى، ويعيد فيه اللفظ، فإن نفسك تمجه، وقلبك يشمئز منه، وعقلك ينكره، وبالجملة؛ فإنك تمله، وتنفر منه، وما ذلك إلا لما فيه من زيادة، ولكنها زيادة تدخله في باب النقص.

## المبحث الأول

# الذكر

وسوف نقسم الحديث عن الذكر – لتكتمل الفائدة به – إلى ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: ذكر المسند إليه.
- المطلب الثاني: ذكر المسند.
- المطلب الثالث: ذكر متعلقات الفعل

## المطلب الأول

## ذكر المسند إليه

**أغراض ذكر المسند إليه:**

١- يذكر لأنه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه: وأنت خبير بأن المبتدأ مقدم على الخبر، والمسند إليه في كثير من حالاته يكون مبتدأ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥]، وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقولك: الحق أحق أن يتبع.

وهذا يمكنك أن تبحث عنه في كثير من الجمل.

٢- الحيطة في الأمر: ومن الأغراض التي يُذكر من أجلها المسند إليه الحيطة في الأمر، حتى تسد كل ثغرة على كل متأوِّل؛ كما يقول القاضي: هل أقر المتهم بما وُجِّه إليه؟ فيقال: المتهم أقر بكل ما وُجِّه إليه. هل اعترف خالد بحقك؟ فتقول: خالد اعترف بحقي.

٣- للتنبيه على غباوة السامع: وقد يذكر تنبيهاً على غباوة السامع، وذلك يكثر عند إرادة التقرير، كأن يقول بعض اللاهين: هل صرّح العدو بأنه يريد تحويل مواردنا

المائية ليفيد منها؟ فتقول: العدو صرح بذلك. وكأن يقول بعض الكسالى: هل قال الأستاذ: إن الامتحان بعد يومين؟ فتقول له: الأستاذ قال ذلك.

٤- لزيادة الإيضاح والتقرير: وقد يذكر لزيادة الإيضاح والتقرير، وتأكيد اختصاصه بالمسند، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، فإن اسم الإشارة – وهو المسند إليه – ذكر أولاً في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ، وذكر ثانياً في قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهذا الذكر لزيادة الإيضاح، والتقرير، وليؤكد اختصاصه بالمسند، فهؤلاء الذين ثبتت لهم الهداية هم الذين ثبت لهم الفلاح، واختصوا به دون غيرهم.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢]، فقد ذكر اسم الجلالة مرتين؛ ذكر أولاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، وثانياً في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ، وما ذلك إلا ليبين أنه هو المعبود المقصود وحده لقضاء حوائج الناس.

وإذا أردت أن تدرك جمال موقعه، وحُسْن موضعه؛ فقل: قل هو الله أحد. الصمد. وانظر كيف ينزل الكلام عن تلك المرتبة الرفيعة؟ وكيف يذهب هذا الرونق، ويذوي هذا الجمال الذي يزين لفظه ومعناه؟ .

واستمع إلى قول النبي ﷺ : «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1]، وقل لي بربك؛ هل تجد في كلام الناس ما يؤثر في نفسك مثل هذا القول؟ .

وهكذا؛ كل كلام تريد أن تزيد في تقريره؛ تقول مثلاً: الإسلام قول وعمل، الإسلام عبادة وقيادة، الإسلام دين ودولة، الإسلام مصحف وسيف، الإسلام توحيد ووحدة.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب القيامة، أبواب صفة القيامة، باب رقم (١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

وتقول: فلسطين قلب العالم الإسلامي، فلسطين مسؤولية الأمة جميعها، فلسطين أمانة الله ومسرى رسوله ﷺ ، فلسطين لا ترجع بالشعارات والهتافات، فلسطين بحاجة إلى تضحية وإخلاص.

٥- للتعظيم: وقد يُذكر للتعظيم؛ كقولنا: محمد رسول الله ﷺ ، محمد سيد الخلق، محمد نبي الهدى.

محمــدٌ سـيدُ الكـــونَيْنِ والثقلَيْــــ ـــنِ والفريقَيْنِ مِن عُربٍ ومِن عَجمِ

٦- للإهانة والتحقير: وقد يُذكر لإهانته وتحقيره؛ كما تقول: أبو رغال هو الذي سار مع أبرهة الحبشي دليلاً إلى مكة، أبو رغال أول خائن في هذه الأمة، أبو رغال ومن على شاكلته حري أن يُرجم كل يوم.

٧- للتبرك: وقد يذكر للتبرك؛ كما تقول: الله حسبي. الله وليي. الله سندي.

٨- للتلذذ: قد يذكر للتلذذ، وذلك كثير في شعر الشعراء:

٩- في مقام البسط: وقد يذكر في مقام البسط، حيث تجمل إطالة القول، ألا ترى إلى موسى عليه السلام وقد قال الله له: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧]، فأدرك موسى عليه السلام أن هذا مقام يطيب فيه الحديث، ويحلو فيه التفصيل، ولا يجمل فيه الإجمال، فقال: ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه:١٨]، كان يمكن أن يقول: عصا. ولكنه قال: ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾، ولم يكتف بذلك، بل قال: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه:١٨].

وكذلك حينما يسألك أستاذ تحبه، وتحب أن تتحدث معه، وقد رأى معك كتاباً: ما هذا؟ فتقول له: هذا كتاب «حصوننا مهددة من داخلها» (١) ، ذكر فيه المؤلف كذا

---

(١) كتاب للدكتور محمد محمد حسنين (١٣٣١-١٤٠٣هـ/ ١٩١٢-١٩٨٢م) أديب إسلامي، وهذا الكتاب من الكتب الأدبية والفكرية والثقافية المهمة جداً التي لا بد من الاطلاع عليها لمن =

وكذا، وحذر فهي الأمة من أولئك الذين يريدون أن يسلبوها شخصيتها، وهم أشد عليها خطراً من الأعداء.

وكذا تحسن إطالة الكلام مع ذوي الفضل، وأولي النهى، وأصحاب العلم والصلاح.

## المطلب الثاني
## ذكر المسند

والأغراض التي عدت في ذكر المسند إليه يمكن أن تعد هنا في ذكر المسند كذلك:

١- **لأنه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه**: فيذكر أيضاً لأنه الأصل، وذلك كقولك: الأقصى ثالث الحرمين.

٢- **للتعويل على ضعف القرينة**: ويمكن أن يذكر للتعويل على ضعف القرينة، فإذا سئلت: أي الأعداء أكثر مكراً؟ وأيهم أكثر قسوة؟ تقول: الإنجليز أكثر مكراً، واليهود أكثر قسوة. ولو أنك قلت: الإنجليز أكثر مكراً، واليهود. فربما يظن بعض الناس أن اليهود أكثر مكراً كذلك، ولهذا تذكر المسند – وهو: أكثر قسوة – لضعف التعويل على القرينة.

٣- **للتعريض بغباوة السامع أو خطئه**: وقد يذكر المسند تعريضاً بغباوة السامع، أو خطئه؛ كما تقول لمن يحسن الظن بأمريكا - وقد سألك: أي الدول أكثر خطراً على قضايانا؟ - : أكثر الدول خطراً أمريكا. على أن قولك: (أكثر)؛ هو المبتدأ.

---

= أحب أن يعرف الأسرار الثقافية خلف الكواليس وأسباب اتجاهاتها ودوافعها الحقيقية. ((تتمته الأعلام للزركلي)) محمد خير رمضان يوسف، ٢/ ١٣٤-١٣٥.

وقد جاء في التنزيل حكاية عن إبراهيم عليه السلام وقد سأله قومه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٢]: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، فذكر المسند – وهو (فعله) – ولم يقل: بل كبيرهم هذا.

ومثل هذا قولك لمن سألك عن مذابح صبرا وشاتيلا؛ فتقول: اشترك فيها الصليبيون واليهود.

٤- لإفادة تخصيصه بالمسند إليه: وقد يذكر المسند لإفادة تخصيصه بالمسند إليه، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤]،

فأنت ترى أنه قد ذكر المسند – وهو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ – مرتين، ولم يقل: لهم في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب عظيم. لأن الهدف أن يبين أنهم كما استحقوا الخزي، فهم كذلك يستحقون العذاب العظيم في الآخرة.

ومثله قولنا: لأطفال الحجارة تقديرنا وإكبارنا، ولهم تضرعاتنا ودعاؤنا، ولهم ما تملك أيدينا، ولهم خفقات قلوبنا.

٥- لإيضاح إفادته التجدد أو الثبوت: ومن الأغراض التي يذكر فيها المسند كذلك أن نتبين هل هو فعل، فيفيد التجدد، أو اسم، فيفيد الثبوت؛ كما تقدم لك عند حديثنا عن الجملة؟.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨]، فقد ذكر المسند هنا، وهو فعل (يدافع)؛ ليفيد التجدد كلما أصاب المؤمنين ضائقة وكرب، وفي هذا تسلية وثبات للمؤمنين؛ ليثبتوا على إيمانهم، وليكونوا الشمعة المضيئة في الظلمة الحالكة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة:١١١]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، فقد ذكر المسند هنا – وهو اسم – وهو قوله تعالى: ﴿قَوِىٌّ﴾؛ ليفيد الثبوت.

٦- تشويقاً للسامع: وأخيراً، فقد يذكر المسند إليه والمسند معاً تشويقاً للسامع من جهة، وتحقيقاً لوقوع المسند من جهة، وذلك إذا كان في ذكر المسند إليه طمأنينة للسامع، وفي ذكر المسند ترغيب له.

اقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦]. فأنت ترى أن المسند إليه - وهو لفظ الجلالة - قد ذكر أكثر من مرة، وذكره لا شك يفيد تحقيق المسند؛ ذلك لأن النفوس تطمئن إلى وعده، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]. وقد ذكر المسند - وهو (فضل) - أكثر من مرة، وفيه من الترغيب للسامع ما لا يخفى.

ومن هذا القبيل قولك: قال رسول الله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[(١)]، وقال رسول الله ﷺ: «لغدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشقّ على أمتي؛ ما قعدت خلاف سرية»[(٣)]. فأنت ترى هنا أنه قد ذكر المسند إليه والمسند؛ لما عرفت من التشويق، والترغيب، وغيرهما من الأغراض.

## المطلب الثالث
## ذكر متعلقات الفعل

عرفت في بحث التقديم والتأخير معنى متعلقات الفعل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: الجنة تحت بارقة السيوف، باب رقم (٢٣)، حديث رقم (٢٦٦٣)، ورواه مسلم في كتاب الجهاد، حديث رقم (١٧٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، باب رقم (٥)، حديث رقم (٢٦٣٩). ورواه مسلم في كتاب الإمارة، حديث رقم (١٨٨٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: الجهاد من الإيمان، باب رقم (٢٦)، حديث رقم (٣٦)، ورواه مسلم في كتاب الجهاد، حديث رقم (١٨٧٦).

وبادئ ذي بدء نتلو عليك قول الله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، وقال سبحانه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤] (١).

وإذا تأملت هذه النصوص الكريمة؛ وجدتها جميعاً تتحدث عن قضايا ذات شأن، يراد تقريرها، وتثبيتها في النفوس، وقد تجيء في مقام التضرع، والرغبة في بسط الكلام وإطالته.

فالآية الأولى كانت حديثاً عن القرآن الكريم، بأنه من عند الله، لا مرية في ذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ هذا أولاً.

وأما ثانياً؛ فإن كل ما جاء في هذا الكتاب الكريم حق لا مرية فيه؛ قصصه، وتشريعاته، وعلومه، وعقائده؛ كلها حق، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾.

فأنت ترى أن ذكر المتعلق (بالحق)؛ إنما جاء لزيادة التقرير والفائدة.

وكذلك الآية الثانية؛ ذكر فيها اسم الجلالة ثلاث مرات؛ لأن المقام مقام تحذير المؤمنين أن يكونوا من أولئك الذين يسوون بين فتنة الناس، وبين عذاب الله، ففي ذكر اسم الجلالة تربية للمؤمنين، وإمداد لهم بالتثبيت والصبر.

وفي الآية الثالثة مقام بسط، حيث تجمل الإطالة، وفيه من التضرع والدعاء ما يتلذذ ويخشع به الداعي.

وهكذا تدرك أنك تذكر ما تذكر من متعلقات الفعل، حينما يقتضي المقام ذلك؛ كزيادة التقرير، وتثبيت الشيء في النفوس، والتنصيص على علة الشيء وسببه.

---

(١) فالمتعلق في الآية الأولى: (بالحق)، وفي الثانية: (بالله)، (في الله)، (كعذاب الله)، وفي الثالثة: (عليك)، (إليك).

فإذا أردت أن تثبت في نفس المستمع أسباب هذه الهزائم المتلاحقة، وأسباب هذا الذي تعاني منه أمتنا، وتبين له طريق الخلاص، فإنك تراك مضطراً أن تردد مثل هذه الكلمات: بالإيمان تتخطى الأمم كل صعوبة، بالإيمان نجتاز كل عقبة، بالإيمان استطاعت القلة المؤمنة أن تنشر أعلام الحق في هذه الدنيا في أقل من ثلث قرن، وبالإيمان استطاعوا أن يفوتوا على الأعداء المتربصين بهم من كل جانب كل فرصة.

وهكذا حينما تريد أن تقرر أمراً؛ سواء كان هذا الأمر زماناً، أم مكاناً، أم حالاً.

فإذا أردت أن تتحدث عن آثار مولد النبي ﷺ ، فإنك تردد هذه العبارة: عام الفيل وُلد فيه النبي ﷺ ، عام الفيل نعده نقطة تحول في تاريخ البشرية.

وهكذا عام الحديبية، أو الهجرة، أو سنة سبع وستين(١).

وكذلك إذا أردت أن تتحدث عن أثر المسجد في تاريخ المسلمين، أو عن آثار موقعة حطين، أو عن حال من أحوال عمر رضي الله عنه أو عن صلاح الدين رحمه الله ورضي عنه.

خلاصة القول أننا نذكر هذه حينما نرى المقام يستدعي ذلك تذكرة، أو تحسراً، أو إلهاباً، أو غير ذلك من المقامات المتعددة.

---

(١) ذكرنا العام في الذكريات المشرقة، وذكرنا السنة فيما هو مؤلم.

## المبحث الثاني

# الحـذف

**مقدمة:**

من الحق أن تقرر أن من أدق موضوعات البلاغة مسلكاً، وأدعاها لإعمال الفكر، هذا الموضوع الذي نحن بصدده – وهو الحذف – ولعل هذا السبب الذي جعل الشيخ عبدالقاهر – رحمه الله – حينما تحدث عنه؛ يكثر من الأمثلة والشواهد من الكلام البليغ؛ دون ذكر قواعد معينة يرجع إليها الدارس؛ كما رأينا ذلك مثلاً في التقديم والتأخير، فقد عرفنا هناك أنه إذا تقدم النفي على المسند إليه، وكان الخبر فعلاً، فهم منه التخصيص، وإن لم يكن هناك نفي، أو تأخر النفي؛ كان لتقوية الحكم.

وهكذا رأينا أن هناك قواعد منضبطة يمكننا أن نراعيها حينما نريد غرضاً من الأغراض البلاغية، ولكننا لن نستطيع أن نضع هذه القواعد، ونحن نتحدث عن الحذف.

## المطلب الأول

## حذف المسند إليه

المسند إليه ركن في الجملة، بل هو أهم ركنيها؛ لذلك كان وجوده محتماً في الجملة، إنما يحذف إذا دلت قرينة على حذفه، ولولا القرينة لكان الحذف نقصاً وعيباً، ولا بد مع القرينة من محسنات ترجح الحذف على الذكر، وأهم هذه المحسنات والدواعي:

**١- أن يكون المقام مقام مدح أو ترحم أو ذم:** فمثال الترحم ما نسب لعمر بن أبي ربيعة:

اعْتادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلى عَوائِدُهُ وهَاجَ أَهْواءَكَ المَكْنونَةَ الطَّلَلُ

رَبْعٌ قَواءٌ أذاعَ المُعْصِراتُ بِهِ وكُلُّ حَيرانَ سارٍ ماؤُهُ خَضِلُ(١)

ومثال المدح قول إبراهيم بن العباس الصولي:

سأشْكُرُ عَمْراً إنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ

فَتىً غَيْرُ مَحْجوبِ الغِنى عن صَديقِهِ ولا مُظْهِرُ الشَّكْوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ(٢)

ومثال الذم قول الأقيشر الأسدي:

سَريعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلْطِمُ وجْهَهُ ولَيْسَ إلى داعِي النَّدَى بِسَريعِ

حَريصٌ على الدُّنيا مُضيعٌ لدِينِه ولَيْسَ لِما في بيتِهِ بِمُضيعِ(٣)

فالمسند إليه في هذه الأمثلة جميعها حذف، ففي المثال الأول: هو ربع. وفي المثال الثاني: هو فتى. وفي المثال الثالث: هو سريع. هو حريص.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، فما وصف به الكتاب في الآيتين الكريمتين من أوصاف الخير يغني عن ذكر المسند إليه.

---

(١) «كتاب سيبويه» (١/ ١٤٢)، «الدلائل» (١٤٦)، «شرح شواهد المغني».
القواء: المكان القفر. والمعصرات: هي الرياح العاصفات ذوات الغبار. وأذاع المعصرات به: ذهبت به وطمست معالمه. حيران: صفة لمحذوف هو السحاب المتردد. وسار: يسير بالليل. وماؤه خضل: يحمل ماءً غزيراً.

(٢) «شرح ديوان الحماسة» (٤/ ٦٩)، وينسب البيت كذلك لمحمد بن سعد الكاتب التميمي البغدادي، ولأبي الأسود الدؤلي، ولعبدالله بن الزبير الأسدي. وانظر «معاهد التنصيص» (٣/ ٣٠٣)، و «الكامل» (١/ ٢٧٩).

(٣) «خزانة الأدب» (٤/ ٤٨٨).

وقد يتفننون في القول، فيقطعون الصفة عن الموصوف، أنت تعلم أن الصفة تتبع الموصوف في الإعراب، فإذا كان الموصوف منصوباً أو مجروراً ينبغي أن تأتي الصفة كذلك، لكننا نجدهم يرفعونها تلويناً للكلام من جهة، وجلباً للسامع من جهة ثانية، وإمعاناً في المدح أو الذم أو الترحم من جهة ثالثة.

مثال ذلك: رضي الله عن عمرَ أميرِ المؤمنين، الخليفةُ العادلُ. فيرفعون خليفة، مع أنها ينبغي أن تجر، فيقطعونها عما قبلها، ويقدرون لها مبتدأ محذوفاً، أي: هو الخليفة.

وتقول: رحم الله صلاحَ الدين الذي توفي ولم يترك ثمناً لكفنه، القائدُ - بالرفع - ، أي: هو القائد.

وتقول: قاتل الله ذلك الذي اجترأ دون حكمة أو حياء على التنازل عن المقدسات، المفرطُ في دينه. برفع كلمة مفرط؛ لكونها خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (هو) - المسند إليه - مع أن حقها النصب؛ لكونها صفة، ولكنهم قطعوها عن الوصفية.

٢- عدم الفائدة من ذكر المسند إليه: من محسنات الحذف، ومرجحاته؛ عدم الفائدة من ذكر المسند إليه، حتى كأن ذكره يصير عبثاً، ويكثر هذا في الأحوال التالية:

أ- إذا وقع المسند إليه في جواب الاستفهام؛ كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة:٤-٦]، أي: الحطمة نار الله.

ب- إذا وقع بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط؛ كقوله تعالى: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ ﴾ [فصلت:٤٦]، أي: فعمله لنفسه، وإساءته عليها، ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، أي: فهو طل.

ج- إذا وقع بعد القول وما اشتق منه؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥]، أي: قالوا:

القرآن أساطير الأولين. وقوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات:٢٩]، أي: أنا عجوز عقيم.

٣- المبادرة: من محسنات حذف المسند إليه ومرجحاته المبادرة؛ حتى لا تضيع الفرصة، فإذا رأى أحد الذين يترقبون الصيد غزالاً، أو أرنباً؛ فإنه لا يقول: هذا غزال. وانظروا هذا الأرنب. وإنما يقول: غزال. أرنب.

٤- اتباع الاستعمال: ومعنى هذا القول أن المثل عند العرب لا ينبغي تغييره، بل يُنطَق به كما ورد عنهم.

ومن الأمثال التي سمعت عن العرب: رمية من غير رام. يضرب لمن يصل إلى الغرض بدون قصد منه، إذ ليس من عادته ذلك، فالمسند إليه محذوف، أي: هذه رمية.

قضية ولا أبا حسن لها. يقال في الأمر الصعب الذي لا يجد من يحله.

ردة ولا أبا بكر لها. خيل ولا مثنى لها.

٥- سهولة الإنكار إذا دعت الحاجة: ومن محسنات الحذف سهولة الإنكار إذا دعت الحاجة؛ كما إذا تحدث قوم عن شخص ما؛ يقول أحدهم: بخيل. دون أن يذكر اسمه، كأنه لا يريد أن يقع في مأزق هو في غنى عنه.

وقد تكون هناك أغراض أخرى؛ كتعجيل المسرة، أو الإخفاء عن بعض السامعين، أو العناية بالمسند.

استمع إلى قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٥]، أي: هذا بلاغ. فما أجمل هذا الحذف[1]!

والحق أن هناك محسنات لا يمكن حصرها، ترجع إلى نفس المتكلم، أو حال السامع، هذا كله إذا كان المسند إليه مبتدأ.

---

(١) وللحذف في الآية أغراض بيانية غير هذا.

وقد عرفت عند الحديث عن الجملة أن المسند إليه قد يكون مبتدأ، أو فاعلاً، وقد حدثتك عن محسنات الحذف إذا كان المسند إليه مبتدأ.

أما إذا كان المسند إليه فاعلاً؛ فهناك محسنات كثيرة لحذفه، إلا أن منها ما يتصل باللفظ، ومنها ما يتصل بالمعنى.

***فأما ما يتصل باللفظ؛ فهو:***

المحافظة على السجع؛ كقولهم: من طابت سريرته حمدت سيرته. فلو قيل: حمد الناس سيرته. لتغير السجع. وكذلك قولك: من طهر قلبه فرج كربه.

**وأما ما يتصل بالمعنى؛ فهو كثير:**

**١- الإيجاز والاختصار:** وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل:١٢٦]، فقد حذف الفاعل هنا، ولم يقل: بما عاقبكم الناس به.

**٢- أن يكون معلوماً للسامع:** وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء:٣٧]، فإن الخالق تبارك وتعالى لا يماري فيه عاقل.

**٣- وقد يحذف للخوف منه:** وذلك كقول المستضعفين: بيعت البلاد، وكممت الأفواه، ومرغت الجباه.

**٤- وقد يحذف للخوف عليه:** كقولنا: رُوِّع العدو، ونيل منه، ودك أحد حصونه، واقتحمت إحدى قلاعه. بالبناء للمجهول.

**٥- وقد يحذف لأنه لا يتحقق غرض من الأغراض بذكره:** وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]؛ فليس هناك غرض يتحقق من ذكر الفاعل، فأي ذاكر أو تالٍ يتأثر المؤمنون به؟ .

**٦- ومما يكاد يطرد في حذف المسند إليه توجيه المخاطب لنفس الحدث:** ونجد هذا في مشاهد يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ

وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ [الزمر:٧١]، وقال سبحانه: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر:٢٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر:٧٣].

فنحن نرى أن المسند إليه قد حذف في جميع هذه الآيات، ذلك لأن الذي يريده القرآن أن يوجه الناس إلى هذه الأحداث الجسام العِظام، دون أن يشغلوا بمن فعل هذه الأفعال، فأياً كان النافخ في الصور، وأياً كان الذي يدك الأرض، ويبدلها، وكيف تجيء جهنم؟ وكم من ملك يجيء بها؟ كل هذا نجده لا يذكر في الآيات الكريمة، إذ ليس هناك كبير هدف يتحقق من ذكره.

وربما نجد هذا في بعض الأحداث العظيمة، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود:٤٤].

هذه أكثر الأغراض التي يُحذف من أجلها المسند إليه؛ مبتدأ كان أو فاعلاً، وليقس ما لم يقل على ما قيل.

## المطلب الثاني
## حذف المسند

والمسند - كما عرفت من قبل - قد يكون اسماً، وقد يكون فعلاً، وما قلناه في حذف المسند إليه يمكن أن نقوله هنا، مع أن المسند إليه أكثر أصالة في الجملة من المسند.

١- أن لا يكون في ذكر المسند فائدة: فالغرض الأول من أغراض الحذف أن لا يكون في ذكر المسند فائدة، بل يمكن الاستغناء عنه، كأنه يكون جواباً عن سؤال؛ مثال

ذلك: يسألك سائل: من كاتب العربية في العصر الحديث؟ فتقول: مصطفى صادق الرافعي. وتكتفي بهذا، فلا داعي أن تذكر المسند، فتقول: مصطفى صادق الرافعي كاتب العربية في العصر الحديث وتسأل: من شاعر العقيدة في هذا العصر؟ فتقول: إقبال. ومن الشهيد الذي رقصت الصهيونية لموته؟ فتقول: أحمد أبللو.

هذا إذا كان المسند اسماً.

**وقد يكون المسند فعلاً:** من الذي حرر فلسطين من الصليبيين؟ من الذي انتصر على المغول في عين جالوت؟ من الذي تدرب في ألمانيا واستشهد على أرض فلسطين؟ من الذي دوّخ كفار قريش؟ من الذي استشهد في معركة القسطل؟ فتقول على الترتيب: صلاح الدين. قطز. الشيخ حسن سلامة. أبو بصير. عبدالقادر الحسيني. رحمهم الله جميعاً.

**٢- أن يكون جواباً عن سؤال مقدر:** ومن محسنات حذف المسند أن يكون جواباً عن سؤال مقدر، ومنه قوله سبحانه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور:٣٦]؛ ببناء الفعل (يُسَبَّحُ) للمجهول، وهذه إحدى قراءتين في الآية الكريمة - بضم الياء وفتح الباء - ، والقراءة الأخرى: (يُسبِّحُ) ببناء الفعل للفاعل، وهي بضم الياء وكسر الباء. ثم قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٧].

فعلى القراءة الثانية؛ (يُسبِّحُ) فعل مضارع، و (رجالٌ) فاعل، لا حذف هنا. وعلى القراءة الأولى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴾ على بناء الفعل للمفعول لا يجوز أن تكون رجالٌ فاعلاً؛ لأن الفعل مبني للمجهول، بل هي فاعل لفعل محذوف يدل عليه المذكور، كأنه قيل: مَن المسبح؟ فقيل: يسبح رجال لا تلهيهم...

ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ ﴾ [الطلاق:٤]؛ فالمسند محذوف من الجملة الثانية، أي: واللائي لم يحضن كذلك. أي: عدتهن ثلاثة أشهر.

٤- بعد (إذا الفجائية): يحذف المسند بعد إذا الفجائية عند من عدّها حرفاً[١]؛ كقولك: خرجت فإذا القمر. فالمسند محذوف، أي: ساطع.

٥- إذا كان خبراً لـ (إنّ): ومن المواضع التي يحذف فيها المسند إذا كان خبراً لـ (إن)؛ كقوله: إن محلاً وإن مرتحلاً. إن ربّاً وإن نصيراً.

٦- الاختصاص وتقوية الحكم: مثل قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴾ [الإسراء:١٠٠]. وأظنك تساءل هنا: وأين المسند المحذوف في الآية؛ فـ (أنتم) مسند إليه، و(تملكون) مسند؟! وليس الأمر كما ظننت، وهذا ما سأشرحه لك، فأصغ إليه:

يقرر علماء النحو أن هناك أدوات لا تدخل إلا على الجمل الفعلية، وهي: أدوات الشرط؛ مثل: (إن)، و(إذا)، و(لو)، فإذا جاء بعد هذه الأدوات اسم، فيجب أن يكون هذا الاسم فاعلاً لفعل محذوف، وذلك لاختصاص هذه الأدوات بالدخول على الفعل؛ لذلك قال النحويون في إعراب قوله سبحانه: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ [الانشقاق:١]: (السماء): فاعل لفعل محذوف دلّ عليه ما بعده. أي: إذا انشقت السماء.

وكذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾ [الانفطار:١-٢]، وهكذا تقول فيما يشبه هذه الآيات، فقول الشاعر:

إذا الفتى ذمَّ عيشاً في شبيبتِهِ ... فماذا يقولُ إذا عَهْدُ الزّمانِ مَضى

فـ (الفتى) فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده. وتقول في قول آخر:

---

(١) أما إن عدت اسماً فلا حذف.

خَبيرٌ بَنو لِهْبٍ فَلا تَكُ مُلْغِياً    مَقالَةَ لِهْبِيٍّ إذا الطَّيْرُ مَرَّتِ

فالطير فاعل لفعل محذوف يدل عليه ما بعده، أي: إذا مرت الطير مرت.

وتقول في إعراب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة:٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء:١٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦]؛ (أحد) فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده. أي: استجاب أحد. وكذلك (امرأة) و(امرؤ)؛ كلاهما فاعل لفعل دلّ عليه ما بعده.

فأنت ترى في هذه الأمثلة جميعاً أن هناك جملتين فعليتين حذف من كل منهما جزء، فالجملة الأولى حذف فعلها، والجملة الثانية حذف فاعلها، فالسماء في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]؛ فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده، و(انشقت): فعل فاعله محذوف دل عليه ما قبله. فإننا قلنا: إذا انشقت السماء انشقت السماء. وهذا فيه من تقوية الحكم وتأكيده ما لا يخفى عليك.

وما نقوله في (إذا) و(إن) نقوله في (لو)، فإذا قلت: لو خالد جاءني أكرمته. فخالد فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده.

وإخالك الآن بدأت تستنتج بفكرك معنى ما قلناه لك من قبل، فالآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ [الإسراء:١٠٠] قد ذكر فيها الضمير بعد (لو)، و(لو) لا تدخل إلا على جملة فعلية، فالتقدير إذن: لو تملكون تملكون. وهو الفعل المضارع، ولما كان الضمير المتصل – وهو الواو – لا يمكن النطق به وحده؛ جيء بدله بالضمير المنفصل – وهو أنتم – ، وهذا فيه ما فيه من بيان اختصاصهم بالشحّ والبخل، والحرص على متاع الدنيا، فحذف المسند هنا إذن إنما يكون لغرض من الأغراض البيانية.

ويمكنك أن تقيس على هذا قول الشاعر:

إذا أنْـتَ أكرَمْـتَ الكَـريمَ مَلَكْتَـهُ          وإنْ أنـْـتَ أكْرَمْـتَ اللَّئـيمَ تَمَـرَّدا

فأنت ترى هنا أن المسند حذف في موضعين: بعد (إذا)، وبعد (إن)؛ لأن كلتا الأداتين لا تدخل إلا على جملة فعلية، والتقدير: إذا أكرمت أكرمت. وهكذا تقول في الشطر الآخر.

تلك أهم الأغراض التي يحذف من أجلها المسند، وحري بك أن تبحث في الكلام البليغ مبتدئاً بكتاب الله تعالى، وحديث نبيه ﷺ، والبليغ من النظم والنثر.

## المطلب الثالث

## حذف المفعول به

**تمهيد:**

حفظت فاطمة القرآن. جمع أبو بكر القرآن. جمع عثمان الناس على مصحف واحد. ألّف عبدالقاهر «دلائل الإعجاز».

هذه الأفعال جميعها أفعال متعدية، على معنى أنها لا تكتفي بفاعلها، بل تحتاج إلى شيء آخر، وهو المفعول به.

وإذا نظرت إلى هذه الأفعال؛ تجد أن لكل منها تعلُّقاً بما بعدها؛ سواء كان فاعلاً أم مفعولاً، إلا أن جهة هذا التعلق ليست سواء، فتعلق الفعل – وهو الحدث – بالفاعل تعلق الحدث بمن كان منه، وتعلقه بالمفعول تعلق الحدث بما وقع عليه.

إذن: للفعل تعلق بكل من الفاعل، والمفعول، إلا أن الفاعل هو من وقع منه الفعل، والمفعول هو الذي وقع عليه، فالفعل هو العمل، وكل من الفاعل والمفعول معمول لهذا العامل.

ولقد اختلفت جهة العمل في كل من المعمولين، فعمله في الفاعل الرفع، وعمله في المفعول النصب.

وقد يكون غرض المتكلم بيان وقوع الحدث فحسب، أي: وقوع الفعل دون النظر إلى الفاعل، أو المفعول.

وقد يكون غرضه فقط بيان الفاعل دون النظر إلى المفعول.

وقد يكون الهدف بيان المفعول الذي وقع عليه الفعل.

هذه أغراض ثلاثة للمتكلم؛ تارة يقصد الحدث وحده بقطع النظر عن فاعله، وتارة يقصد الفاعل ولا يعنيه المفعول، وثالثة يقصد المفعول نفسه.

بيان ذلك:

- قد تتحدث عن الحرب العالمية الأولى وما أحدثته، فتقول: كان هناك قتل، وتخريب، وتألّب على العرب والمسلمين. فنحن هنا تحدثنا عن الحدث نفسه - وهو القتل والتخريب والتألّب - دون أن نتحدث عن الفاعل أو عن المفعول به.

وقد تذكر حرب حزيران؛ فتقول: كان هناك إهمال، وتقصير، وتهريج، وادعاء. دون أن نتحدث عن الفاعل.

وقد نذكر مذابح بيروت، فنقول: كان هناك ذبح، وحقد، وبقر للبطون، وانتهاك للأعراض. وفي كل هذا حديثنا عن الحدث.

- قد يكون هدفنا الفاعل فحسب، دون النظر إلى المفعول، وكأننا ننزل الفعل منزلة اللازم، واللازم هو الذي يكتفي بفاعله، فتتناسى مفعوله، وخير مثال لهذا النمط قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]؛ فالمراد من الآية هنا - والله أعلم بمراده - أنه لا يستوي أهل العلم وغيرهم من الجُهّال، فلا تعني الآية هنا المفعول، أي: الذين يعلمون الفقه، أو التفسير، أو الحديث. كل الذي تعنيه أن العالِمين لا يستوون مع الجاهلين.

- قد لا نكتفي بالحدث، أو بالفاعل - كما مر - ، وإنما يكون هدفنا من وقع عليه الفعل؛ كما تقول: أصغيت إلى فلان. ولا شك أن المفعول هو المقصود هنا، أي:

أصغيت إليه أذني. وأغضيت عليه. والمراد جفني. وأقرضت فلاناً. ولا شك أن المفعول هنا لا بد من تقديره، أي: مالاً. ولكن المفعول هنا حذف؛ لأنه معلوم جلي، ليس فيه خفاء.

إذا عرفت هذا، فلتهيئ نفسك لنحدثك عن حذف المفعول، وما هي المواطن التي يحذف فيها؟ وما هي أسباب الحذف؟ ما هي الأغراض التي تتوخى، فتعد من البلاغة التي هي غاية الحُسْن؟

**مواطن حذف المفعول به:**

واعلم أن اللطائف في حذف المفعول كثيرة؛ يقول الشيخ عبدالقاهر – رحمه الله – وهو يتحدث عن حذف المفعول:

«فإن الحاجة إليه أمسُّ، وهو بما نحن بصدده أخص، واللطائف كأنها فيه أكثرُ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجبُ وأظهر»[1].

عرفت من قبل أن غرض المتكلم قد يكون إثبات الفعل لفاعله فحسب؛ دون النظر لمفعوله، وخير ما يمثل به قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، أي: لا يستوي ذوو العلم وغيرهم، فحذف المفعول هنا؛ لكونه غير مقصود للمتكلم، ولكننا قد نقصد المفعول، ومع ذلك يحسن حذفه، وهذا يختلف باختلاف الأغراض التي يقصدها المتكلم، وسنحاول أن نذكر لك أخطرها شأناً، وأكثرها دوراناً في الكلام البليغ.

١- **الإيجاز**: قد يُحذف بقصد الإيجاز، ولسبق ما يدل عليه، ونمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء:٥٢]، ففي قوله: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ﴾؛ حذف المفعول، والتقدير: ومن يلعنه الله. ومثل هذا: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]، أي: من يهده ومن يضلله.

(١) «دلائل الإعجاز» (ص١١٨).

**٢- إذا كان ذكره يوهم غير المقصود:** إذا كان ذكر المفعول يوهم غير المقصود؛ فإننا نجد أنفسنا مضطرين لحذفه، حتى نبدد هذا الوهم.

تقول مثلاً: سهرنا الليل إلى الفجر. وهنا يمكن أن يظن السامع أنك سهرت أكثر الليل، وأنه لم يبقَ بينك وبين آخره إلا القليل، ولكنك إذا أردت أن تزيل هذا المعنى من نفس السامع؛ تجد نفسك مضطراً لتحذف كلمة (الليل)، فتقول: سهرنا إلى الفجر. وهنا لا يمكن أن يدور بخلد السامع، ولا أن يظن بأنك سهرت أكثر الليل، وإنما يدرك أنك سهرت الليل كله إلى الفجر.

**٣- إذا كان معلوماً بدلالة الحال:** وقد يكون المفعول مقصوداً، ولكننا لا نذكره لكونه معلوماً بدلالة الحال، أو يكون قد جرى له ذكر، ومثال ذلك أن نتحدث عن إنسان، ثم يقول لك قائل: أأهنت؟ أضربت؟ فيُحذف المفعول؛ لأنه جرى له ذكر من قبل، وكأنه ينكر أن يقع منك ضرب وإهانة.

وقد يعرف المحذوف بدلالة الحال، ومنه قول البحتري يمدح المعتز معرضاً بالمستعين:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغَيْظُ عِداهُ ... أنْ يَرى مُبْصِرٌ ويَسْمَعَ واعِ

والمفعول محذوف، أي: أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره وأوصافه.

**٤- توجيه النفوس لإثبات الفعل للفاعل، وعدم الانشغال بالمفعول:** قد يكون المفعول معلوماً لا يتصور غيره، ولكنا نحذفه لغرض مهم، وقصد بارع، وهو أن تتوجه النفوس لإثبات الفعل للفاعل، وكأنما لا نرى داعياً أن نشغلها بالمفعول؛ لكونه معلوماً من جهة، ولكنه لا يتعلق به كبير فائدة من جهة أخرى.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص:٢٣-٢٤]، فقد حذف المفعول هنا في أربعة مواضع:

أ- أمة من الناس يسقون.

ب- تذودان.

ج- لا نسقي.

د- فسقى لهما.

وإنما حُذف المفعول هنا؛ لأن الغرض الأول إثبات الفعل للفاعل، ولكون المفعول معلوماً. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فقد يخل ذكره بالمقصود، ويوهم غير المراد، ألا ترى أنه لو قال: يسقون غنماً. تذودان عن إبلهما. قالتا: لا نسقي إبلنا. فسقى لهما إبلهما. لفسد المعنى المراد؛ لأنه يمكن أن يقال: إنه فعل ذلك لأن الذي كان معهما إبل لا غنم.

وقد بيّن هذه اللطيفة عبدالقاهر - رحمه الله - في دلائل الإعجاز[١]، وأفاد منه الزمخشري فذكر هذا في كشافه[٢].

٥- التعميم: الغرض الخامس لحذف المفعول هو التعميم، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]، أي: يدعو كل أحد.

ومثل هذا قولك: واقع أمتنا لا يسر، في كل يوم نرى ما يؤلم. أي: لا يسر كل أحد، ويؤلم كل أحد.

٦- تعظيماً لشأن المفعول: وقد لا يوقع الفعل على المفعول صراحةً تعظيماً لشأنه؛ كقول البحتري:

قَدْ طَلَبْنا فَلَمْ نَجِدْ لكَ في السُّؤْ ... دُدِ والمَجْدِ والمَكارِمِ مِثْلاً

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص١٢٥).

(٢) «الكشاف» (٣/ ٤٠١).

يريد أن يقول: قد طلبنا لك مثلاً، فلم نجد لك مثلاً في هذه المكارم، فحذف كلمة (مثل) الأولى، وهي مفعول (طلبنا)؛ كأنه يُنكر أن يطلب له مثل؛ لرفعة شأنه وعلو منزلته.

ولو أنه ذكر المفعول؛ فقال: قد طلبنا لك مثلاً، لما حسن أن تذكر الكلمة مرة ثانية، بل يذكر ضميرها، فيقال: طلبنا لك مثلاً في كذا وكذا، ولم نجده. والشاعر لا يريد هذا؛ فإن ذكر المثل في عدم الوجود أوقع في النفس من ذكر الضمير، كما أن حذفه في الإثبات – (طلبنا) – أوقع في النفس كذلك.

هذا ما يمثلون به لهذا النوع، ويا ليتهم مثلوا بقوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:١-٣]، فهو أصرح وأحسن دلالة من البيت، وأولى أن يمثل به.

**بيان ذلك**: إن معنا فعلين: (ودع)، و(قلى)، أما (ودع)؛ فقد ذكر مفعوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾، وأما (قلى)؛ فلم يذكر له مفعول.

قال كثير من البيانيين – عفا الله عنهم – : «إنما حذف المفعول لرعاية الفاصلة».

وقد حذرتك أن تقبل مثل هذا القول.

وذهب الزمخشري – رحمه الله – إلى أن حذف المفعول للاختصار.

ومع تفضيلنا لقول الزمخشري، إلا أننا نرى أن المفعول حُذف هنا لنكتة أخرى غير الاختصار، وهي كراهة أن يقع القلي والبغض صراحة على ضمير النبي ﷺ .

فإن قلت: فلم ذكر مفعول التوديع ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ ؛ أليس في ذلك كراهة؟ .

قلت: لا، فإن التوديع أمر معروف، مشتهر بين الناس، وبخاصة بين الأحبة، فليس بمستهجن أن يودع الحبيب حبيبه.

حذف المفعول – إذن – من قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ؛ لتلك الحكمة البيانية التي شرحتها لك.

٧- التأدب في القول: ومنه ما يُروى عن السيدة عائشة:

«ما رأيت منه - أي رسول الله ﷺ - ولا رأى مني».

ومن هذا القبيل كل ما يدعو إليه الذوق، ويكون من الأدب في الحديث.

٨- البيان بعد الإبهام: ويعنون بهذا مفعول المشيئة والإرادة، وقد ورد ذلك في آيات كثيرة؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال:٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، والآيات كثيرة في ذلك.

وقال البحتري:

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سماحَةَ حاتِمٍ  كَرَماً ولَمْ تَهْدِمْ مَآثر خالِدِ[1]

فأنت ترى أن مفعول المشيئة في هذه الأفعال جميعاً محذوف، ففي الآية الأولى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: لو شاء هدايتكم لهداكم. وهكذا يمكنك أن تقدر المفعول في الأمثلة الباقية، وإنما حُذف لدلالة ما بعده عليه.

ولكننا نجد أمثلة أخرى ذكر فيها مفعول المشيئة؛ قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٧-١٨].

وقال الشاعر إسحاق الخُرَيْميّ يرثي حفيداً له:

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُه  عليهِ ولكِنْ ساحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ[2]

---

(١) «الديوان» (١/ ٥٠٨).

(٢) «الكامل للمبرد» (١/ ٢٥١)، «الدلائل» (١٦٤).

فأنت ترى أن المفعول قد ذكر في هذه الأمثلة جميعها، المفعول في الآية الأولى المصدر المؤول من (أن) والفعل، وكذلك في الآية الثانية، أي: لو أراد الله اتخاذ ولد، ولو أردنا اتخاذ لهو، وكذلك البيت: أي: لو شئت بكاء دم.

وإذا بحثت عن السبب الذي من أجله ذكر المفعول هنا، ولم يذكر في الأمثلة السابقة، وأعملت الفكر، وأنعمتَ النظر؛ فإنك واجده وملاقيه، فأنت ترى أن مفعول الإرادة والمشيئة في القسم الثاني أمر مستغرب، وليس كذلك في الأمثلة الأولى، وأي أمر أكثر غرابة من أن يتخذ الله ولداً أو لهواً - سبحانه - ؟! ثم أليس بكاء الدم من الأمور المستغربة التي لم يتعودها الناس؟! .

والآن - وقد بيّنا لك أغراض الحذف ودواعيه يجمل بنا أن نقف وقفة قصيرة لدراسة أسلوب الحذف دراسة تطبيقية؛ لما له من شأن وخطر.

## المطلب الرابع

## دراسة تطبيقية لأسلوب الحذف[1]

ونبدؤك القول بأن الكتاب العزيز قد يذكر الكلمة حيناً، ويتركها حيناً، وهو يذكر ما يذكر، ويحذف ما يحذف؛ لغرض بياني، وهدف بلاغي.

- اقرأ قوله سبحانه: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤]، واقرأ قوله سبحانه في خطاب أهل الجنة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ [الطور:١٩]؛ تجد أن كلمة مريئاً ذكرت في الآية الأولى، ولم تذكر في الآية الثانية! .

وسر ذلك - والله أعلم - أن كثيراً مما يستلذه الإنسان ويهنأ به لا تحسن عاقبته، بل تكون عواقبه وخيمة، ألا ترى كثيراً من الناس يأكلون أطعمة مفضلة لديهم، إلا أنهم يعانون بعد ذلك مما يكون لها من مضاعفات، ولذا ذكرت كلمة (مريئاً)، كأنه

---

(١) وهذه المباحث وغيرها من أسرار الإعجاز القرآني؛ لذلك فصلت لك القول فيها هناك.

يقول لهم: كلوا ما لذّ لكم وطاب، وما حسنت عاقبته؛ كان ذلك خطاباً للمؤمنين في هذه الدنيا. ولما كان ذلك في الآخرة لا يتصور، إذ لا يمكن أن يستلذ الإنسان شيئاً وتسوء عاقبته؛ وجدنا أن كلمة (مريئاً) لم تذكر في مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٩].

- واقرأ قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة:٨٨]، وأكثر الآيات التي نقرؤها؛ نجدها بهذا النظم: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ ولكنها تركت هنا – أعني: ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ – ولا تنسَ أن الآية تتحدث عن الرسول ﷺ ، والذين شرُّفوا بمعيته، وأولئك لا يكون جهادهم إلا في سبيل الله؛ فلا داعي ولا غرض من ذكرها هنا.

إذا عرفت هذان فتعالَ معنا نمتع النفوس ونشرفها، ونطرب الآذان ونشنفها بدرر القول.

- اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢]، وانظر كيف أثبت لليهود علماً أولاً في قوله: ﴿ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ ، ونفى عنهم ثانياً في قوله: ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فهلم لم يستفيدوا من العلم شيئاً، فكان حرياً أن يُنفى عنهم! .

وانظر كيف حذف المفعول؛ فلم يقل: لو كانوا يعلمون الشرع، أو الحق، أو الأحكام. إذ ليس هذا مقصوداً، بل المقصود أن يقال: إنهم ليسوا من أهل العلم، فكأن الفعل نزل منزلة اللازم، وقد يكون الهدف التعميم، أي: لا يعلمون أي شيء، والأول أقعد وأبلغ.

- وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٣-٤٦].

أعد قراءة هذه الآيات الكريم، وابحث عما حُذف في قوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿ لَا تَخَافَآ ﴾ ، وفي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾، وحاول أن تدرك أسرار هذا الحذف، وحذار أن تقتصر على رعاية الفاصلة - كما يفعل بعضهم - وستجد أن هذا الحذف يملأ بعض النفوس طمأنينة وثقة، كما يملأ بعضها الآخر رهبةً ورعباً.

﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾، ولم يقل: يخشاني. مثلاً. لعله يكون من أهل التذكرة والخشية.

﴿ لَا تَخَافَآ ﴾ ، ولم يقل: لا تخافا فرعون. لا ينبغي أن يكون منكما خوف.

﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، لم يقل: أسمع ما يقوله لكم، وأرى ما يفعل. لأن الله تبارك وتعالى لا يفوته شيء، ولا يخفى عليه شيء، فهو من شأنه أن يسمع كل شيء، ويرى كل شيء.

# الفصل السادس

## التعريف والتنكير

مقدمة:

من الأساليب البلاغية التي تقتضيها أحوال المخاطبين ويقصدها المتكلم؛ أسلوب التعريف والتنكير، فإذا كان لكل من التقديم والتأخير، والحذف والذكر؛ أغراضه البلاغية، وأهدافه التي تتعلق بالمعنى، فإن التعريف والتنكير كذلك.

ولقد تكلم علماء النحو عن المعرفة والنكرة، وذكروا أقسام المعارف، فتحدثوا عن العَلَم، والضمير، واسم الإشارة، والاسم الموصول، والمعرّف بـ (أل)، وغيرها، ولكن حديثهم بالطبع كان من الناحية الإعرابية المحضة.

أما البيانيون وعلماء البلاغة؛ فكان حديثهم من زاوية أخرى، وفي مجال آخر، تحدثوا عن الأغراض التي يكون من أجلها التعريف، سواء كان هذا التعريف بالضمير أم بغيره، كما تحدثوا عن الدواعي التي تقتضي التنكير، وهم إذ يذكرون بعض الأغراض والدواعي؛ فإنما يفتحون ذلك الباب لتغوص على الكلام البليغ، فتلتقط منه درراً، وتدرك بعض الدواعي والأغراض التي لم يذكروها لك؛ لتستخرجها بحسك، وتستنتجها بذهنك.

ولنحدثك أولاً عن مباحث التعريف، ولنبدأك بالضمير، فهو حري أن يبدأ به؛ لما فيه من لطائف الإيجاز، وأصالة المعرفة.

## المبحث الأول

# التعريف

وسوف نتحدث عن التعريف في مطلبين رئيسين:

- المطلب الأول: تعريف المسند إليه.
- المطلب الثاني: تعريف المسند.

## المطلب الأول
## تعريف المسند إليه

**أولاً: التعريف بالضمير:**

والضمير - كما تعلم - إما للمتكلم، أو للمخاطب، أو الغائب.

١- **ضمير المتكلم**: يؤتى به حينما يكون المقام مقام تكلم، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه:١٤]، وقوله سبحانه: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الكهف:١٣]، ومنه قول النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»، وكذلك ما استشهد به الحجاج[1] في خطبته لأهل العراق:

أنا ابنُ جَلا وطلاَّعُ الثنايا     متى أضعِ العِمامَةَ تَعرفوني[2]

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، وُلد سنة (٤٠هـ)، قائد، داهية، سفّاك، خطيب، وُلد ونشأ في الطائف، وانتقل إلى الشام، قلّده عبدالملك بن مروان أمر عسكره، وأمره بقتل عبدالله بن الزبير، فقتله، مات بواسط، سنة (٩٥هـ).

(٢) «الخزانة» (٥/ ٦٤)، «المعاهد» (١/ ٣٣٩)، «شرح شواهد المغني» (٤/ ٦).

وقد يكون الأمر من الوضوح بحيث يفهم مرجع الضمير دون عسر أو عناء.

اقرأ مثلاً قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، فإن الضمير هنا؛ وإن لم يتقدم له مرجع؛ لكن النفس لا تجد عسراً في معرفته، بل تجدها تتأثر بهذا الضمير أكثر مما لو وُضع مكانه الاسم الظاهر.

٤- ضمير الشأن : ومنه ضمير الشأن، وهو ما يدل على غرابة وما تتشوق النفس لتعرف ما بعده، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١]؛ كيف تتشوق النفس إلى أن تعرف ما بعد الضمير (هو)؟ وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، وقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف:١٥٥].

واستمع إلى قول القائل:

هِـيَ الأمـورُ كَمـا شـاهَدْتَها دُوَلٌ ... مَـنْ سَـرَّهُ زَمَـنٌ سـاءَتْهُ أزْمـانُ

وضمير الشأن؛ كما يكون ما بعده مذكراً، يكون مؤنثاً كذلك، فيقال: الشأن كذا، أو القصة كذا.

**ثانياً: التعريف بالعلمية :**

العلم هو الذي يعين مسماه مطلقاً، ويؤتى به ليميز مسماه عن غيره؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [البقرة:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ [نوح:٢١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [الأعراف:١٥٠].

وتقول: النيل حياة مصر. حمزة سيد الشهداء، وأسد الله، وأسد رسوله ﷺ. صلاح الدين ونور الدين قائدان عظيمان. الصديق والفاروق وذو النورين والإمام ذكرهم يعطر المجالس. أبو بصير دوّخ المشركين وحده. أبو لهب وأبو جهل عليهما اللعنة. أبو

حيان فسّر القرآن الكريم، وسمى تفسيره «البحر المحيط» . أم الفضل من فضليات النساء. زارنا أبو المكارم ومعه أخو الحرب.

بانـــتْ سُـعادُ فَقَلْـي اليـومَ مَتبـولُ[1]

آذنـــــــتنا ببينهـــــــا أسمـــــــاءُ

الأمثلة السابقة كلها كل جملة فيها عَلَم، ولكن العلم قد يكون اسماً، وقد يكون كنية، وهو ما صدر بـ (أب) أو (أم)، فالاسم إذن غير الكنية واللقب.

وإذا رجعت إلى الأمثلة السابقة مرة أخرى؛ وجدتها تشتمل على هذه الأنواع الثلاثة:

١- الاسم: مثل: إبراهيم ومحمد ونوح وموسى - عليهم الصلاة والسلام - وحمزة رضي الله عنه وسعاد، وأسماء، والنيل.

٢- اللقب: مثل: صلاح الدين، ونور الدين، والصديق، والفاروق، وذو النورين، والإمام.

٣- الكنية: مثل أم الفضل، وأبو بصير، وأبو حيان، وأبو لهب، وأبو جهل؛ فهذه كلها كنى لأناس معروفين.

وأبو المكارم. وأخو الحرب؛ قصد بهما رجل اشتهر بالكرم والسخاء، وآخر اشتهر بالشجاعة والبسالة.

وإذا نظرت إلى هذه الجمل مرة ثالثة؛ وجدت أن الغرض من ذكر هذه الأعلام؛ أسماء، أو كُنى، أو ألقاباً: المدح، أو التبرك، أو التلذذ، أو الذم.

وهكذا تدرك أننا نأتي بالعلم عندما نريد أن نميزه عن غيره، أو نمدحه، أو نتلذذ بذكر اسمه، أو نضفي عليه بعض الصفات التي تشعر بالمدح أو الذم.

---

(١) تتمته: متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكبول

لكعب بن زهير، «شرح قصيدة بانت سعاد» للتبريزي، ص(١١).

**ثالثاً: التعريف باسم الإشارة:**

الأصل في الإشارة أن تكون لمحسوس، وقد ينزل غير المحسوس منزلة المحسوس.

والإشارة قد تكون للقريب؛ مثل: هذا، وهذه.

وقد تكون للمتوسط؛ مثل: ذاك.

وقد تكون للبعيد؛ مثل: ذلك، وتلك.

وللتعريف باسم الإشارة دواعٍ وأهداف بيانية يمكن أن تتلمس في الكلام الجيد، وأن تستنتج من السياق.

ومن الأغراض البيانية للتعريف باسم الإشارة:

١- **أن يقصد تمييزه أكمل تمييز**: وذلك لإحضاره في ذهن السامع، فيكون أكثر تصوراً له، بحيث لا يغيب عنه شيء من أوصافه؛ تقول مثلاً هذا كاتب «في ظلال القرآن» قدم للفكر من قلمه وللقلب من دمه.

٢- **التعريف بالمخاطب**: وذلك كقول الفرزدق:

أولئك آبائي فَجِئْني بِمِثْلِهم إذا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المَجامِعُ

ويمكن أن يكون هذا للمدح، ومثل هذا قولك لمن يقلل من شأن أمتنا: أولئك أسلافنا؛ خلدوا المآثر، وشيدوا ذلك البناء، وخلفوا ذلك التراث.

٣- **التعظيم**: وتارة يكون باستعمال اسم الإشارة القريب، وتارة يكون بالبعيد.

والواقع أن السياق هو الذي يقرر ذلك، فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]؛ استعمل فيه اسم الإشارة القريب، وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢]؛ استعمل فيه اسم الإشارة البعيد، والسياق هو الذي اقتضى ذلك، ألا ترى أن الآية الأولى ذكرت الهداية، وهذا يستدعي القرب؛ حتى يكون الهادي قريباً من المهدي، أما الآية الثانية؛ فجاءت لنفي الريب، وهذا يستدعي البُعد بالطبع؟.

ثم انظر إلى قوله سبحانه حكاية عن امرأة العزيز؛ تتحدث عن يوسف عليه السلام: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢]؛ مع أنه حاضر أمامها، ولكن أرادت أن تدلل على رفعته، وعلو منزلته، وبُعده عن أضرابه وأمثاله؛ فجاءت باسم الإشارة الدال على ذلك.

وهكذا؛ يمكنك أن تحكم السياق فيما تقرأ، أو فيما تريد أن تتحدث به.

٤- التحقير: وقد يكون في القرب وفي البُعد كذلك.

فمن الأول ما حكاه القرآن عن المشركين، وعما يعتمل في نفوسهم من حقد على الحق: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ومنه قولك لصاحبك: أهذا الذي تخشاه؟ أهذا يخيفك؟ أهذا يمنعك حقك؟.

أما في البُعد؛ فيمثل له بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقريب منه في الذم قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون:١-٢].

٥- أن يسبق ذكر اسم الإشارة أوصاف، ويليه مآثر: فيؤتى هنا باسم الإشارة تنبيهاً على أنه جدير بالمزايا التي أخبر بها عنه.

خذ مثلاً قوله سبحانه في وصف المتقين الذين كان القرآن هداية لهم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥].

فأنت ترى أنه قد جيء باسم الإشارة (أولئك)، وقد ذكرت قبله أوصاف كثيرة للمتقين، وذكر بعده أنهم على هدى من ربهم، وأنهم هم المفلحون؛ فجيء باسم

الإشارة هنا تنبيهاً على أن المشار إليه الذي اجتمعت له هذه الأوصاف، حري بأن تثبت له الهداية؛ هذه الهداية التي من شأنها أن تجعلهم لا يفرطون في كرامتهم، ولا يسمرئون الذل، ولا يرضون الهوان، ولا تغرهم مفاتن الحياة الدنيا.

هذا في المدح.

أما في الذم؛ فنمثل له بما جاء في سورة البقرة، فبعد ذكر المنافقين، وكذبهم في ادعاء الإيمان، وكونهم يخادعون الله والذين آمنوا، وكونهم في قلوبهم مرض، ثم ما ذكر بعد ذلك من أوصافهم؛ قال: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦].

تلك أهم الدواعي والأغراض التي يذكر اسم الإشارة من أجلها، وما عليك إلا أن تنتقل في الرياض الغنّاء؛ لتنعم بلذة الاستنتاج، ومن الله العون.

**رابعاً: التعريف بالاسم الموصول:**

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو محتاج إلى الصلة دائماً، فالصلة هي التي تزيل إبهامه، ألا ترى أنك إذا قلت: جاء الذي! فكأنك لم تقل شيئاً. فإذا قلت: عَلَّم ولدك. فإن هذه الصلة بددت هذا الإبهام.

والتعريف بالاسم الموصول دقيق المسلك، يحتاج منك إلى غوص، ويتطلب إعمال فكر، والأغراض التي يؤتى من أجلها بالاسم الموصول كثيرة، تدرك بالقريحة الجيدة، والحس المرهف:

**١- أن يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة:** ومن أول هذه الأغراض أن يكون الاسم الموصول الوسيلة الوحيدة للمعرفة، فإذا رأيت عند صديقك شخصاً ما، ولكنك لا تعرفه، وأراد صديقك أن يذكر لك شيئاً عنه؛ فإنه لا وسيلة لهذه المعرفة إلا بالاسم الموصول؛ فيقول لك: الذي رأيته عندي من المجاهدين الصادقين. الذي كان معنا في الأمس عالم فاضل.

٢- **قصد التعظيم والحث عليه:** وذلك حينما ترى الحاجة تدعو إلى ذلك؛ تقول لصاحبك: جاء الذي أنقذك من مأزقك الحرج. جاء الذي أحسن إليك. تقول ذلك لتحث من تخاطب على أن لا يتجاهل ذلك المحسن، وقد بدا لك منه هذا التجاهل.

٣- **تفخيم الأمر أو تهويله:** وذلك مثل قوله سبحانه حديثاً عما لقيه آل فرعون: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه:٧٨]، فالذي يفيده الموصول هنا لا يفيده شيء آخر، كأنه يقول: غشيهم من اليم شيء لا يمكن وصفه؛ لشدته، أو عنفه، أو كثرته. ومنه قوله سبحانه حكاية عما حل بقوم لوط عليه السلام: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم:٥٤]، أي: شيئاً كثيراً صعباً. ومثله قوله سبحانه – ولكن في سياق آخر، وهو سياق التعظيم والفخامة – : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم:١٦]؛ فهو تعظيم لما يغشى السدرة مما لا يعلمه إلا الله.

٤- **التنبيه على خطأ المخاطب:** كقولك: إن الذين تنتظرون منهم إنصافكم من عدوكم يمدون عدوكم بكل فتاك ومدمر. الذين تظنونهم منصفين يضمرون لكم كل شر. الذين تحسبونهم مخلصين لكم إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء.

ومنه قول الشاعر عبدة بن الطبيب يعظ بنيه:

إنَّ الـذينَ تُـرَوْنَهُم إخـوانُكم ... يَشْفي غَليلَ صُدورِهِم أنْ تُصْرَعوا

٥- **زيادة تقرير الغرض الذي سيق الكلام من أجله:** وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف:٢٣]؛ فالغرض الذي سيق الكلام من أجله هو عفة يوسف، ونزاهته عليه السلام ولقد جاء الموصول يؤدي هذا الغرض على أحسن وجه وأتمه وأكمله؛ فكيف ذلك ؟! إليك البيان: لم يقل: راودته زليخا أو امرأة العزيز. وإنما قال: ﴿ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾. وفي هذا خير دلالة على نزاهته عليه السلام إذ كونه في بيتها؛ ليس بينها وبينه حجاب أو ساتر، فهو يراها في كل حين، وهذا من شأنه أن يجعله أكثر استجابة لما طلبت منه، ولكنه – مع ذلك – قال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾.

فالاسم الموصول – كما نرى – كان له أكبر الأثر في بيان عفته ﷺ.

**٦- استهجان ذكره، وعدم التصريح باسمه:** وذلك كقولك: جاءت التي أخرجها أمس من مكتبي. أو جاء الذي تحدثت الصحف عنه أمس.

**٧- الإيماء والإشارة إلى معرفة الخبر:** وهو قريب مما يسمونه براعة الاستهلال، ومعنى هذا أن يذكر المتكلم شيئاً في أول حديثه؛ يستطيع أن يدرك الفطن ما سيجيء بعده.

انظر مثلاً إلى قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]؛ انظر إلى الصلة، وهي قوله سبحانه: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ ألا تدرك أنك ستفهم منها فحوى الخبر الذي لم يأت بعد؟ إن جزاء المستكبر الهوان والصغار، ولذا جاء الخبر دالاً على هذا: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

تقول: إن الذين يظلمون الناس. إن الذي يثق بالأعداء. إن التي تتهاون بشرع الله. وستجد نفسك مستعداً لمعرفة أخبار هذه الجمل جميعاً، حتى قبل أن تذكر لك، فتدرك أن الذي يظلم الناس لا بد أن يظلم، وأن الذي يثق بالعدو هو أول من سيصيبه العدو بشره، وأن التي تتهاون بالشرع ستحصد ثمرة هذا التهاون شقاء وبلاء.

أما (أل) التي للجنس؛ فليس فيها ما يشعر بذلك، إنها تدخل على ماهية الشيء مما لم يسبق للسامع عهد به.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن كلاً منهما تنقسم إلى أقسام:

**خامساً: التعريف بـ (ال):**

يقسم العلماء (ال) إلى قسمين فهي إما للعهد وإما للجنس:

(ال) العهدية:

فـ (أل) العهدية يمكن أن يكون العهد فيها صراحة، أو كناية، أو علمياً، ويسمى حضورياً كذلك:

١- العهد الصريح: أما العهد الصريح؛ فهو أن يتقدم ذكر المعرف صراحة، كالمثال المتقدم: جاء رجل، فأكرمت الرجل. ومنه قوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦].

٢- العهد الكنائي: أما العهد الكنائي؛ فهو أن لا يتقدم للمعروف بـ (أل) ذكر صريح، وإنما يتقدم ما يدل عليه كناية، استمع إلى قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٦]، وستجد أن كلمة «أنثى» ذكرت مرتين: مرة منكرة في قوله ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ومرة معرفة في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، وهذا عهد صريح؛ لأن الكلمة نفسها قد ذكرت منكرة أولاً.

ولكن وردت كلمة الذكر مرة واحدة معرفة، مع أنه لم يسبق له ذكر صريح من قبل، ولكنك إذا نظرت في الآية مرة أخرى؛ تجد أنه – وإن لم يذكر الذكر صراحة – لكنه ذكر بما يدل عليه، فإن قوله سبحانه: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾؛ دل على أنها تعني ذكراً؛ لأن القيام بخدمة المعابد، والتفرغ لها؛ كان خاصاً عندهم بالذكور دون الإناث فـ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ هي للعهد إذن، ولكنه ليس عهداً صريحاً، وإنما هو عهد كنائي.

٣- العهد العلمي أو الحضوري: قد لا يسبق للمعرف بـ (ال) ذكر ألبتة؛ لا صراحة ولا كناية، ولكنك تدرك المقصود من نطق المتكلم، فإذا قلت لك: جاء

الأستاذ. وأنت تعرف أنه ليس هناك غير هذا الأستاذ، فإن (ال) هنا للعهد، ولكنه ليس عهداً صريحاً، ولا كنائياً، ومع ذلك علمت المقصود به، وأحضرته في ذهنك إحضاراً تاماً؛ ولذا يسمى هذا العهد عهداً حضورياً أو علمياً.

يمكنك الآن أن تميز بين الأقسام الثلاثة، فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٣٠]، فكلمة الرسول وردت معرفة مرتين، وهي في الآية الأخيرة للعهد الصريح، لكنها في الآية السابقة للعهد العلمي أو الحضوري.

**(ال) الجنسية:**

والجنس هو الذي يشتمل على أفراد كثيرين؛ كالرجال، والمرأة، والإنسان، والدرهم، والدينار، ألا ترى أن كل كلمة من هذه تصدق على أفراد كثيرين؟ .

إذا عرفت هذا؛ فتنبه لما يلي، وألق إليه فكرك، واجمع له بالك:

إذا دخلت (ال) على الجنس – وقد عرفت أن الجنس يندرج تحته أفراد كثيرون – فيمكن أن نجد ما يلي:

١- قد يكون القصد الجنس دون النظر إلى الأفراد.

٢- وقد يكون القصد فرداً غير معين.

٣- وقد يكون جميع الأفراد؛ إما حقيقة، وإما عرفاً.

**بيان ذلك:**

١- القصد الجنس دون النظر للأفراد: تقول: الرجل خير من المرأة. فأنت لا تقصد هنا رجلاً معيناً، وإنما تقصد جنس الرجال، ولا تقصد امرأة معينة، وإنما تقصد جنس النساء، هذا من جهة. ومن جهة ثانية؛ فأنت لا تقصد أن كل رجل خير من كل

امرأة، أنت لا تقصد الاستغراق وتعميم هذا الحكم، ودليل ذلك أنه ربما تكون هناك بعض النساء خيراً من كثير من الرجال.

ومثل هذا قولك: شغل الناس الدرهم والدينار. فأنت لا تقصد درهماً معيناً، ولا ديناراً معيناً، وإنما تقصد جنس الدراهم والدنانير.

وكما تقول: الذهب أثمن من الفضة. فأنت هنا تقصد الجنس كذلك، و(ال) هنا تدل على الحقيقة، أي: حقيقة الشيء وجنسه.

هذا هو القسم الأول.

**٢- القصد منها فرد غير معين من أفراد الجنس:** أما القسم الثاني من (ال) الجنسية؛ فإنه يقصد بها فرد غير معين من أفراد الجنس، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣]، فإن (ال) في الذئب ليس مقصوداً بها الحقيقة، إذ لا يعقل ذلك، لأن حقيقة الذئب لا تأكل، وهي كذلك لا تدل على ذئب معين، بل المقصود أي ذئب من الذئاب، كأنه قيل: وأخاف أن يأكله ذئب من الذئاب.

ومن هذا القبيل قولك: تصدق على المسكين. فأنت لا تعني مسكيناً معيناً، وإنما تعني أي مسكين ثبت له هذا الوصف.

ولو كنت تعني مسكيناً يعرفه المخاطب لكانت (ال) للعهد وليست للجنس، وهي التي حدثتك عنها من قبل.

ويمكن أن يكون من هذا قوله سبحانه ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]؛ فليس المقصود حماراً معيناً، بل أي حمار ولكن هذا ليس مسنداً إليه.

**٣- القصد منها الاستغراق:** أما القسم الثالث من أقسام (ال) الجنسية؛ فهي الدالة على الاستغراق، وهذا الاستغراق قسمان:

أ- حقيقي: يشمل كل الأفراد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج:١٩-٢١]، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر:١-٢]، فـ (ال) في الإنسان للاستغراق، تشمل جميع الأفراد، بدليل الاستثناء، ففي الآية الأولى يقول سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج:٢٢]، وفي الآية الثانية يقول: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:٣].

وهذه (ال) التي يصلح أن يوضع مكانها كلمة (كل) [(١)].

ب- عرفي: وهو ما يدل على جميع الأفراد، ولكن من حيث العرف؛ يقول لك الأستاذ: اجمع الطلاب؛ لا تدع منهم أحداً. فالمعنى هنا: اجمع كل الطلاب. ولكن لا يتصور أحد أنه سيجمع جميع الطلاب في جميع المدارس والجامعات، وإنما طلاب فصلك، أو سنتك، أو كليتك.

إذا عرفت هذا؛ أدركت أن ما جاء في بعض الكتب من أن (ال) تنقسم إلى ثلاثة أقسام: العهد، والجنس، والاستغراق. ليس دقيقاً، والحق أن (ال)؛ إما للعهد، وإما للجنس، والتي للجنس؛ إما أن تدل على الحقيقة دون النظر للأفراد، وإما أن تدل على فرد أو أفراد غير معينين، وإما أن تدل على جميع الأفراد، وهي التي للاستغراق؛ حقيقة أو عرفاً، فـ (ال) الاستغراقية هي من أقسام (ال) الجنسية، ويتحصل من هذا أن (ال) من حيث التفصيل سبعة أقسام، ثلاثة للعهد، وأربعة للجنس.

بقيت قضية حرية بالتنبيه، وهي أن هناك فرقاً بين استغراق المفرد، واستغراق الجمع، ولنبدأ بالمثال ليتضح الأمر:

---

(١) وإياك أن تفهم من هذا أن (أل) و(كل) سواء من حيث المعنى، فـ (ال) تشمل جميع الأفراد من حيث معرفة المخاطب، وكل تشمل جميع الأفراد من حيث الواقع، هذا ما قرره الشيخ محمد عبده رحمه الله، وانظر تعليقات الشيخ البرقوقي على «التلخيص».

أقول: لا رجال في الساحة. فهذه العبارة تنفي الجمع - كما ترى - ولكنها لا تنفي الواحد، ولا الاثنين، فيمكن أن يكون في الساحة رجل أو رجلان.

ولكن إذا قلنا: لا رجل في الساحة. فإن هذا القول ينفي جنس الرجال ألبتة.

من هذين المثالين تدرك أن استغراق المفرد أشمل وأعم من استغراق الجمع، وتلك هي عبارتهم.

وهذه العبارة وتلك القاعدة إن صحت في نفي النكرة - كما مر معنا من قبل من أن النكرة في سياق النفي تدل على العموم - لكنها لا تطرد في المعرف باللام، وقد عرفت من قبل أن من أقسام (ال) الجنسية تلك التي تدل على الاستغراق.

فالمعرف بـ (ال) يفيد العموم والشمول في حالة الجمع وحالة الإفراد معاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦]، وقوله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة:٩٣].

فإن (ال) في الآيتين الكريمتين داخلة على الجمع، ولا يمكن أن يقال: إن استغراق الجمع لا يشمل استغراق المفرد؛ كما رأينا في القاعدة السابقة.

إذن؛ استغراق المفرد أعم في النكرة المنفية، أما المعرف بـ (ال) فالإفراد والجمع فيه سواء.

**سادساً: التعريف بالإضافة:**

والإضافة إنما تأتي للاختصار، ألا ترى أن قولنا: ابن الخطاب. أخصر وأوجز من قولنا: ابن لهذا الرجل المسمى بالخطاب. وقولنا: أبو خالد. أوجز من قولنا: أب لهذا الذي اسمه خالد.

وقد ذكروا للتعريف بالإضافة أغراضاً ودواعي؛ أهمها:

١- **الاختصار والإيجاز:** وقد ذكرناه لك من قبل.

ومثله قولك: شوقي أسير؛ لا أمكن من الصلاة فيه. فهذا أخصر من قولك: المسجد الأقصى الذي أشتاق إليه أسير؛ لا أمكن من الصلاة فيه.

**٢- الاختصار مع تعذر التفصيل:** وقد يكون مع الاختصار غرض آخر، وهو أن يتعذر التفصيل؛ كقولك: أصحاب النبي ﷺ شيدوا صرح العلم والحضارة. فإن الإضافة هنا - مع دلالتها على الإيجاز والاختصار - أغنتنا عن تفصيل متعذر، فإنه يتعذر علينا أن نعدهم، فنقول: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخالد، وطلحة... إلخ.

**٣- التشريف:** من دواعي التعريف بالإضافة كذلك التشريف؛ كقولنا: رسول الله ضرب أروع الأمثلة في مكارم الأخلاق. وقد يكون التشريف للمضاف، أو المضاف إليه؛ تقول: حافظ القرآن يرقى يوم القيامة درجات كثيرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢].

وهناك أغراض غير ما ذكر؛ كالتخلص من مأزق مثلاً؛ كأن تقول: حضر قضاة المدينة. لا تريد أن تقدم أحدهم على الآخر حتى لا تقع في مأزق، وكالتحقير؛ كقولك؛ ابن الجاموس دخل المدرسة. آكل الربا يتظاهر بالرحمة. إلى غير ما هنالك من أغراض تدل عليها القرائن.

## المطلب الثاني
## تعريف المسند

**تعريف المسند:**

عرفت أن المسند قد يكون فعلاً في الجملة الفعلية؛ مثل: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، فكل من (جاء) و(زهق) مسند.

أما في الجملة الاسمية؛ فتارة يكون اسماً، وتارة يكون فعلاً، فقولك: محمد رسول الله. المسند هنا اسم. وقولك: عمرو فتح مصر. المسند فعل؛ كما ترى.

وحديثنا الآن في الجملة الاسمية التي يكون فيها المسند والمسند إليه اسمين، أي: التي تتكون من مبتدأ وخبر - كما يقول النحاة - ويكون الخبر اسماً لا فعلاً.

إذا عرفت هذا؛ فاعلم أن المبتدأ لا يكون إلا معرفة، ولا يجوز أن يكون نكرة إلا إذا كانت نكرة مفيدة، كأن تصوف بما يدل على الخصوص، أو العموم.

يقول ابن مالك:

وَلا يَجُوزُ الابْتِدا بِالنَّكِرَهْ    ما لَمْ تُفِدْ كَـ: عِندَ زَيْدٍ نَمِرَهْ

وهَلْ فَتًى فِيكُم فَمَا خِلٌّ لَنَا    ورجُلٌ مِنَ الكِرامِ عِنْدَنا

ورغبَةٌ في الخيرِ خيرٌ وعَمَلْ    بِرٍّ يَزِينُ ولْيُقَسْ ما لَمْ يُقَلْ[1]

فقد جاء المبتدأ في هذه الجمل - عند زيد نمرة. هل فتى فيكم؟ ما خل لنا. رجل من الكرام عندنا. رغبة في الخير خير. عمل بر يزين. - نكرة، وإنما جاز الابتداء بها؛ لأنها نكرة مفيدة.

الأصل في المبتدأ إذن أن يكون معرفة، وإنما كان كذلك لأن المبتدأ هو الذي تخبر عنه، والذي تخبر عنه ينبغي أن يكون معلوماً عند المخاطب، وإلا فكيف تبتدئ بشيء يجهله المخاطب.

أما الخبر، والمسند؛ فهو ما تخبر به، ولذا فلا مانع أن يكون مجهولاً للمخاطب؛ تقول: الحطيئة شاعر هجاء. والبحتري شاعر الطبيعة. فأنت ما بدأت بالحطيئة البحتري إلا لأنهما معلومات عند المخاطب، ولكن الخبر هو المجهول؛ لذا قلنا: لا بد أن يكون المبتدأ معرفة، أما الخبر فقد يكون معرفة، وقد يكون نكرة.

وهنا لا بد أن ننبهك إلى شيء لا ينبغي لك أن تنساه، وهو أن الخبر إذا كان معرفة؛ فلا بد أن يكون المبتدأ معرفة كذلك، فلا يجوز أن يكون الخبر معرفة والمبتدأ نكرة. هذه قضية ينبغي أن تستنتجها مما سبق أن قررناه لك.

---

(١) (عمل)؛ مبتدأ، و(بر)؛ مضاف إليه، و(يزين)؛ خبر: أي : أن عمل البر هو الذي له وزن: وقد ذكر في هذه الأبيات أهم الأسباب التي تصحح الابتداء بالنكرة.

والبليغ قد يورد الخبر معرفة، وقد يورده نكرة، وما ذلك إلا لأن هنالك دواعي بيانية، وأغراضاً بلاغية؛ تتطلب أن يكون الخبر كذلك.

وحديثنا الآن عن تعريف الخبر:

فالخبر يكون معرفة – وقد عرفت أنواع المعارف من قبل – إذا كان هناك أمران يعرف المخاطب أحدهما ويجهل الآخر، أو كان يعرفهما ولكن السياق يوجب تقديم أحدهما؛ فإنك تجعل الوصف الذي يعرفه، أو الذي يقتضيه السياق مبتدأ، وما ليس كذلك خبراً.

وإليك أمثلة توضح هذا المقام:

إذا كان الخاطب يعرف خالد بن الوليد ﷺ ولكنه يجهل أنه سيف الله؛ فأيهما تجعله مبتدأ يا ترى؟ ما إخالك نسيت ما قلته لك، وهو أن ما عرفه السامع هو المبتدأ. فالواجب إذن أن تقول: خالد سيف الله.

ولكن؛ إذا كان المخاطب يعرف أن أحد الصحابة – رضوان الله عليهم – يتصف بهذا اللقب، وهذا سيف الله، ولكنه لا يدري من هو؟ فمن فَنِّ القول البليغ أن تقول له: سيف الله خالد.

وهكذا تقول: حمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ . إذا كان المخاطب يعرف حمزة، ولكنه يجهل هذا الوصف.وعلى العكس من ذلك؛ تقول: أسد الله وأسد رسوله ﷺ حمزة.

وإذا كان المخاطب يعرف زيداً، وكان زيد هذا أخاً لأحمد، ولكن المخاطب يجهل هذا الوصف، فإنك تقول له: زيد أخو أحمد. فتجعل (زيد) مبتدأ، و(أخو) خبراً. أما إذا كان المخاطب يعرف أخا أحمد، ولكنه يجهل أنه زيد، فإنك تقول له: أخو أحمد زيد. فتجعل الأول مبتدأ أو مسنداً إليه، والثاني خبراً أو مسنداً.

فاطمة صاحبة هذه اللوحة، وخديجة كاتبة هذا الشعر. نقول هذا لمن يعرف فاطمة وخديجة، ولكنه يجهل أن لهما هذا الوصف، وقد نقول: صاحبة هذه اللوحة

فاطمة، وكاتبة هذا الشعر خديجة. إذا كان المخاطب قد رأى اللوحة، وسمع الشعر، ولكنه لا يعرفهما لمن.

وهكذا تقول: زيد المنطلق، وأحمد الكاتب، ولكننا قد نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نقول: المنطلق زيد، والكاتب أحمد.

وعلى ضوء هذه الأمثلة أرجو لك أن تتذوق وتدرك أغراض التقديم والتأخير في هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى:١٥]، وقال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢].

فانظر كيف جاء لفظ الجلالة في الآيتين الأوليين، ولفظ الرب في الآيتين الأخيرتين، وأنعم على هذا النظم الموجز المعجز[1].

أما في سورة الإخلاص؛ فلقد جاء الخبر منكراً في الآية الأولى: ﴿أَحَدٌ﴾، معرفاً في الآية الثانية: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ لأنهم لا يفردوه بالوحدانية، ولم يعترفوا بها لغيره كذلك، أما الصمدية؛ فمع أنهم كانوا يعترفون بها لله، فإنهم كانوا يعترفون بها لغيره كذلك، فجاء النظم في الآية الكريمة، فعرف الجزءين؛ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، أي: الله وحده الذي ينبغي أن تكون له هذه الصفة، فالصمدية له وحده لا يشاركه فيها غيره. ذلكم هو سر النظم.

---

(١) فصلت لك القول في هذه الآيات وغيرها في كتاب «الإعجاز».

تلك قضية تعريف الخبر.

بقي أمر آخر في هذا المبحث، وهو أمر مهم يحتاج إلى فطنة، وهو أن الخبر قد يكون معرفاً بـ (ال)، وهذا التعريف يكون لأغراض غير ما ذكرته لك، فإذا كان الخبر معرفاً بـ (ال)؛ فقد يفيد القصر الحقيقي، وذلك إذا كان الخبر خاصاً بالمبتدأ، لا يتجاوزه إلى غيره، تقول: محمد الخاتم للأنبياء. فأنت ترى أن هذا الوصف لا يصدق على أحد غير سيدنا رسول الله ﷺ . وهكذا إذا قلت: فاطمة المجتهدة. ومصعب السخي. إذا لم يكن أحد مجتهداً إلا فاطمة، وإذا لم يكن أحد سخياً إلا مصعب.

هذا أولاً.

أما ثانياً: فإن الخبر يكون معرفاً بـ (ال) لا لإفادة القصر الحقيقي – كما عرفة فمن الغرض الأول – وإنما لبيان كمال هذا الوصف، فإذا قلت: زيد الأسد، وفاطمة الذكية. فأنت هنا تدعي أن زيداً هو الشجاع الكامل في الشجاعة، وأن فاطمة هي الذكية وهي الحرية بهذا الوصف، وهذا كثير في أقوال البلغاء.

والأمثلة التي سبقت مطلقة؛ ليست مقيدة بقيد؛ سواء كانت في القصر الحقيقي أم في المبالغة.

وقد يكون هذا التخصيص مقيداً بقيد، كأن تقول مثلاً: فاطمة المجتهدة؛ حينما تسأم الفتيات الدرس، وسعيد الجواد؛ حينما يضنُّ الناس بأموالهم، وخالد الجريء، حينما يجبن زملاؤه عن قول الحق. فأنت ترى أن التخصيص هنا ليس مطلقاً، إنما هو مقيد بالحالات التي سمعت.

## المبحث الثاني

# التنكيـر

بعد أن عرفت أنواع التعريف وأغراضه، نحدثك عما يقابله، وهو التنكير، والنكرة – كما يقولون – ما شاع في جنسه دون أن يدل على معين، فإذا قلت: جاءني رجل. وهذا كتاب. فإنهما يصلحان لكل رجل وكتاب، ولا يدلان على رجل معين، أو كتاب معين. إذا عرفت هذا، فاعلم أن للتنكير أغراضاً كثيرة تستدعيها البلاغة، ويحتمها المقام، وهل البلاغة إلا مراعاة هذه المقامات التي يقتضيها الحال؟! نعم؛ إن البلاغة ليست شيئاً غير هذا، فهي منحصرة في قولنا: لكل مقام مقال.

ولكننا لا بد أن ننبهك هنا إلى أن التنكير في نفسه يفيد ما قلناه لك من قبل عن النكرة، أما الأغراض التي تستفاد – والتي يقولون: إن التنكير يدل عليها – فإنما تستفاد من السياق، لا من التنكير وحده، السياق هو الذي يدلك على المراد من هذا التنكير، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة:٩٦]، وإلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩]؛ فإن كلمة (حياة) جاءت منكرة في الآيتين، ولكنها تدل في كل آية على معنى، ففي الآية الأولى تدل على أي حياة مهما كانت، ولكنها في الآية الثانية تدل على حياة عظيمة، حرية بأن يحافظ عليها.

السياق – إذن – يرشدك إلى الأغراض الكثيرة حينما تتأمله، وتحسن الاستفادة منه، ألا ترى أنك إذا قلت: إن له لإبلاً وغنماً. فإنك لا تتردد إذا سئلت عما يفيده هذا التنكير، فتجيب بأنه التكثير؟ .

ولأن السياق هو الذي يدل على المراد من التنكير؛ نجد العلماء يختلفون تبعاً لاختلافهم في فهم المعنى، فمثلاً قوله سبحانه: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٧]؛ ذهب الزمخشري إلى أن هذا التنكير يفيد النوعية، أي: وعلى أبصارهم نوع خاص من الغشاوات، ولهم نوع من العذاب خاص بهم(١)، لكن السكاكي ذهب غير هذا المذهب، وقال: إن المراد من هذا التنكير التعظيم؛ كأنه قال: غشاوة عظيمة تليق بحالهم، وعذاب كذلك.

ولقد كان الزمخشري أرهف حساً، وأكثر غوصاً.

وخذ قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٢٣]؛ فذهب بعضهم إلى أن تنكير (نصيباً) يفيد التقليل، أي: أوتوا حظاً قليلاً، فلماذا الغرور؟ بينما ذهب آخرون إلى أن التنكير هنا يفيد التكثير أو التعظيم، أي: أوتوا حظاً وافراً يمكنهم من معرفة الحق، فلم هذا الجحود إذن؟.

والفرق بين التعظيم والتكثير أن التكثير يكون في الكمية، أما التعظيم فيكون في الكيف، وقد يجتمعان معاً - أعني التكثير والتعظيم - كما جاء في قوله سبحانه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ [فاطر:٤]؛ فهم كثيرون من جهة، ورسل ذوو شأن يستحقون الإجلال والتعظيم من جهة أخرى.

التنكير - إذن - متعدد الأغراض، وما أجدرك أن تقف مع الآيات الكريمة من كتاب الله؛ لتنعم باللطائف التي يدل عليها السياق، وقد يكون التنكير للأفراد، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [القصص:٢٠]، أي: فرد واحد لا أكثر، وقد يكون للتعظيم - كما مر - كقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ [ص:٢٩]، وقد يكون للتقليل، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

ومنه قول المتنبي:

---

(١) «الكشاف» (١/٥٣).

فَيَوْمـاً بخَيْـلٍ تَطْـرُدُ الـرُّومَ عـنهُمُ      ويَوْماً بجودٍ يَطْـرُدُ الفَقْـرَ والجَـدْبا[1]

وقد تقدم لك أنها تكون للنوعية؛ كقوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨].

وقد يكون للتكثير؛ مثل: الدنيا متاع زائل. وقد يكون للتقليل، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢]، أي: أي شيء من ثواب الله، فإنه خير من المتع المادية. وقد يكون هذا للتعظيم كذلك.

خلاصة القول: إننا لا يمكن أن نحصر لك أغراض التنكير، فهذا كتاب الله أمامك، وكذلك سنّة رسول الله ﷺ، وأقوال من يحتج بهم في هذا المضمار؛ اقرأ مثلاً قول محمود غنيم:

لـي فيـكَ يـا لَيْـلُ آهـاتٌ أُرَدِّدُهـا      أوَّاهُ لـو أجْـدَتِ المَحْـزونَ أوَّاهُ

ألا تشعر أن آهات كثيرة يجدها الشاعر في نفسه؟ .

(١) «الديوان» (١/ ١٨٨).

# الفَصْلُ السَّابِعُ

## القصـر

**مقدمة:**

القصر أحد الأساليب البلاغية التي يقتضيها المقام، ويدعو إليها حال المخاطب، فهو من هذه الجهة لا يختلف عن الأساليب التي تحدثنا عنها من قبل؛ كالحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، فإذا كان لكل من هذه أسبابه الداعية إليه؛ فإن القصر كذلك إنما يُؤتى به عند الحاجة، وحينما تكون هناك ضرورة؛ كما ستعرفه إن شاء الله.

وستتناول هذا الموضوع في أربعة مباحث:

- المبحث الأول: تعريف القصر وأركانه.
- المبحث الثاني: أقسام القصر.
- المبحث الثالث: طرق القصر والفروق بينها.
- المبحث الرابع: دراسة تطبيقية لأهمية القصر ووظيفته البيانية.

## المبحث الأول

# تعريف القصر وأركانه

**تعريفه :**

القصر في اللغة هو الحبس، والقرآن الكريم هو المرجع اليقيني الذي تطمئن إليه القلوب ثقة وصحة، فقد جاء في الكتاب الكريم: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ [الصافات:٤٨].

فهي تصف نساء أهل الجنة بأنهن يقصرن الطرف على أزواجهن؛ فلا تتعدى نظراتهن غير أولئك الأزواج.

أما المعنى الاصطلاحي: فقد عرّف علماء البلاغة القصر بأنه تخصيص أمر بأمر بطريق مخصوص(١).

فإذا أردنا – ونحن نتحدث عن الشعراء – أن نخصص البحتري بالشعر دون غيره؛ لأننا نجده أحق بهذا الوصف من معاصريه، أو ممن يكون الحديث عنهم؛ نقول: إنما الشاعر البحتري فأنت ترى أننا أثبتا الشعر للبحتري دون غيره، ولم نكتف بهذا الإثبات، بل قصرناه عليه، وأخرجنا غيره من حلبة الشعراء.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الجاحظ بأنه كاتب فحسب، وليس شاعراً، ولا خطيباً، فإننا نقول: ما الجاحظ إلا كاتب.

فأنت ترى أننا لم نأت بأسلوب القصر جزافاً، وإنما اضطررنا له؛ لأن المقام يقتضيه.

---

(١) وهذا هو التعريف المختار.

ففي المثال الأول؛ كان بعض بعضنا يرى أن المتنبي هو الحريّ بوصف الشعر، وبعضنا يرى أنه أبو تمام، فاضطررنا أن نقول: إنما الشاعر البحتري.

وفي المثال الثاني – وقد قرأ بعضنا أبياتاً للجاحظ فظنه شاعراً، وبعضنا سمعه يتحدث في كتاب «البيان والتبيين» عن الخطابة والخطباء فظنه خطيباً – أردنا أن نحسن هذا الأمر، وأن نبين أن الجاحظ لم يكن هذا ولا ذاك، وإنما كان كاتباً فحسب، فقلنا: ما الجاحظ إلا كاتب.

ولولا هذا الاختلاف في وجهات النظر؛ لاكتفينا بالقول: البحتري شاعر، والجاحظ كاتب.

فلو أن جلساءنا كانوا يتفقون في هذا الأمر، لا يخالف منهم أحد؛ لما كان من البلاغة أن نأتي بأسلوب القصر.

**أركان القصر:**

وبعد أن عرفت معنى القصر، وتبيّنت الحاجة التي تدعو إليه، ومتى يحسن؟ ومتى يقبح؟ لا بد من المرحلة الثانية، وهي معرفة أركان القصر.

وفي المثالين السابقين ما يرشدك إلى ذلك:

فالمثال الأول: إنما الشاعر البحتري. قصرنا فيه الشعر على البحتري وحده، فالشعر مقصور، والبحتري مقصور عليه.

وفي المثال الثاني: ما الجاحظ إلا كاتب. قصرنا الجاحظ على الكتاب، فالجاحظ مقصور، والكتابة مقصور عليها.

هذان طرفا القصر: مقصور، ومقصور عليه. ولا بد من هذين الطرفين في كل قصر؛ لأننا نقصر شيئاً على شيء، لأننا عرفناه تخصيص أمر بأمر.

## المبحث الثاني

# أقســام القصــر

للقصر أقسام متعددة؛ ذلك لأن له اعتبارات مختلفة، وحيثيات متنوعة، فمن حيث طرفاه ولفظه له تقسيم، ومن حيث الواقع له تقسيم، ومن حيث المخاطب الذي من أجله جئنا بأسلوب القصر له تقسيم ثالث.

**أولاً: تقسيم القصر من حيث طرفاه:**

يقسم القصر من حيث طرفاه – وهما المقصور والمقصور عليه – إلى قسمين: قصر موصوف على صفة، وقصر صفة على موصوف.

تأمل المثالين السابقين؛ تجد فيهما ما يرشدك إلى ذلك: إنما الشاعر البحتري. قصرنا فيه الشاعرية على البحتري. وغني عن القول أن الشاعرية صفة(١)، والبحتري موصوف، فهو إذاً قصر صفة على موصوف.

ويمكنك أن تقيس عليه: إنما أكرمكم أتقاكم. إنما الجواد حاتم. ما السعداء إلا العاملون. إنما الأديب الرافعي. ففي مثل هذه الأمثلة قصرنا الكرم على الأتقياء، والجود على حاتم، والسعادة على العاملين، والأدب على الرافعي.

أما المثال الثاني – وهو قولنا: ما الجاحظ إلا كاتب – فقد قصرنا الجاحظ على الكتابة، فهو قصر موصوف على صفة.

ويمكنك أن تقيس عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وقولنا: ما الدنيا إلا مزرعة للآخرة. إنما صلاح الدين قائد مخلص.

---

(١) تدرك من هذا أننا لا نعني بالصفة النعت الذي يعنيه علماء النحو، وإنما نعني بها معنى أعم من هذا.

ولكل من هذين القسمين؛ قصر الصفة على الموصوف، والموصوف على الصفة؛ مقامه الخاص به، فلا يجوز أن يأتي أحدهما مكان الآخر، أو يقوم أحدهما مقام الآخر.

فإذا كان حديثنا عن القادة المخلصين، وتناولنا أعلاماً من أعلام التاريخ، وكان حديثنا أن أولئك أحق بهذا الوصف؛ فإن المقام يقتضينا أن نقول: إنما القائد صلاح الدين.

أما إذا كان حديثنا عن صلاح الدين، وما هي أبرز أوصافه؟ أهو عالم، أم شاعر، أم قائد؟ فإننا نقول: إنما صلاح الدين قائد.

**ثانياً: تقسيم القصر باعتبار الواقع:**

حينما ننظر إلى أسلوب القصر؛ فإنا نجد أنه يكون تارة قصراً حقيقياً من حيث الواقع، وقد لا يكون كذلك، وإنما نقصد المبالغة؛ لأن هناك من يتّصف بهذا الوصف غير المقصور عليه، ولكننا قصرناه عليه بالإضافة إلى غيره؛ لأننا نجده الحري بهذا الوصف.

فإذا قلت: لا يروي أرض مصر من الأنهار إلا النيل. فنحن هنا قد قصرنا إرواء أرض مصر - وهي صفة - على النيل، وهو من حيث الواقع كذلك؛ فليس هناك أنهار غيره، فهو قصر حقيقي.

وإذا كان في القاعة التي ألقي فيها المحاضرة طالب روسي واحد، فقلت: لا روسي في القاعة إلا فلان. فهذا القصر حقيقي؛ لأن الواقع يشهد له.

وإذا قلت: إنما خاتم الأنبياء محمد ﷺ: فهو من حيث الواقع كذلك؛ لأنه لا خاتم للأنبياء غيره.

لكنني حينما أقول: إنما الشاعر المتنبي. فالواقع والتاريخ يثبتان شعراء كثيرين.

وإذا قلت: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]؛ فالواقع يشهد بأن له - ﷺ - صفات كثيرة غير صفة الرسالة؛ فهو قائد، وعابد، وزوج، وأب...

مما تقدم تدرك أن القصر قسمان: حقيقي وإضافي، فالحقيقي ما كان الواقع فيه شاهداً على ذلك، والإضافي بعكس ذلك[1].

يمكنك أن تدرك بعد هذا أن قولنا: لا خالق إلا الله. قصر حقيقي؛ لأننا قصرنا فيه الخلق على الله وحده، وليس هناك خالق سواه. وأن قولنا: إياك نعبد. قصر حقيقي؛ لأننا قصرنا العبادة على الله. وكذلك قولنا: لم يسر على سطح القمر إلا ثلاثة أمريكيين. قصر حقيقي إذا لم يكن غيرهم قد مشى على سطح القمر.

وإذا نظرت إلى هذه الأمثلة الثلاثة؛ وجدتها جميعاً من باب قصر الصفة على الموصوف؛ لأننا قصرنا الخلق على الله في المثال الأول، والعبادة عليه سبحانه في المثال الثاني، وقصرنا السير على سطح القمر على الأمريكيين الثلاثة في المثال الثالث.

ويمكن أن يكون قصر الصفة على الموصوف إضافياً كذلك؛ كقولك: إنما الشهيد جعفر. لأن هناك شهداء غيره.

قصر الصفة على الموصوف إذاً قد يكون حقيقاً، وقد يكون إضافياً، فهل قصر الموصوف على الصفة كذلك؟!.

لا نتعجل الحكم، ولنأخذ هذه الأمثلة: إنما الله رازق. إنما ابن رشد فيلسوف. إنما فلسطين مقدسة. هذه الأمثلة كلها من باب قصر الموصوف على الصفة، ولكننا عندما ننظر فيها مرة أخرى؛ فإننا سنجد أن المثال الأول الذي قصرنا فيه لفظ الجلالة على الرزق، نجد أن هذا القصر ليس حقيقياً؛ لأن لله سبحانه وتعالى صفات كثيرة غير الرزق، فهو الخالق، والعالِم، والقادر، والمالك..

وكذلك المثال الثاني الذي قصرنا فيه ابن رشد على الفلسفة، ومن البدهي أن لابن رشد صفات كثيرة غير هذه الصفة، فهو فقيه، ومتكلم.. وذو صفات كثيرة متعددة.

---

(١) والذي يركز عليه علماء البيان هو القصر الإضافي، ولذا اقتصر عليه بعضهم، ولم يذكر القصر الحقيقي؛ لأنه هو الذي يثري الأساليب العربية.

وكذلك المثال الثالث الذي قصرنا فيه فلسطين على كونها مقدسة، فإن لها صفات كثيرة أخرى، فهي مباركة، خصبة الأرض، عذبة الماء، ذات النسيم العليل.

القصر إذاً إضافي في هذه الأمثلة جميعاً، وكأننا لم نظفر بمثال يكون في قصر الموصوف على الصفة حقيقياً، وهذا صحيح؛ لأننا لا يمكن أن نجد موصوفاً ليس له إلا صفة واحدة فقط، بل من البدهي أن تكون له صفات كثيرة.

أما قصر الصفة على الموصوف فيكون حقيقياً؛ لأن هناك صفات ليس لها إلا موصوف واحد، فخاتم الأنبياء لا يتصف بها إلا رسول الله ﷺ ، وإرواء أرض مصر إنما اختص به النيل، والعبادة والخلق إنما هما لله وحده، وتحرير فلسطين من الصليبيين إنما قام به صلاح الدين.

الخلاصة: إن قصر الصفة على الموصوف يكون حقيقياً وإضافياً، أما قصر الموصوف على الصفة؛ لا يكون إلا إضافياً.

**ثالثاً: تقسيم القصر من حيث المخاطبون:**

أسلوب القصر الذي نخاطب به الناس إنما تدعو الحاجة إليه - كما عرفت من قبل - فنحن لا نخاطب به الذين يتفقون معنا فيما نقرره من أحكام، وفيما نلقيه من آراء. المخاطب الذي نخاطبه بأسلوب القصر؛ لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة؛ إما أن يكون معتقداً عكس الرأي الذي نرتئيه، أو شاكّاً فيه، والحالة الثالثة أن يعتقد الشركة بين اثنين أو أكثر في هذا الحكم.

فحينما أقول: لم يفز بجائزة نوبل إلا أصدقاء الصهيونية. لا مؤيد لإسرائيل مادياً ومعنوياً إلا أمريكا. إنما شر أنواع الاستعمار التبعة الفكرية. إنما الهزيمة الحقيقة فقدان الثقة بالنفس.

في هذه الأمثلة قد نجد من يعتقد عكس رأينا، وقد نجد من يعتقد الشركة، فيعتقد أن أمريكا وفرنسا مؤيدتان لإسرائيل على حدٍّ سواء، وقد يفوز بجائزة نوبل أصدقاء الصهيونية وأعداؤها معاً، ومن يعتقد أن شر أنواع الاستعمار قد يكون

فكرياً وغير فكري، وأن الهزيمة الحقيقية قد تكون بعدم الثقة، وقد تكون هزيمة عسكرية كذلك.

فإذا كان المخاطب يعتقد عكس ما نقول، فإن القصر يسمى قصر قلب؛ لأننا أردنا أن نقلب له معتقده رأساً على عقب.

أما إذا كان يعتقد الشركة؛ كالذي يرى أن أمريكا وإنجلترا سواءً في تأييد إسرائيل، فإن القصر يسمى قص إفراد؛ لأننا قصرنا فيه الحكم على فرد واحد دون غيره.

وإذا كان شاكاً؛ سمي القصر قصر تعيين؛ لأننا خلصنا فيه المخاطب من شبهة الشك، وعيّنا له من ينبغي أن يقصر عليه هذا الحكم.

ويمكن أن تجتمع هذه الأقسام في مثال واحد إذا كان في المخاطبين هذه الأصناف الثلاثة.

بعد هذا يمكنك أن تدرك أن قوله سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة:٧٥]؛ إنما هو قصر قلب؛ لأن فيه قصر المسيح عليه السلام على الرسالة. وكذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]؛ لأنه جاء رداً على الذين يحرمون على أنفسهم الطيبات من الرزق وما لم يحرمه الله. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]؛ لأنه جاء رداً على الذين أنكروا أن يموت النبي أو يُقتل.

وإذا قلت: إنما الميوعة والإلحاد الداء العضال في الأمة. فإن هذا قصر قلب لمن لا يرى هذا الرأي، ويرى أن التدين والفضيلة هما الداء العضال، وهو قصر إفراد لمن يسوّي بين هذين وبين غيرهما، وهو قصر تعيين لمن كان شاكاً في أمراض الأمة أيها أكثر ضرراً.

## المبحث الثالث

# طـرق القصـر

ونعني بها الأساليب التي تدل على القصر.

وللقصر طرق كثيرة، نقتصر منها على أربع:

**أولاً**: القصر بـ (إنما).

**ثانياً**: بـ (ما) و(إلا) .

**ثالثاً**: العطف: وحروف العطف التي يمكن أن يكون بها القصر هي: (لا)، و(بل)، و(لكن).

تقول: داؤنا التفرق لا الفقر. وتنقصنا الإرادة لا الغطاء الجوي. ما أذلنا أعداؤنا بل قادتنا. ليس الفقر مشكلتنا لكن الأنانية.

**رابعاً**: تقديم ما حقّه التأخير: لله الأمر. على الله توكلنا. في الجدية النجاح. بالثقة تنتصر الشعوب. بالتفرق تهزم الأمم.

**الفرق بين هذه الطرق:**

إذا تأملت هذه الطرق الأربع فستجد بينها بعض الفروق التي يمكن أن تستنتجها بنظرك وفكرك، وهناك فروق لا بد من أن ننبهك إليها؛ لأنها تحتاج إلى بيان.

ففي الطريقة الأولى – وهي القصر بـ (إنما) – تجد أنها يليها المقصور دائماً، فإذا قلت: إنما الشاعر المتنبي. فأنت تقصر الشعر على المتنبي، فالشاعر مقصور، والمتنبي مقصور عليه. فإذا قلت: إنما المتنبي الشاعر. فأنت قصرت المتنبي على الشعر، فالمتنبي مقصور، والشعر مقصور عليه.

وإذا كان العطف بـ (بل)، و(لكن)؛ فإن المقصور عليه يكون بعدهما.

فاحرص على هذه القاعدة؛ لأنك محتاج إليها لتدرك المعاني والأغراض التي يؤتى بالقصر من أجلها.

هذا هو الفرق بين الطرق.

الفرق الثاني: وهو ما يمكنك استنتاجه إذا رجعت النظر في هذه الطرق: الطرق الثلاث الأولى لكل منها أداة دالة عليها

أما الطريقة الرابعة، وهي التقديم؛ فليس لها أداة خاصة، فإذا قلت: لله الأمر. بالتقوى يتفاضل الناس. بالشجاعة تسود الشعوب. فأنت لا ترى هنا أداة خاصة بالقصر تدل عليه، وإنما نفهم هذا القصر وندركه بأذواقنا.

فإذا قلت: بالتقوى يتفاضل الناس. فإنك ترد على الذين يزعمون أن التفاضل يكون بالمال، أو بالمنصب، أو بالجمال، فكأنك تقول لهم: لا، لا يتفاضل الناس بشيء من هذه الأشياء، وإنما يتفاضلون بشيء واحد فقط، هو التقوى.

في هذه الأمثلة كلها لا تجد أداة خاصة بالقصر، وإنما أدركت القصر بطبيعتك وذوقك.

بقيت فروق بين بعض هذه الطرق وبعضها الآخر:

فهناك فرق بين القصر بـ (إنما) والقصر بالعطف، فالقصر بـ (إنما) يأتي النفي فيه دفعة واحدة، فإذا قلت: إنما خالد كاتب. فأنت تفهم من هذا القول أنه ليس بالخطيب ولا الشاعر. أما طريقة العطف، فإن النفي فيها ليس كذلك، وإنما يُفهم شيئاً فشيئاً، فإذا قلت: خالد كاتب. فإن المخاطب لا يُفهم من هذا نفي الصفات الأخرى كما فهمها من قولك: إنما خالد كاتب. وإنما يُفهم ذلك بعد أن تأتي بالعطف، فتقول: لا شاعر ولا خطيب[1].

---

(١) لأن قولك: خالد كاتب. لا ينفي أن تكون له صفة أخرى، كأن يكون شاعراً أو خطيباً.

بقي من الفروق بين بعض هذه الطرق أدقها وأكثرها فائدة وأحوجها إلى التأمل، وهو ما بين (إنما)، و(ما)، و(إلا).

وربما يُظن لأول وهلة أن معناهما واحد، وليس الأمر كذلك، فبينهما من لطائف الفروق ما يشهد للعربية بدقة الوضع، وللعرب برقة الطبع.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣] أنه لا يصلح أن تأتي بـ (إنما)، فلا تقول: إنما من إله إله واحد؟

فأنت ترى أن (إنما) لا تصلح حيث صلحت (ما) و(إلا)، وكذلك قولك: إنما هي الأعمال يتفاضل بها الناس لا الأقول. فإنه لا يصلح: ما هي إلا الأعمال لا الأقوال.

وهناك كثير من الفروق الدقيقة بين هذه الطرق، ربما يتسنى لك دراستها في مراحل متقدمة من طلبك للعلم، أرجو أن يوفقك الله لذلك وأن يهيئه لك.

المبحث الرابع

## دراسة تطبيقية لأهمية القصر ووظيفته البيانية

الغرض البياني الذي يؤديه القصر ليس كمالياً، فالقصر من مباحث علم المعاني، وعلم المعاني يشرح نظرية النظم كما علمنا من قبل؛ لذلك كان الغرض الذي يؤديه القصر غرضاً جوهرياً رئيساً يتعلق بمعاني الجمل، وقد يختلف المعنى اختلافاً كلياً؛ لتقديم كلمة تارة، وتأخيرها أخرى، وقد يخفى ذلك على كثير من المتعلمين.

سألني يوماً أحدهم: إذا رضع طفل مسلم من امرأة غير مسلمة، أيكون بينه وبين أولادها أخوّة؟.

قلت: نعم، هم إخوة في الرضاعة.

فقال أحد جلسائنا ممن له قسط لا بأس به من التحصيل العلمي: كيف يكونون إخوة والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠]؟! أليست هذه الآية الكريمة تدلنا على غير ما قلت؟!.

قلت له: ما أحوجك لدراسة موضوع القصر؛ إن الآية الكريمة جاءت تبيّن للمؤمنين أن من شأنهم أن لا يكونوا متقاطعين متدابرين، فقد قصر المؤمنين على الأخوة، فالمؤمنون مقصور، وإخوة مقصور عليه، فالصفة التي ينبغي أن تكون بين المؤمنين قبل غيرها هي صفة الأخوة، كأنه قال: إنما المؤمنون إخوة لا متباعدون.

فالآية لا تنفي أن يكون بين غير المؤمنين أخوة، والمعنى الذي أشرت إليه يا صاحبي يصح ويصلح لو أن الآية الكريمة جاءت على غير هذا النظم، أي: لو أنه قيل: إنما الإخوة المؤمنون. فالمعنى حينئذ قصر الأخوة على المؤمنين، وكأن كل أخوة بين غير المؤمنين لا تسمى أخوة، ولكن القرآن الكريم لم يقل ذلك؛ لأن أسباب الأخوة من الدم والرضاع وغيرهما من الأسباب لا ينكرها القرآن.

ذكرت لك هذه الحادثة لتدرك خطر القصر وغرضه الذي يؤديه من حيث المعنى، وإذا عرفت هذا استطعت أن تعبر عن المعنى الذي تريد، فتختار له القالب الذي يناسبه من اللفظ؛ ليكون النظم صحيحاً غير فاسد.

والقصر كما يكون في المبتدأ والخبر؛ يكون كذلك في الجمل الفعلية بين الفاعل والمفعول، وبين المفعول الأول والثاني: وبين الحال وصاحبه؛ كل ذلك خاضع للمعنى الذي تريد التعبير عنه.

فإذا أردت أن تعبر عن أن الطلاب جاؤوا على أقدامهم، وأن واحداً منهم جاء راكباً فقط؛ فإنك تقول: ما جاء راكباً إلا أحمد. ولا تقول: ما جاء أحمد إلا راكباً.

وإذا أردت أن تبين أنه لم يحفظ القصيدة سوى أمينة؛ فإنك تقول: ما حفظت القصيدة إلا أمينة. لكن إذا أردت أن تبين أن أمينة حفظت القصيدة، ولم يتحفظ شيئاً من القرآن أو السنّة؛ فإنك تقول: ما حفظت أمينة إلا القصيدة. وهكذا تقدم الفاعل أو المفعول به.

وإذا أردت أن تثبت أن الجائزة كانت لأحمد وحده؛ قلت: ما أعطيت الجائزة إلا أحمد. لكن حينما تريد أن تبين أنك أعطيت أحمد الكتاب لا الدينار، فإنك تقول: ما أعطيت أحمد إلا الكتاب.

وفي ضوء ما تقدم؛ تستطيع أن تفهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨]، ففي هاتين الآيتين الكريمتين قُدِّم المفعول على الفاعل.

وأما قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقوله ﷺ: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[1]؛ ففي هذين النصين قُدِّم الفاعل على المفعول.

(١) «مسند أحمد بن حنبل» (٦/٤٤٦).

فإذا قُدِّم المفعول على الفاعل؛ كان التركيز على الفاعل، وإذا قُدِّم الفاعل على المفعول؛ كان التركيز على المفعول.

فإن قلت: إما حرر فلسطينَ صلاحُ الدين. كان التركيز على الفاعل، أي: إنما حررها صلاح الدين لا غيره. وإذا قلت: إنما يحرر المؤمنون فلسطين. كان التركيز عليها، أي: هي القضية الأولى التي ينبغي أن توجه إليها الأنظار، وتشدّ من أجلها السواعد.

وعلى هذا الأساس نفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، أي: الذين يخشونه حق الخشية، فمعنى الآية أن العلماء هم الذين يخشون الله أكثر من غيرهم من الناس. ولو أنه قيل: إنما العلماء يخشون الله. لكان المعنى: إن العلماء يخشون الله ولا يخشون غيره. وليس هذا المعنى مقصوداً في الآية الكريمة، والدليل على ذلك أن السياق الذي جاءت فيه الجملة الكريمة؛ جاء يتحدث عن قضايا كونية لا يدركها إلا العلماء، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٧-٢٨]. والقصر هنا هو قصر صفة على موصوف، أي قصر صفة الخشية على العلماء، وهو هنا إضافي لأن هناك من يخشى الله من المؤمنين غير العلماء.

أما قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨]، فإن التركيز فيه على الفاعل، وهم المؤمنون، ذلك أن الآية الكريمة جاءت ردّاً على المشركين الذين يزعمون أن لهم عمارة المسجد الحرام، فجاءت الآية؛ لتقول لهم: ليست العمارة ما تظنون، وإنما عمارة المساجد هي بالإيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الشعائر، وأداء الفرائض، فالآية الكريمة تقصر العمارة على المؤمنين، ولكنها لا تنفي عن المؤمنين أي نوع من أنواع العمارة في هذه الأرض، ولو أنه قيل: إنما يعمر

المؤمنون مساجد الله. لكان المعنى أن المؤمنين لا يعنون بشيء غير المساجد، فهم تقتصر عمارتهم عليها دون غيرها، وهذا معنى غير صحيح؛ لأن المؤمن ينبغي أن يعمر دنياه وآخرته.

أما النصان الآخران اللذان قُدِّم فيهما الفاعل: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [الأعراف:٣٣]؛ فلقد جاء رداً على الذين يحرِّمون على أنفسهم الطيبات من الرزق، والزينة الحلال، فجاءت لتقول لهم: إن ربنا لم يحرم هذا، بل حرم الفواحش وحدها، فما بالكم تحرمون ما أحلّ الله، وتحرمون ما أحل، ولو أنه قيل: إنما حرم الفواحش ربي. لكان المعنى: إن الفواحش حرّمها الله لا غيره. وكان هذا رداً على الذين يدّعون أنهم هم الذين حرموا الفواحش، وهذا غير مراد هنا.

أما قوله ﷺ : «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» ؛ فإنه جاء في شأن تحذير الأمة من الفرقة، وأمرها أن تكون موحدة الكلمة والوسائل والأهداف؛ فالتركيز فالحديث الشريف على القاصية، ولو أنه قيل: إنما يأكل القاصية الذئب. لكان التركيز على الفاعل، أي: أن الذي يأكل الذئب، وليس الضبع أو الأسد، ولا يعقل أن يقصد الرسول ﷺ هذا المعنى؛ لأن التركيز على المأكول، وأيّاً كان الآكل فلا يضيرنا.

تقدم الفاعل والمفعول في القصر قضية لها شأن، ولقد رأيت أن الاختلاف الكبير في المعنى بين الجمل السابقة جاء من تقديم الفاعل تارة، وتأخيره أخرى، ونكتفي بما ذكرناه، ونرجو أن يكون في ذلك الكفاية والغنية.

وهكذا دائماً؛ لا يذكر بعد (إنما) إلا المقصور.

أما الطريقة الثانية - وهي: (ما) و(إلا) - ؛ فإذا أنعمت النظر؛ وجدت أن المقصور عليه يذكر بعد (إلا)، فإذا قلت: ما المتنبي إلا شاعر. فإن المتنبي مقصور، والشاعر مقصور عليه. وإذا قلت: ما شاعر إلا المتنبي. فأنت قصرت الشعر على المتنبي، فالمتنبي مقصور عليه.

أما الطريقة الثالثة، فإذا كان العطف (لا)؛ كان المقصور عليه ما قبلها، تقول: جاء محمد لا خالد. فلقد قصرت المجيء على محمد. أحب الرياضيات لا الفيزياء. فالرياضيات هي المقصور عليه. أكرم الفضلاء لا العابثين.

أما إذا كان العطف بـ (بل) أو (لكن)؛ فالأمر على العكس من ذلك، فالمقصور عليه يكون بعدهما دائماً؛ تقول: ما جاء محمد ولكن خالد. لا أتقن الرياضيات بل الفيزياء. لا أهاب العدو البعيد ولكن ذوي القربى[1].

أما الطريقة الرابعة؛ فإذا تأملت أمثلتها: لله الأمر. على الله توكلنا. في الجدية النجاح. ترى أننا قصرنا النجاح على الجدية، وجعلنا الأمر لله وحده. المقدم هو المقصور عليه دائماً، والمؤخر هو المقصور.

**الخلاصة:**

إذا كان القصر بـ (إنما)؛ فإنه يليها المقصور.

وإذا كان بـ (ما) و(إلا)؛ يكون المقصور عليه بعد (إلا) غالباً.

وإذا كان العطف بـ (لا)؛ فالمقصور عليه يكون قبلها.

---

(١) الفرق بين (بل) و(لكن)، للإضراب، و(لكن) للاستدراك؛ هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن بل تأتي في النفي والإثبات؛ تقول: ما جاء زيد بل عمرو. وأكرمت زيداً بل عمراً. أما (لكن)؛ فيشترط أن يسبقها نفي أو نهي، فإذا جاءت في جملة مثبتة؛ لم تكن حرف عطف، ولذا لا يجوز أن تقول: جاء زيد لكن عمرو. وتعربها حرف عطف، بل تكون في هذا المثال ابتدائية، وعمرو مبتدأ، وخبره محذوف، أي: لم يجئ.

# الفصل الثامن

## الفصل والوصل

وسوف نتناول هذا الموضوع المهم ضمن أربعة مباحث رئيسة:

- المبحث الأول: مدخل وتعريف؛ يتضمن بعض الأمور التي لا بد من معرفتها قبل الغوص في دقائق هذا الموضوع.
- المبحث الثاني: أحوال الجمل.
- المبحث الثالث: مواطن الفصل.
- المبحث الرابع: مواطن الوصل.

المبحث الأول

## مدخل وتعريف

**تمهيد:**

إذ كنا في ما مضى لا نخرج في بحثنا عن الجملة الواحدة – كما رأيت – فإننا في هذا البحث سوف نخرج عما ألفناه، فلا نقتصر على الجملة الواحدة، بل سيكون بحثنا عن الجمل بعضها مع بعض؛ متى نصل إحداها بالأخرى؟ ومتى نقطعها عنها؟ إذ الفصل؛ ترك العطف بين الجملتين، والوصل؛ هو عطف الجملة على الجملة بأحد حروف العطف، وهو الواو.

ومن هنا احتلّ هذا الموضوع مكانة رفيعة في المباحث البلاغية، وكان له شأن عند البلغاء، ولكونه دقيق المسلك، لطيف المأخذ؛ جعله بعضهم حدّاً للبلاغة، وقصرها عليه؛ حينما سئل ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل. وتلك إشارة واضحة إلى العناية التي خُصّ بها هذا المبحث.

ويقيننا أن قضية الفصل والوصل من أبرز القضايا المرتكزة على الذوق البياني؛ لما لها من صلة بالمعنى المراد، فكم من متكلم أفسد معناه بالوصل، ولم يكن حقه كذلك، أو بالفصل، والموضع موضع وصل! لذلك لم تكن قضية الفصل والوصل وأمرهما أمر حرف تُرك تارة ووُجد أخرى، بل هو أمر يتعلق بالمعنى الذي لا يصلح إلا بالوصل حيناً، وبالفصل آخر.

لذا وجدنا كثيراً من الإشارات فيما كتب الجاحظ في «البيان والتبيين»، ثم نجدها على نطاق أوسع عند أبي هلال في «الصناعتين»، وفي هذه الإشارات نجد عناية الشعراء والأمراء والخلفاء بهذا الموضوع قبل عهد التدوين، وقبل أن تقعّد القواعد.

وهذه الإشارات؛ بعضها يتحدث عن الفصل والوصل بهذا العنوان الذي استقر فيما بعد، وبعضها يتحدث عن التطبيق العملي لهذا المبحث دون ذكر له باسمه وعنوانه؛ كما روي عن أبي بكر رضي الله عنه في الحادثة المشتهرة حينما قوّم أحدهم – وقد قال: لا، عافاك الله – فقال له: قل: لا، وعافاك الله.

**فضل عبدالقاهر:**

كان هذا المبحث – إذن – يعتمد على الذوق قبل أن توضع له القواعد والضوابط، ولا نرتاب بأن أول من أبان عن أسراره، وكشف عن أكمام أستاره، وأسعد بشذا أزهاره؛ كان الإمام عبدالقاهر – رحمه الله – في كتابه «دلائل الإعجاز».

ولم يكن فضل عبدالقاهر لحيازته قصر السبق فحسب، بل إن الإمام عبدالقاهر كان أغنى غناء وأكثر ثراء؛ بما جاء به من أمثلة ونصوص ذات صلة بالسليقة والحقيقة، السليقة اللغوية، وحقيقة البيان العربي.

**تعريف الفصل والوصل :**

الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف، أو الاستئناف، والتهدّي إلى كيفية إيقاع حرف العطف (الواو) في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها[1].

**أمور أساسية تعين على فهم موضوع الفصل والوصل:**

وقبل أن أحدثك عن مواطن الفصل والوصل؛ يجمل أن نقدم لذلك ببعض الأمور التي نرجو أن تجد فيها ما يسهّل عليك، وييسّر لك تذوق هذا المبحث واستيعابه.

أولاً: قبل البحث عن الجمل؛ نحدثك عن المفردات: إذا ذكرت عدة صفات لموصوف واحد، فقد تعددها دون حرف عطف، فتقول: يعجبني الطالب المجتهد، السخي، الذكي، نقي القلب، طاهر الذيل، عزيز النفس. وتعجبني الطالبة العفيفة،

---

(١) «علوم البلاغة»، للمراغي، (ص١٩٣).

الوقورة، المجتهدة، المبتعدة عن الشبهات. فأنت ترى أن هذه الصفات جميعاً؛ ذكر بعضها إثر بعض؛ دون أن يتوسطها حرف من حروف العطف.

ولكننا قد نجد أنفسنا مضطرين أن نوسط حرف العطف بين بعض الصفات، أو نجد أن ذلك يكون أحسن في النظم، وأجمل في الأداء، وفي الكتاب العزيز خير هاد، وأعظم معلم؛ اقرأ هذه الآيات:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥].

تأمل في الآيات الكريمة؛ تجد أن كل واحدة منها ذكرت فيها صفات متعددة، فالآيات الأولى ذكر فيها طائفة من أسماء الله تبارك وتعالى، ولكنها كلها جاءت دون حرف العطف، أما الآيات الأخر؛ فإنك ترى أن حرف العطف قد جاء في كل منها، وإذا نظرت إلى هذه الآيات الكريمة وجدت أن هذه الصفات منها ما هو مغاير بحسب الظاهر، فهي صفات متقابلة؛ كالأول والآخر، والظاهر والباطن، فإن هذه وإن كانت كلها لله تبارك وتعالى؛ إلا أن لكل منها معناه الخاص به، فالأول: الذي ليس قبله شيء، والآخر: الذي ليس بعده شيء، وكذلك الأمر والنهي، وهو ما جاء في الآية

الكريمة: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢]، فالصفات التي ذكرت في الآية الكريمة كلها سردت دون حرف عطف؛ إلا هاتين الصفتين: الأمر والنهي.

ومنها ما هو متضادٌ في الحقيقة والواقع؛ كالصفتين الأخيرتين في الآية الأخيرة، وهي قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ ؛ فإن جميع الصفات ذكرت على نسق واحد في الآية الكريمة: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ ؛ إلا الأخيرتين - كما رأيت - .

من هنا تدرك أن هذه الصفات؛ إن كانت متضادة أو متقابلة — سواء كان ذلك في الظاهر، أم على سبيل الحقيقة — فإنك تأتي بحرف العطف، وإلا فلا داعي لهذا الحرف؛ كما رأيت في الأمثلة السابقة.

وهكذا تستطيع أن تبني كلامك على هذه القاعدة؛ تقول – مثلاً – تبدي إعجابك بأحد أصدقائك: إنه طالب ومدرس. كما تقول: أعان الله فلانة، فهي بنت وأم، طالبة ومدرسة[1].

**ثانياً: إذا أردت أن تأتي بأحد التوابع، وهي:** النعت، والتوكيد، والبدل، وعطف البيان؛ لا يجوز أن توسط حرف العطف بين هذه التوابع والمتبوع؛ تقول: يعجبني الطالب المجتهد. وجاء الأستاذ نفسه. وأعجبتني الفتاة عفتها. رحم الله أبا حفص عمر. ولا يجوز أن نضع حرف العطف؛ فنقول: يعجبني الطالب والمجتهد.. وهذا من بدهيات العلم، وإنما أوردناه مذكّرين لما يُبنى عليه من قواعد في المبحث الذي نحن بصدده.

**ثالثاً: العطف يقتضي أمرين اثنين: التغاير والتشريك؛ فإذا قلت:** نجحت سعاد وفاطمة. فإن هذا العطف يدلُّنا على أن فاطمة غير سعاد، ولكنهما اشتركتا في أمر،

---

(١) وقد يؤتي بالواو بين صفات غير متضادة في الظاهر أو الحقيقة، وذلك مثل قول سبحانه: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ [الأحزاب:٣٥]، وذلك لهدف بياني، وهو العناية بكل صفة من هذه الصفات، وقد فصلت هذا في كتاب الإعجاز.

وهو النجاح، فإذا انتفى أحد هذين الأمرين - أعني: التغاير والتشريك - لم يحسن العطف.

أما أمر التغاير؛ إذ لا يصح عطف الشيء على نفسه أو على جزئه.

وأما أمر التشريك - ويسمونه الجامع - ؛ فلا بد منه كذلك، فلا نستطيع أن نجمع بين أمرين ليس بينهما نوع من الصلة، ألا ترى أنك لا تقول: جاء خالد والحجر. فإنه؛ وإن وجد أحد شرطي العطف - وهو التغاير - ؛ لكن انتفى الشرط الآخر، وهو الجامع.

رابعاً: حروف العطف التي ذكرها النحاة كل واحد منها له مع دلالته على العطف معنى آخر، فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب، و(ثم) للترتيب والتراخي، و(أو) للتخيير أو الشك، و(بل) للإضراب، و(حتى) للغاية، وبعض هذه الحروف للمفردات دون الجمل، وبعضها للجمل والمفردات معاً.

ولكن الواو وحدها من بين حروف العطف هي التي ليس لها أي معنى آخر؛ من هنا اختُصّت في مباحث الفصل والوصل، أما غيرها من الحروف؛ فلا يحتاج لكثير ذكاء؛ لأننا إذا أردنا التعقيب؛ جئنا بالفاء، أو التراخي؛ جئنا بـ (ثم)، أو الإضراب؛ جئنا بـ (بل)، أما الذي يدقُّ فيه المسلك، ويتسابق الأقران؛ فهو العطف بين الجمل بالواو.

**خامساً: الجمل قسمان:**

**١- جمل لها محل من الإعراب:** وهي الجمل التي تقع خبراً، أو حالاً، أو صفة، أو مفعولاً به، أو مضافاً إليها، أو جواباً لشرط جازم، أو التابعة لواحدة من هذه .

**٢- جمل ليس لها محل من الإعراب:** وهي الابتدائية، والمعترضة، وصلة الموصول، والاستئنافية، والتعليلة، والتفسيرية، والواقعة جواباً للقسم ولشرط غير جازم، أو التابعة لواحدة من هذه.

وكل هذا مفصل في علم النحو.

والفرق بين هذين النوعين؛ أن الجملة التي لها محل من الإعراب تسد مسد المفرد؛ فإذا قلت مثلاً: أبصرت الشمس تغرب، فإن جملة (تغرب)؛ جملة حالية، ويمكن أن يسد مسدها المفرد، فتقول: أبصرت الشمس غاربة. وهكذا تقول في الجملة الواقعة خبراً؛ مثل: المصباح ضوؤه منير.الحركة تقوي العضلات. فتقول: المصباح منير الضوء. الحركة مقوية للعضلات.

أما الجملة التي ليس لها محل من الإعراب؛ فليست كذلك، أي لا يسد مسدها المفرد.

وأكثر مباحث الفصل الوصل تعلق بالنوع الثاني.

## المبحث الثاني

# أحوال الجمل

الجملة مع الجملة ليستا شيئاً واحداً في جميع الأحوال، فقد يكون بين الجملتين اشتراك في المعنى، فتقع الجملة الثانية من الأولى كأنها هي أو جزء منها، فليس بينهما تغاير؛ لأن الثانية ليست أجنبية عن الأولى.

وقد يكون الأمر على العكس من ذلك، فنجد أن بين الجملتين تغايراً تامّاً؛ لا تمتّ إحداهما إلى الأخرى بأي نسب أو رابطة؛ من حيث المعنى، أو من حيث الصورة اللفظية.

وهنا نوع ثالث من الجمل؛ نجده وسطاً بين النوعين السابقين، ففي هذا؛ الجملة الثانية فيه ليست مماثلة للأولى، ولا مشاركة لها في معناها، ولا هي جزء منها؛ كما هو حال النوع الأول، وليست بعيدة عنها كل البُعد؛ لا رابطة بينهما ولا صلة؛ كما هو حال النوع الثاني، ولكننا نجد في هذا النوع تغايراً ومع هذا التغاير روابط وصلات ومعنى مشتركاً أو جامعاً؛ كما هي التسمية الاصطلاحية بين هاتين الجملتين وإليك الأمثلة لكل من هذه الأقسام:

**أمثلة النوع الأول :**

١- إنه تقي، إنه يقوم الليل.

٢- إنها ذات دين، إنها تلبس الجلباب.

٣- صاحبك وطني، إنه لا يفشي لأعدائه سرّاً.

٤- سناء ذكية، كانت الأولى في امتحانها النهائي.

الجملة الثانية في هذه الأمثلة الأربعة؛ إذا تأملتها؛ وجدت أنها ليست أجنبية عن الجملة الأولى، فإن قيام الليل في المثال الأول ليس أمراً مغايراً للتقوى، وكذلك لبس الجلباب في المثال الثاني، وكذلك المثالان الأخيران.

أمثلة على النوع الثاني:

١- خرجت من بيتي صباحاً. أصدق بيت في الشعر بيت لبيد.

٢- الجو السياسي ملبَّد بالغيوم. أغزل بيت في الشعر بيت جرير.

٣- العربية لغة الإيجاز والموسقة في اللفظ. الزنوج في أمريكا ينافحون لنيل حقوقهم.

إذا نظرت لهذه الأمثلة الثلاثة؛ تجد أن الجملة الثانية لا صلة لها مطلقاً بالجملة الأولى، فهي على النقيض تماماً من القسم الأول.

أمثلة على النوع الثالث :

١- الجاحظ كاتب، والمتنبي شاعر.

٢- الإيمان حياة، والكفر موت.

٣- الوحدة قوة، والتفرق ضعف.

هذه الأمثلة؛ كما ترى؛ الجملة الثانية فيها مغايرة للأولى، ولكنك مع ذلك ترى جامعاً بين الجملتين، فالعقل لا ينكر الصلة بين الكتابة والشعر، وبين المتنبي والجاحظ، وبين الإيمان والكفر، والحياة والموت.

ونذكرك بما بُيِّن لك من قبل، من أن العطف؛ حتى يكون في موقعه، ويحسن في موضعه، يتطلب أمرين اثنين: التغاير والاشتراك؛ كما سبق في المبحث الأول.

ولما كان النوع الأول من الجمل متماثلاً ليس بينه تغاير، وكان النوع الثاني متغايراً ليس بينه اشتراك؛ فإن العطف لا ينبغي، ولا يحسن؛ لأنه فقد في كل نوع من هذين أحد شرطيه، ففي النوع الأول لا تغاير، والعطف يقتضي التغير، وفي النوع الثاني ليس هناك اشتراك بين الجملتين، والعطف يقتضي الاشتراك.

العطف إذن لا يحسن إلا في النوع الثالث من الجمل، وذلك لتحقق شرطيه في هذا النوع.

قال الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله -: «... فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين، فاعرفه»[1].

يسهل عليك الآن - إذن - أن نحدد لك مواطن الفصل، ومواطن الوصل كذلك.

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص١٨٧).

## المبحث الثالث

# مواطن الفصل

**أول موجبات الفصل؛ كمال الاتصال:**

أن يكون بين الجملتين كمال اتصال، ويعنون بهذا الاصطلاح أن تكون الثانية متصلة بالأولى اتصالاً كاملاً تاماً، وهذا يندرج تحته صور متعددة:

**١- أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى:** والتأكيد – كما نعلم – هو تحقيق المعنى الذي دلّ عليه لفظ سابق بلفظ جديد، والدافع لهذا التأكيد دفع توهم التجوّز أولاً، ودفع توهّم الغلط ثانياً، وهذا أم قُرِّر في علم النحو.

وقد قرر النحويون أن التأكيد قسمان:

**أ- تأكيد لفظي:** ويكون بإعادة اللفظ نفسه: مثل: جاء جاء أخوك. اقرأ اقرأ كتاب الله. الوطنَ الوطنَ لا تفرط في حقه.

**ب- تأكيد معنوي:** وله ألفاظ مخصوصة، مثل: جاء القائد نفسه. ومنه قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] (١).

والتأكيد الذي نتحدث عنه هنا ليس هو الذي تحدث عنه علماء النحو، إنما هو أن تأتي الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى من حيث معناها. وإليك أمثلة على هذا النوع:

---

(١) لكل من هاتين الكلمتين (كلّهم) و(أجمعون) فائدة، فـ (كلّهم) تدل على الشمول، أي: لم يتخلف منهم واحد. و(أجمعون) تدل على اجتماعهم في السجود، أي: سجدوا مجتمعين في وقت واحد ولحظة واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، فإن قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ جاء تأكيداً لقوله سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ لأن معنى هذه الجملة: إنذارك وعدمه سواء. فجاءت الجملة الثانية مؤكدة هذا المعنى، مع زيادة تقرير له، وهو أنهم لا يؤمنون.

ومن بديع هذا القسم قوله سبحانه: ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف:٣١]، فإن قولهن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾؛ تأكيد للجملة التي قبلها: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، ونحن نعلم أننا حينما ننفي البشرية في شخص ما في حالة المدح والثناء، فليس معنى ذلك إلا أننا نُدخله في زمرة الملائكة.

ومما جاء في التنزيل كذلك: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ [لقمان:٧]، فإن قوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ يدل على عدم فائدته من الاستماع، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾؛ تأكيد لهذا المعنى، فيه زيادة تقرير، بما بيّنته من وجود الوقر في أذنيه.

ومن هذا قوله ﷺ: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله»[1]، فإن الجملة الثانية جاءت تأكيداً للجملة الأولى.

ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

أصونُ عِرْضي بمالي لا أدنِّسُهُ ... لا بارَكَ الله بعدَ العِرْضِ في المالِ[2]

فإن قوله: «لا أدنسه»؛ جملة فُصِّلت عن سابقتها؛ لأنها جاءت تأكيداً لها، فإن عدم التدنيس ليس إلا صون العرض.

---

(١) «سنن ابن ماجه»، باب: صفة الإمام، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٨٥٨).

(٢) «ديوانه» (ص١٩٠)، دار بيروت للطباعة والنشر.

ومنه قول المتنبي في ذلك:

وما الدَّهرُ إلا مِن رواةِ قصائدي إذا قُلتُ شِعراً أصْبَحَ الدَّهرُ مُنْشِدا[1]

فإن الجملة الثانية ليست إلا تأكيداً للجملة الأولى، فإن كون الدهر من رواة قصائده، ليس لها معنى إلا أنه ينشد شعره، وهذه هي مهمة الراوي.

**٢- ومن كمال الاتصال كذلك أن تقع الجملة الثانية بدلاً من الجملة الأولى:** وذلك لكونها أدل على الغرض، وأوفى بالمطلوب من جهة، وللعناية بشأنها من جهة أخرى.

وقد قسم النحويون البدل أقساماً كثيرة: البدل المطابق، وهو المسمى بدل الكل من الكل، وهذا لا يتحدث عنه البلاغيون. ولقد وهم الأستاذ المراغي صاحب علوم البلاغة رحمه الله حينما ذكره ومثّل له، وسننبهك له إن شاء الله.

والذي يعني البلاغيين قسمان فقط: بدل الاشتمال، وبدل بعض من الكل.

وقبل أن نمثل لهما؛ ننبهك إلى الفرق بين هذين القسمين، ففي بدل بعض من الكل، يكون المبدَل جزءاً من المبدل منه، فإذا قلت: أكلت الرغيف ثلثه. أعجبني الطفل وجهه. فإن الثلث داخل في مفهوم الرغيف، وإن الوجه داخل في مفهوم الطفل؛ لأننا لا نتصور طفلاً بدون وجه.

وأما بدل الاشتمال؛ فهو ما كان المبدل ليس داخلاً في مفهوم المبدل منه؛ كما تقول: أعجبني خالد رأيه. سرَّني عمر شجاعته. نفعني أحمد علمه. فإن كلاًّ من الرأي، والشجاعة، والعلم؛ ليست داخلة في مفهوم المبدل منه؛ لأننا يمكن أن نتصور خالداً وعمر وأحمد بدون هذه الأمور.

فمثال ما كانت الجملة الثانية فيه بدل بعض من كل: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:١٣٢-١٣٣]، فإن قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛

---

(١) «ديوان المتنبي» (٢/ ١٤).

جملة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها صلة الموصول، وقوله: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴾؛ بدل منها؛ لأن الأنعام والبنين من جملة ما تعلمون، وإنما خصّها ونص عليها هنا للعناية بشأنها؛ لكونها أدل على المقصود، وألزم للحجة، وكونها أوفى بالغرض المقصود من الآية.

ونعد من هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٩]؛ لأن تذبيح الأبناء جزء من سومهم العذاب، وهو أدل على المقصود من الامتنان بالنعمة[1].

أما بدل الاشتمال؛ فقد مثلوا له بقوله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس:٢٠-٢١] فقوله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ ؛ بدل من قوله: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وإنما ذكرت هذه الجملة البدلية؛ لأنها أوفى بالغرض من حيث ما تحمله من ترغيب على الاتباع؛ لأن اتباع المرسلين الذين لا يسألون أجراً، فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم.

وإنما كان هذا بدل اشتمال؛ لأن عدم سؤال الأجر ليس داخلاً في مفهوم الرسالة، فإن مفهوم الرسول من أرسل لتبليغ الناس رسالة الله.

ومن هذا قول الشاعر:

---

(١) جاء في آية كريمة: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [إبراهيم:٦]، وهذه الآية جاءت حديثاً على لسان موسى عليه السلام ، والآيات التي جاءت بدون الواو امتنان من الله تبارك وتعالى، ومجيء الواو - كما في سورة إبراهيم - يدل على أن كلاً من السوم والتذبيح أمر مستقل بذاته، وهو المناسب لذكر النعمة التي ذكّر بها موسى عليه السلام قومه. وذهب بعض الكاتبين إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ ؛ عطف بيان، وليست بدلاً.
وقد فصلت لك هذا في كتاب «الإعجاز» .

أقـولُ لـهُ ارْحَـلْ لا تُقـيمَنَّ عنـدَنا وإلا فكُنْ في السرِّ والجَهْرِ مسْلِما[١]

فإن قوله: «لا تقيمنَّ»؛ بدل اشتمال من قوله: «ارحل» ، وهي أدل على المعنى؛ لأن الرحيل يشتمل على عدم الإقامة.

٣- أن تكون الجملة الثانية عطف بيان للأولى: وبين البدل وعطف البيان تشابه[٢] ، وبينهما فروق كذلك ذكرت في علم النحو، إلا أنَّا نذكرك هنا أن عطف البيان ليس هو المقصود بالحكم كالبدل، المقصود هو المبيّن، ولكن عطف البيان جاء توضيحاً وزيادة في البيان فحسب.

والمثال الذي يذكرونه لعطف البيان قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، فإن قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾؛ عطف بيان لقوله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ﴾ ، جاءت لبيان الوسوسة وتوضيحها، لكن المقصود هو الوسوسة التي كانت من إبليس لآدم عليه السلام .

ومن هذا القبيل قول المعري:

النَّـاسُ للنَّـاسِ مِـن بَـدْوٍ وحاضِـرةٍ بعضٌ لـبَعْضٍ وإنْ لَمْ يَشْعُروا خَـدَمُ

فإن قوله: «بعض لبعض» ؛ بيان لقوله: «الناس للناس» .

وعدُّوا من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]؛ فجعلوا قوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ؛ بيان لقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

---

(١) «خزانة الأدب» (٨/ ٤٦٣)، «حاشية الأشموني» (٣/ ١٣٢)، «المعاهد» (١/ ٩٤)، «شرح شواهد المغني» (١/ ٣٠٠)، والبيت لم يعرف قائله.

(٢) إذا قلت: قام زيد أخوك. (أخوك)؛ يجوز أن تكون بدلاً، أو عطف بيان، والفرق بين الإعرابين فرق دقيق يحتّمه المعنى، فإذا كان المقصود زيداً؛ كانت (أخوك) عطف بيان، أما إذا كان المقصود أخاك؛ فإنه يعرب بدلاً.

**ثاني موجبات الفصل: شبه كمال اتصال:**

ومعنى هذا أن تأتي الجملة الثانية جواباً عن سؤال فُهِم من الجملة الأولى، وهذا هو الغالب الأكثر، وقد يكون السؤال مذكوراً صراحة في الجملة الأولى، وهذا كثير في كتاب الله تعالى، وفي كلام سيد البلغاء ﷺ، وفي الكلام الجيد.

فمن ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، فإن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ إنما جاءت جواباً عن سؤال فُهِم من قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾، كأنه قيل: ولم لا تبرئ نفسك – إن كان الكلام ليوسف –؟ أو: لم لا تبرئين نفسك – إن كان الكلام لامرأة العزيز –؟.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:٨١-٨٢]، فقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾، جاء جواباً عن سؤال مفهوم من الجملة الأولى: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ كأنه قيل: وماذا قال الأولون؟ فجاءت في الجملة الثانية جواباً عن هذا السؤال.

وقد ذهب الأستاذ المراغي – رحمه الله – إلى عدِّ هذا من البدل المطابق، أي: بدل الكلم من الكل، وليس الأمر كذلك.

ويلوح لي أن من هذا الباب قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة:٧]، بعد قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، فكأن سؤالاً فُهِم من الجملة الأولى: ما بالهم لا يؤمنون والنبي ﷺ هو الذي ينذرهم؟! وهل هناك أبلغ من إنذار النبي؟! فقيل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

فانظر إلى هذه الآيات الكريمة، وكيف أن كل آية مفصولة عن سابقتها؛ لأن كل آية تحمل في أثنائها سؤالاً تتشوف النفس إليه، وتتشوق إلى معرفته، فتجيء كلٌّ جواباً عن هذا السؤال المقدر، ويسمى هذا النوع استئنافاً بيانياً.

وقد قسم العلماء الاستئناف إلى قسمين:

١- الاستئناف النحوي: وهو كلام منقطع عن غيره، وإن شئت قلت: ما كان مبتدأ به. فالجملة الاستئنافية عند النحويين قريبة من الجملة الابتدائية، تأتي مقترنة بالواو وغير مقترنة بها، ومثال الجملة الاستئنافية غير المقترنة بالواو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، بعد قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ومثال الثاني: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر:٩]، وهو كثير، والجملة الاستئنافية - كما مر معنا - لا محل لها من الإعراب.

ب- الاستئناف البياني: وهو ما كانت الجملة فيه جواباً عن سؤال مفهوم من الجملة الأولى.

وسمي الأول نحوياً؛ لأن بحثه في علم النحو، وسمي الثاني بيانياً؛ لأنه هو الذي يعني علماء البلاغة، وهذا هو الذي نتحدث عنه هنا، وقد عرفت كثيراً من أمثلته قبل قليل.

**ثالث موجبات الفصل: كمال الانقطاع:**

من موجبات الفصل أن يكون بين الجملتين كمال انقطاع، وهذا له صورتان اثنتان:

١- أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً.

٢- أن تتفقا، ولكن ألا يكون بينهما جامع ولا رابط.

فمثال الصورة الأولى قول الأخطل[1]:

---

(١) غياث بن غوث بن الصلت المقلب بالأخطل، شاعر نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، كانت إقامته طوراً في دمشق؛ مقر الخلفاء من بني أمية، وحيناً في الجزيرة؛ حيث يقيم بنو تغلب، توفي سنة (٩٠هـ).

وقـــالَ رائِـــدُهُمْ أَرْسُـــوا نُزَاوِلُهـــا فكُلُّ حَتْفِ امْرِئٍ يَجْرِي بِمِقْدارِ[1]

فقوله: «أرسوا» ؛ جملة إنشائية، «ونزاولها» ؛ خبرية. والضمير للسفينة.

ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فـ ﴿ وَأَعِدُّواْ ﴾؛ جملة إنشائية، و ﴿ تُرْهِبُونَ ﴾ ؛ جملة خبرية.

وقال أبو العتاهية:

يـــا صـــاحِبَ الـــدُّنْيا المُحِبَّ لهـــا أنْـــتَ الـــذي لا يَنْقَـــضي تَعَبُـــهُ[2]

فإن الجملة الأولى إنشائية – وهي: «يا صاحب الدنيا» – وإن الثانية خبرية – وهي: «أنت الذي لا ينقضي تعبه».

ولا فرق في هذا بين أن تكون الجملة إنشائية لفظاً ومعنى – كما مر – أو تكون إنشائية معنى، خبرية لفظاً؛ كقولك: ذهب المخلصون رحمهم الله. فإن الجملة الأولى خبرية. وإن الجملة الثانية – وهي: «رحمهم الله» – وإن كانت خبرية من حيث اللفظ، ولكنها إنشائية من حيث المعنى.

وأما الصورة الثانية – وهي اتفاق الجملتين خبراً أو إنشاء، ولكن دون أن يكون بينهما جامع – ؛ فيمثل لها بقول الشاعر:

إنمـــا المَـــرْءُ بأصـــغَرَيْهِ كُـــلُّ امـــرِئٍ رَهْـــنٌ بمـــا لَدَيْـــهِ

وكذلك قولك: العمل مقياس السعادة، المعدن يتمدد بالحرارة. هذا في الجملتين الخبريتين.

---

(١) «معاهد التنصيص» (١/ ٢٧١).

(٢) «أبو العتاهية أشعاره وأخباره» (ص٤٤).

أما الجملتان الإنشائيتان؛ فكقولك: احترس من عدوِّك، كل مما يليك. فأنت ترى أنه لا جامع بين هذه الجمل، ومن هنا وجب الفصل؛ لأن بينهما كمال انقطاع.

**رابع موجبات الفصل: شبه كمال الانقطاع:**

من موجبات الفصل أن يكون بين الجملتين شبه كمال انقطاع، وذلك أن تكون هناك جملة مسبوقة بجملتين، يجوز عطفها على الأولى منهما، ولا يجوز عطفها على الثانية، فتترك العطف؛ حتى لا يُتوهَّم عطفها على الجملة القريبة منها، وقد مثلوا لهذا بقول الشاعر:

وتَظُنُّ سَلْمى أنَّني أبْغي بها بَدَلاً أراها في الضَّلال تَهيمُ(١)

ففي هذا البيت ثلاث جمل: الجملة الأولى: «تظن سلمى»، والجملة الثانية: «أنني أبغي بها بدلاً»، والجملة الأخيرة: «أراها في الضلال تهيم».

ولا مانع من أن تعطف هذه الجملة الأخيرة على الجملة الأولى، حيث يصير المعنى: تظن سلمى، وأراها هائمة في الضلال.

ولكن الذي لا يجوز؛ عطفها على الجملة الثانية – وهي قوله: «أبغي بها بدلاً» – فإن المعنى لا يستقيم على ذلك؛ لأنه يؤول إلى أن سلمى تظن به أمرين اثنين: أولاً: أنه يبغي بها بدلاً. والثاني: أنه يراها في الضلال تهيم. فتكون الجملة الأخيرة من مظنونات سلمى، وهذا لا يقصده الشاعر.

**خامس موجبات الفصل: التوسُّط بين الكمالين:**

يجب الفصل إذا كان الوصل يخل بالمعنى، وهو أن لا نقصد تشريك الجملة الأخيرة مع ما قبلها؛ لأن التشريك يغير المعنى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥]، فإنه لو عطف

---

(١) «معاهد التنصيص» (١/ ٢٧٩)، وقال: لا أعرف له قائلاً.

هذه الجملة: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ؛ لكان هذا من قول المنافقين، ويصير المعنى: إن المنافقين إذا خلو إلى شياطينهم؛ قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون. وقالوا: إن الله يستهزئ بالمؤمنين كذلك. مع أن الجملة الأخيرة إنما هي تعقيب على قولهم، فهي من قول الله تبارك وتعالى، وهذا يختلف عن قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]، فإن الجملة: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ عطفت على ما قبلها؛ لأن الجملتين كلتيهما من قول الله تبارك وتعالى.

هذا ما ذهب إليه الشيخ عبدالقاهر رحمه الله.

وذهب الزمخشري – رحمه الله – في «الكشاف» مذهباً آخر، حيث رأى أن ترك العطف هنا للاستئناف، ومعنى الاستئناف أنه جواب عن سؤال مقدر، كأنما قيل: فما جزاؤهم على هذه الأفعال الشنيعة والأقوال البذيئة؟! فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾.

ولا حرج في هذا، فلقد عرفت أن النص الواحد يمكن أن يعلل بأكثر من علة واحدة؛ لاختلاف الأفهام.

تلك هي أهم مواطن الفصل، ويمكنك أن تحاول الإفادة منها، مراعياً ذلك عند حديثك أو كتابتك.

## المبحث الرابع

# مواطن الوصل

**أولاً: اتفاق الجملتين خبراً وإنشاءً:**

عرفت أن الفصل بين الجملتين قد يكون لما بين الجملتين من اتصال تام، أو شبهه، أو انقطاع تام، أو شبهه.

الوصل إذن إنما يأتي في حالة وسط، وقد عرفت أن العطف يقتضي أمرين: التغاير والتشريك، فإذا كانت الجملتان متغايرتين معنى، متفقين خبراً وإنشاءً، فإنه يجب الوصل.

فمثال الخبريتين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، وقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، وسبحان الله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن، حجة لك أو عليك»[(١)].

ومثال الإنشائيتين قوله سبحانه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد:٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣]، وقوله ﷺ: «اتَّق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب: فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، ورواه أحمد بن حنبل، (٥/ ٣٤٢).

(٢) رواه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، رقم (١٩٨٨).

ومما اجتمع فيه الخبر والإنشاء قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٧٥-٧٦]، فانظر إلى الإنشائيتين في قوله تعالى: ﴿ أَخْرِجْنَا ﴾، ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا ﴾، وإلى الخبريتين في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

ثم إن الجملة الإنشائية قد تكون لفظاً ومعنى؛ كما مر، وقد تكون إنشائية معنى خبرية لفظاً، وذلك في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة:٨٣]، فإن قوله سبحانه: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾؛ جملة خبرية لفظاً، لكنها إنشائية معنى، بمعنى: لا تعبدوا إلا الله. ولهذا عطف عليها قوله سبحانه: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾، أي: وأحسنوا إحساناً. فكلتا الجملتين إنشائية.

**ثانياً: كون الفصل مخلاً بالمعنى:**

وهناك سبب آخر من أسباب الوصل، وهو أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً، فيكون بينهما كمال انقطاع، وهنا يجب الفصل - كما عرفنا من قبل - ولكن قد يكون هناك مانع من الفصل؛ لأنه يترتب عليه إخلال في المعنى.

يسألك سائل: هل خرج صاحبك من المستشفى؟ ويسألك صاحبك: هل تريد مني شيئاً؟ فتقول للأول: لا، وعافاه الله. وتقول للثاني: لا، وبارك الله فيك. فقولك: «لا» ؛ جملة خبرية؛ لأن التقدير: لا أريد شيئاً، ولم يخرج من المستشفى. وقولك: عافاك الله، وبارك الله فيك. جملتان إنشائيتان؛ لأن المقصود بهما الدعاء، وقد علمت أنه إذا اختلفت الجملتان وجب الفصل، لكنك لو قلت: لا، عافاه الله. لا، بارك الله فيك. لأوهم ذلك الدعاء عليه، وأنت لا تقصد ذلك، ونفياً لهذا الوهم جيء بهذه الواو.

ولهذا؛ فإن علماء البلاغة يسمون هذا كمال الانقطاع مع الإيهام، ويعنون بأن كمال الانقطاع إذا كان بين الجملتين يجب الفصل، إلا إذا كان هناك إيهام بتغيير المعنى؛ فإنه يجب الوصل.

**تطبيق وتمثيل:**

بعد أن عرفت محسنات الفصل والوصل، يحسن بنا أن نذكر لك بعض النصوص، وندرسها دراسة تطبيقية:

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٤-٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦].

هذه النصوص الكريمة تأملها جيداً؛ ستجد فيها شواهد للفصل والوصل معاً.

النص الأول؛ إذا تأملته وجدت فيه فصلاً ووصلاً، فأنت ترى أن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ جاءت مفصولة عن سابقتها، ولا يخفى عليك أن هذا

الفصل كان له ما يسوغه ويقتضيه؛ لأنها جاءت جواباً عن سؤال مقدر في الأولى، كأنه قيل: ولم استحق أولئك جنهم؟ ولم ذرئوا لها؟ فقيل: لهم قلوب لا يفقهون بها.

أما الجمل الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ ﴾، و﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ ﴾؛ فإنها مشابهة للأولى من حيث الخبرية، مشتركة معها في الحكم.

أما قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾؛ فإنما جاءت مفصولة عن سابقتها؛ لأنها تأكيد لها، فإنهم ما داموا لا يستفيدون من هذه الجوارح التي أنعم الله بها عليهم - وهي القلوب، والأعين، والآذان - فليس معنى هذا إلا أنهم كالأنعام.

ولعلك تتساءل هنا عن مجيء العطف تارة، وتركه تارة؛ مع تماثل الجمل، في مثل قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؛ وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾، فقد جاءت الواو في إحداهما، وتُركت في الأخرى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾؛ حكاية عن ثمود لنبيهم صالح عليه السلام، وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾؛ حكاية عن مدين لنبيهم شعيب عليه السلام.

وسبب هذا الاختلاف في النظم - والله أعلم - أن قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؛ تختلف فيه الجملة الأولى عن الثانية؛ لأن كلاً منهما جزاء خاص، فهم على هدى من ربهم أولاً، وفي هذا تصحيح لمسيرتهم، وهم مفلحون ثانياً، وفي هذا تحقيق للغاية والنتيجة الطيبة التي حصلوا عليها.

أما قوله سبحانه في الآية الثانية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾؛ فإن الجملة الثانية لا تختلف عن الأولى، فهي تأكيد لها؛ لأن كونهم

كالأنعام لا معنى له إلا أنهم غافلون، ولو أن هذه الجملة وصلت، فقيل: وأولئك هم الغافلون. لأدى هذا إلى معنى غير صحيح، وهو أن الأنعام ليس من صفاتها الغفلة.

أما الآيتان في سورة الشعراء: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾؛ حيث فصل إحداهما عن سابقتها، ووصلت الثانية، فلأن معنى المسحر في الآية الأولى هو الذي له رئة يأكل ويشرب[1]، يقولون: ما نراك إلا ذا رئة؛ تأكل وتشرب، وهذا وصف له بالبشرية؛ لهذا جاء عقبه: (ما أنت إلا بشر مثلُنا)، فإن هذه الجملة جاءت تأكيداً لما قبلها، وأما الآية الثانية؛ فمعنى كلمة مسحّر؛ المسحور وهذا يختلف معناه عن معنى الجملة التي بعدها، وهي أنه بشر؛ لذا وصلت الثانية بالأولى؛ لأن لكل منهما معنى[2].

أما قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾؛ فإن العطف جاء بين جملتين خبريتين؛ بينهما جامع، وقد فصل عنهما ما بعدهما – وهو قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ عما قبله؛ لأنه جملة إنشائية.

---

(١) ومنه قول السيدة عائشة – رضي الله عنها – «توفي الرسول ﷺ وهو بين سحري ونحري» . «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (٦/ ١٢١).

(٢) ارجع لكتابنا إعجاز القرآن الكريم، فقد شرحت الفرق بين نظم الآيتين وبينت أسراره مفصلاً وليس على عجل، كما اقتضاه المقام هنا.

# الباب الثاني

## علم البيان

# الباب الثاني

## علـم البيـان

**تمهيد:**

**البيان تعريفه وتطوره:**

وردت كلمة البيان ومشتقاتها كثيراً في كتاب الله تعالى، وفي سنّة الرسول ﷺ.

فعليّ حين نقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٧]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [البقرة:٢٦٦]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] فالمبيِّن في هذه الآيات هو الله تعالى – نقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]. ونقرأ ثالثاً قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٨٧]. وفي آية أخرى نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥].

والمعنى المتبادر لهذه الآيات جميعاً هو الظهور والكشف والإيضاح، فالله تبارك وتعالى يبين آياته للناس، فيوضحها ويكشفها، فلا يبقى فيها أي خفاء، والنبي ﷺ يبين ما نزّله الله فيشرحه، ويرشد إلى ما فيه من أسرار ودقائق، وقد يكون هذا البيان من الرسول ﷺ توضيحاً لمبهم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تقييداً لمطلق، وقد يكون غير ذلك مما ذكر في موضعه.

والذين أُخذ عليهم الميثاق من أهل الكتاب كان لا بد أن يُظهروا للناس أحكام الله من غير تحريف أو تبديل، والذين سكنوا في مساكن الظالمين اتضح لهم الأمر، وظهرت لهم النتائج، وتأصلت في نفوسهم القناعات بما حدث للسابقين.

فالبيّنة: كما يقول الراغب[1]: (هي الدلالة الواضحة حسيّة كانت أو عقلية).

وهو ما اختُص به الإنسان. قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن:١-٤].

ونظن أن أول من توسع في هذه الكلمة، وبسط معانيها، أبو عثمان الجاحظ، ألم يسمِّ أعظم كتبه وأكثرها شهرة «البيان والتبيين»؟ . فقد عرّف البيان - تارة - تعريفاً عاماً بقوله: «إنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته ويلم بما فيه» . وتارة قوله: «إنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي» . وبيّن أن هذه الدلالة لا تنحصر في القول؛ بل إنها تكون بخمس طرق؛ فقد تكون هذه الدلالة باللفظ، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بالخط، أو العقد أو الحال.

ثم ينقل لنا بعض التعريفات الخاصة، فيذكر ما قاله جعفر بن يحيى: «أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، مع السلامة من التكلف والتصنع والتعقيد» . ويعلق الجاحظ على هذا التعريف، بأنه منسجم مع ما قاله الأصمعي في تعريف البليغ، بأنه «من طبّق المِفْصَل، وأغناك عن المُفسِّر» .

وندرك مما سبق، أن كلمة البيان أصبحت مرشّحة، كي يراد منها اتجاه خاص في القول، ولعل هذا الاتجاه كان أول ما أشار إليه الحديث النبوي «إن من البيان لسحراً».

---

(١) المفردات، ص٦٨.

ولا يفوتنا هنا مقارنة الجاحظ بين تعريف جعفر بن يحيى للبيان، والأصمعي للبليغ، بأن كلمة (البيان) كانت مرادفة لكلمة (بلاغة)، وهذا ما يكاد يُجمع عليه القوم، وهذا كذلك ما استمر إلى عصر الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - فكانت كلمات البراعة والبلاغة والفصاحة والبيان والبديع ألفاظاً ذات مدلول واحد مع اختلاف طفيف نجده بين كاتب وآخر، وقد ذكر عبدالقاهر في الدلائل أن أرسخ العلوم أصلاً هو علم البيان.

وهو لا يقصد بعلم البيان هنا المصطلح الذي استقر عليه الأمر فيما بعد، وإنما يعني به البلاغة بعامة، ومن بعد عبدالقاهر جاء الزمخشري - رحمه الله - وهو أول من فصل علم البيان عن غيره من المباحث البلاغية وبخاصة علم المعاني، ولكننا مع ذلك لم نعثر على تعريف محدد عند الزمخشري لهذا العلم.

وبقي الأمر كذلك إلى أن استقرت البلاغة وأصبح لها مفاهيمها المحددة المنضبطة، حيث أصبح علم البيان له شخصيته المستقلة وأبحاثه المتميزة، وموضوعاته الخاصة، فمجاله الصورة التي يبدعها المتكلم، فيصور بها المعنى الذي يريد.

تلك عجالة لتاريخ هذه الكلمة وتطورها، إلى أن غدت علماً مستقلاً، وفناً له أثره الخلاب.

**فائدة علم البيان:**

ومما هو جدير بالعناية، وحريّ أن يقدم على غيره، حتى يكون بحثنا على أسس ثابتة؛ الحديث عن فائدة هذا العلم، والثمرة العملية المرجوة منه، ولعل مما يُعيننا على ذلك إن شاء الله، ومن الله وحده العون؛ أن نرجع بك قليلاً إلى علم المعاني.

فلقد عرفت أن علم المعاني هو علم النظم، وهذا النظم لا بد له من خطوتين اثنتين:

**أولاً:** ترتيب المعاني في نفسك لتكون منسجمة مع ما تريد أن تتحدث عنه، سواء كان هذا الحديث لنفسك أم لغيرك.

ثانياً: ترتيب الألفاظ في نطقك، وهذه ناشئة عن التي قبلها.

علم المعاني - إذن - هو مطابقة ما على اللسان لما في النفس، وهذه قضية تعتمد أول ما تعتمد على الفكر، ولكن الإنسان ليس فكراً وحده، فلقد أراد الله له أن يكون له مع الفكر عاطفة، ومع العقل وجدان، ومع المنطق أحاسيس ومشاعر، ولعلك الآن بدأت تدرك وظيفة علم البيان. فإذا كان علم المعاني يعتمد أول ما يعتمد على الفكر الذي تطابق به بين ما رتبته في نفسك وما ينبغي أن ترتبه في نطقك، فإن علم البيان، هو ذلك العلم، الذي يُحدث أثراً في نفسك، ويسمو بعاطفتك، ويرهف حسك.

ولا بد للبلاغة من هذين الركنين: أن يكون الكلام متلائماً مع أوضاع المخاطبين، وأن يكون مؤثراً في النفس حتى تتفاعل معه وتتجاوب. فالركن الأول: وظيفة علم المعاني، والركن الثاني: مهمة علم البيان.

علم البيان - إذن - علم الصورة البديعة، التي من شأنها أن تهز أعطاف النفس، ونحن لا نريد أن نفاضل بين العلمين إذ لا غناء بأحدهما عن الآخر، وإن كانت قضية النظم أدقّ مسلكاً، وأدلَّ على الإعجاز، إلا أن علم البيان أدع للتأثير، وأدنى إلى العاطفة.

يمكنك بعد الذي قدمته لك، أن تدرك أن علم البيان، هو العلم الذي تستطيع بوساطته وبمعرفته أن تؤدي المعنى الواحد الذي تريد تأديته بطرق مختلفة من اللفظ، بعضها أوضح من بعض، وإن شئت فقل: بعضها أكثر تأثيراً من بعضها الآخر، ولكن حذار أن تهمل جانب النظم، فإن الكلام الفصيح البليغ إما أن يرجع إلى النظم وحده، وإما أن يرجع إلى اللفظ وذلك لما فيه من صور بديعة، وتراكيب مؤثرة كالاستعارة والكناية وغيرهما[1].

---

(١) دلائل الإعجاز ص١١٤.

علم البيان، هو علم الصور الكلامية المؤثرة، ولا ريب أن الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلامية أم الصور الحسية، فهناك الصورة التي تروقك وتعجبك، وهنا الصورة التي تُستكره وتُستبشع، ولكن ثالثة تصل إلى أعماق نفسك، بل تهز هذه النفس هزة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصور في تحسين صورته، يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين، فالصورة الجيدة المؤثرة لا بد لها من خيال خصب، وعاطفة مشبوبة، وإحساس مرهف، وذهن ثاقب يشترك فيهما المصوِّر والمصوَّر له على السواء. وكما يصدق هذا على الصورة الحسية، يصدق على الصورة الكلامية كذلك.

ومن أقوالهم: «فلانٌ كثيرُ الرماد»، ويقولون: «فلانٌ إذا قُدِح لا يُصْلَد» يريدون أنه كالزند الذي يقدح فيُري. هذه الأقوال – وغيرها كثير – تدور حول معنىً واحد وهو الكرم، ولكنك تجد بعضها أوضح من بعض، وهكذا كل معنى تريد التعبير عنه، وربما تجد المعنى الجيد لم تتح له الصورة الجميلة، فلا يروقك ولا يستهويك، وربما تجد المعنى المبتذل أتيحت له الصورة الجيدة فيروقك ويستهويك، وذلك كثير؛ ألا ترى إلى قول ابن الأنباري[1] في رثاء ابن بقية حين صلبه عضد الدولة:

عُلُــوٌّ في الحَيَــاةِ وَفي المَمَــاتِ ... لَحَـقٌّ تِلْـكَ إحْـدى المُعْجِـزَاتِ

كـأنَّ النـاسَ حَوْلَـكَ حِيْـنَ قـاموا ... وُفُـودُ نـداك أيَّـامَ الصِّـلاتِ

كأنَّـكَ قـائِمٌ فـيهم خَطيبـاً ... وكُلُّهُـمُ قِيـامٌ للصَّـلاةِ

وما كانت إلا وصفاً لمصلوب، وذكر فيها من التشبيهات والأوصاف البديعة والصور التي تختلب الآذان، وتجتلب الأذهان، ما جعل بعض الأمراء يتمنى أن يكون مكان ذلك المصلوب، الذي قيلت فيه تلك القصيدة، وهذا كثير في الأدب العربي.

علم البيان – إذن – بحاجة إلى معرفة، واطلاع على تراثنا وثروتنا الأدبية، وإذا نظرت إلى الأمثلة التي ذكرتها لك – من قبل – وجدتها قد اختلف قائلوها زماناً

---

(١) ديوان المعاني ٢/١٧٩، اليتيمة ٢/ ٣٤٤، ٣٤٥، نداك: كرمك، الصِّلات: الهبات والعطايا.

ومكاناً، وهذا يحتم عليك – كما قلت – أن تشحذ من عزيمتك، وأن تعلو همتك لاقتناص هذه الدرر من مظانها.

وإذا عدت إلى الأمثلة السابقة وفكرت فيها ملياً تجد أنها لا تخلو عن ثلاثة ألوان من القول. فبعضها تشبيه وبعضها مجاز وبعضها كناية.

أما الفرق بين هذه الألوان فذلك ما يتكفل لك به هذا العلم أو الفن، ولذا يمكننا أن نحصر الحديث عن هذا العلم في أبواب ثلاثة ولكل فصوله ومسائله:

- الفصل الأول: التشبيه.
- الفصل الثاني: المجاز.
- الفصل الثالث: الكناية.

# الفصل الأول

## التشبيه

التشبيه كما يدل عليه الأصل اللغوي لهذه الكلمة هو: «الدلالة على مشاركة أمر لأمر» وإن شئت قل: «هو إلحاق أمر بأمر بأداة التشبيه لجامع بينهما».

وترى من هذا التعريف أن هناك أمرين ألحقنا أحدهما بالآخر أو شارك أحدهما الآخر، وأن هناك معنى جمع بين هذين الأمرين، وأداة ربطت أحدهما بالآخر، تلك أمور أربعة وهي التي سمّوها أركان التشبيه، فالأمران هما: المشبه والمشبه به، والرابط بينهما هي أداة التشبيه، والمعنى الذي اشترك الأمران فيه وجُمع بينهما من أجله هو وجه الشبه، فإذا قلت: «أخلاق عليٍّ كالنسيم في الرقة»، فإن هذا تشبيه اشتمل على هذه الأركان الأربعة، لأنك شبهت الأخلاق بالنسيم، فالأخلاق مشبّه، والنسيم مشبّه به، والأداة: هي الكاف، أما المعنى الجامع بين المشبه والمشبه به: فهي الرقة وتسمى: وجه الشبه.

**أركان التشبيه إذن هي:** المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، ولكن هذه الأركان ليست سواء فبعضها يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه معلوم للنفس، لا تجد النفس في تقديره صعوبة ولا حرجاً، بينما لا يمكن الاستغناء عن بعضه الآخر، فالذي يمكن الاستغناء عنه من أركان التشبيه: الأداة، ووجه الشبه، فيمكنك أن تقول في التشبيه السابق: «أخلاقُهُ نسيمٌ» وإذا قلت: «عليٌّ كالأسدِ في الشجاعة»، و«فاطمة كالشمس في البهاء»، و«عزمُه كالسيف في المضاء» فإنك في هذه يمكن أن تستغني عن الأداة ووجه الشبه فتقول: «عليّ أسدٌ»، «فاطمة شمس»، «عزمه سيف»، وسموا هذا: التشبيه البليغ وهو ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

أما الركنان الآخران وهما: المشبه والمشبه به، فلا يمكن الاستغناء عن واحد منهما، فهما طرفا التشبيه، فإذا حُذف أحدهما خرج الكلام عن كونه تشبيهاً وأصبح من باب الاستعارة كما ستعرفه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

**التشبيه بين الوسيلة والغاية:**

توهم عبارات كثير من الكاتبين بأن التشبيه ليس إلا وسيلة يتوصل بها إلى معرفة الاستعارة، لأن معرفة الاستعارة مبنية عليه، ومع تقديرنا لهذا القول من الناحية العلمية، ومن حيث صحة نتائجه، إلا أننا لا يمكننا أن نسلّم لأولئك بكل ما قالوه فالتشبيه في الواقع ليس فقط وسيلة نتوصل به إلى بحث آخر، إنما التشبيه كغيره من أساليب القول وفنونه جيء به ليؤديَ رسالة ذات أثر، وليحقق أغراضه النفسية والنفيسة المقصودة من علم البيان، فهو من هذه الناحية لا يقل عن الاستعارة أو الكناية، بل نظن أن الأثر الذي يُحدثه التشبيه في النفس ربما يزيد على ما يُحدثه غيره من الأساليب، ذلك أن المجاز والكناية لا تدركهما النفس بيسر وسهولة، أضف إلى ذلك أن التشبيه يمكن أن يكون أوسع دائرة من حيث الجمهور الذي يتأثر به، ولأمر ما كثُرَ في كلام الله تعالى وكلام نبيه ﷺ ، وفي الكلام البليغ للأقدمين والمحدثين على السواء، بل تجده في غير الكلام البليغ مما هو وليد البيئات المتعددة، وإنك لواجدٌ في كلام العاديين من الناس تشبيهات رائعة إذا وضعت لها القوالب المقبولة كانت ذات أثر وشأن.

التشبيه، ليس إذن وسيلة نتوصل ونتوسل به إلى معرفة أسلوب آخر، وإنما هو مقصود لذاته، فإذا كان الهدف من علم البيان التأثير في النفوس، فإن من أكثر أبوابه تأثيراً التشبيه.

ولقد كان التشبيه من أول الأساليب التي أشار إليها الأقدمون، فإنك لتجد له أصولاً عند أبي عبيدة، والفرّاء، والجاحظ وله فيه إشارات لطيفة، ونظن أن المبرِّد – من الأقدمين – هو أول من توسع في بحثه للتشبيه، وقسّمه ومثل له، وتتابع العلماء بعد ذلك يظهرون بدائعه، ويشرحون روائعه.

قال أبو هلال العسكري: «التشبيه: يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغنِ أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يستدل به على شرفه وموقعه من البلاغة»[(١)].

وقال الزمخشري في تفسيره، عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، قال: «ولضرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفي إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأسار عن الحقائق، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهَّم في معرضة المتيقَّن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ، وقمعٌ لسورة الجامح الأبيّ، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين أمثاله، وفشا ذلك في كلام الرسل والأنبياء والحكماء، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣][(٢)].

وقد بلغ عبدالقاهر في ذلك مبلغاً عظيماً، يقول: «إذا جاء التمثيل في أعقاب المعاني، أو أُبرزت هي باختصار في مِعرَضه[(٣)]، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهةً[(٤)] فأكسبها مَنْقَبَةً[(٥)]، ورفع من أقدارها، وشبَّ[(٦)] من نارها، وضاعف من قواها في تحريكهم النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة[(٧)] وكُلَفاً[(٨)] وقسر الطباع على أن تُعطيها محبةً وشغفاً، فإن كان[(٩)] مدحاً كان

---

(١) الصناعتين ص١٨٣-١٩٤، طبعة الخانجي سنة ١٣٢٠هـ.

(٢) الكشاف، ج١، ص٣٧.

(٣) المعرَض: ثوب تُجلى فيه العروس ليلة العرس.

(٤) أبهة، أي: عظمة.

(٥) منقبة، أي: مفخرة.

(٦) شبَّ: أوقد.

(٧) الصبابة: الشوق.

(٨) الكلف: حُبُّ الشيء والولع به.

(٩) أي: المعنى.

أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف[1]، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب والمنائح[2]، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر. وإن كان ذمّاً كان مسه أوجه، وميْسِمُه[3] ألذع، ووقعه أشد، وحدُّه أحد. وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وإن كان افتخاراً كان شأْوُه[4] أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألدّ، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب[5]، وللسخائم[6] أسلب ولغَرْب الغَضَبِ[7] أفل[8]، وفي عُقَد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، أبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلّي الغيابة، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل، وهذا الحكم، إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه»[9].

فمثال ما كان مدحاً قول البحتري يمدح يعقوب بن إسحاق بن نوبخت[10]:

دانٍ إلى أيـدي العفـاة وشاسـعٌ ... عن كلِّ ندٍّ في النـدَى وضَـريبِ[11]

كالبـدرِ أفـرطَ في العُلـوِّ وضَـوؤُه ... للعُـصبةِ الـسارينَ جِـدُّ قريـبِ[12]

---

(١) العِطْف: الجانب، والمعنى: أدعى للزهو.

(٢) جمع منيحة وهي الناقة التي يُجعل لمن تُمنح له لبنها ووبرها وولدها.

(٣) الميسم: آلة الكي.

(٤) الشأو، أي: الشأن.

(٥) خَلَبَ فلاناً، أي: خدعه وفتن قلبه.

(٦) السخائم: الأحقاد والضغائن.

(٧) غرب الغضب، أي: حدته.

(٨) يقال: إنفَلّ السيف إذا انكسر، والمراد هنا انكسار حدة الغضب.

(٩) أسرار البلاغة – تعليق وشرح محمد النجار، ص١٠٨.

(١٠) ديوان البحتري، ١/ ١١٤.

(١١) الضريب: المثل والنظير، وعطفه على الند: عطف تفسير، العفاة جمع عفيف،وهو الذي لا يسأل الناس من فقر.

(١٢) أي: بالغ الغاية في القرب.

وقول الآخر[1]:

وَتَأخُذُهُ عِندَ المَكارِمِ هِزَّةٌ ... كَمَا اهْتَزَّ تحتَ البَارحِ الغُصُنُ الرَّطِبُ[2]

ومثال الذم قول مروان بن أبي حفصة[3]:

زَوَامِلُ للأشعارِ لا عِلْمَ عِنْدَهُمْ ... بجَيِّدِها إلا كَعِلْمِ الأباعِرِ

لَعَمْرُكَ ما يَدْرِي البَعيرُ إذا غَدَا ... بأوْسَاقِهِ أوْ رَاحَ ما في الغَرائِرِ[4]

ومثال الاحتجاج قول أبي ذؤيب يحتج على استحالة اجتماعه وابن أخته على عشق امرأة واحدة[5]:

تُريدِينَ كَيْما تَجْمَعِيني وَخَالِداً ... وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ في غِمْدِ؟

ومثال الافتخار قول المتنبي[6]:

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيُعْجِزُكُمْ ... ويَكْرَهُ اللهُ مَا تَأْتُونَ والكَرَمُ[7]

ما أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصَانَ عَنْ شِيَمِي ... أنَا الثرَيَّا، وذانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ[8]

---

(١) ذكر هذا البيت في الحماسة غير منسوب، وذكر التبريزي أنه لأبي الشعب العبسي أو الأقرع بن معاذ القشيري.

(٢) البارح: ريح الصيف الحارة، والغصن بسكون الصاد، وحرك اتباعاً للضرورة.

(٣) دلائل الإعجاز، ص١٣٧، أسرار البلاغة، ص١٠٣.

(٤) الزوامل: جمع زاملة وهي التي يُحمل عليها من الإبل وغيرها، والأباعر: جمع أبعرة، التي هي جمع بعير، والوسق، حمل البعير وجمعه أوساق، والغرائر: جمع غرارة وهي وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه.

(٥) ديوانه، ص٣٣، مجمع الأمثال ٢/ ١٩.

(٦) ديوانه، شرح البرقوقي، ٤/ ٨٧.

(٧) يقول: كم تحاولون أن تجدوا فيَّ عيباً تعيبوني به فيعجزكم وجوده، وهذا الذي تفعلون يكرهه الله ويكرهه الكرم – وهذا تعنيف لسيف الدولة لإصغائه للطاعنين به.

(٨) ذان، أي: العيب والنقصان، يقول: إن بُعد ما بيني وبين النقصان والعيب كبُعد الثريا من الشيب والهرم؛ فكما لا يلحقها الشيب والهرم، لا يلحقني العيب والنقصان.

ومثال الوعظ قول صالح بن عبدالقدوس:

إذا وَتَـرْتَ أمْـراً فَاحْـذرْ عَدَاوَتَـهُ     مَنْ يَزرَعِ الشوكَ لا يَحْصُدْ بهِ عِنَباً[١]

يقول الأستاذ البرقوقي: «وبعد، فهذا الضرب من البيان – التشبيه – على حدّته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفلِق[٢]، والكاتب البليغ، في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يضع الكلام بعيد المرام، قريباً من الأفهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس، وما ماثل ذلك مما اشتهر أمره، وجرى لذلك مجرى الحقيقة، وإنما هو يدقّ ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب، ويرقص الهام[٣]، وحتى يخرج مثله عن طوق البشر جميعاً»[٤].

## أركان التشبيه

**الركنان الأولان: المشبه والمشبه به:**

عرفت أن للتشبيه أربعة أركان: المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، وعرفت أن المشبه والمشبه به يسميان طرفي التشبيه، لأنه لا يمكن حذف أحدهما أو الاستغناء عنه، فإذا حذف أحدهما خرج الكلام عن حدّ التشبيه، ودخل في باب الاستعارة التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وطرفا التشبيه قد يكونان محسوسين، وقد يكونا معقولين، وقد يكون المشبه معقولاً والمشبه به محسوساً، أو على العكس من ذلك، أي يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً.

---

(١) نهاية الأرب، ٣/ ٨٢، وتر فلاناً، أي: قتل حميمه فتركه فرداً.

(٢) يقال: أفلق الشاعر: أتى بما يعجب في شعره فهو مُفْلِق.

(٣) الهام: جمع هامة وهي الرأس.

(٤) التلخيص في علوم البلاغة، شرح الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي، ص٢٤٢.

١- **الحِسِّيَان:**

وهو ما يُدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة:

**أ- ما يدرك بالبصر:** سواء الألوان، أم الأشكال، أم المقادير، أم الحركات، وذلك كتشبيه الخد بالوردة الحمراء، والشعر الأسود بالليل في السواد، ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت[١] يشبه الثريا بعنقود الكَرْم المُنَوِّر:

وَقَدْ لاحَ في الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رأى ... كَعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ[٢] حِينَ نَوَّرا

ومنه قول الشاعر[٣]:

أنتَ نَجمٌ في رِفعَةٍ وَضِياءِ ... تَجْتَلِيكَ العُيُونُ شَرْقاً وَغَرْبا

فشبه ممدوحه بالنجم في الرفعة والضياء، وقال الطُّغْرائي[٤]:

وذي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ مُعْتَقَلٍ ... بِمِثْلِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ ولا وَكِلِ[٥]

فشبه القامة بالرمح. وكقول الحارث بن سعيد التغلبي[٦] يشبه القدّ اللطيف بالغصن أو بالألف:

غَزالٌ فَوقَ ما أَصِفُ ... كَأَنَّ قَوامَهُ أَلِفُ

**ب- ما يدرك بالسمع من الأصوات:** ومنه قول ذي الرّمة[٧]:

كَأَنَّ أَصْواتَ مِنْ إيغَالِهِنَّ بنا ... أَوَاخِرِ المَيْسِ أَنْقاضُ الفَراريجِ[٨]

---

(١) الأغاني، ١٥/١٥٩، الإيضاح، ٣/٣٢.

(٢) ملاّحية: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.

(٣) البلاغة الواضحة، ص٢٣، تجتليك: تنظر إليك.

(٤) ديوانه، ص٣٠٢.

(٥) الشطاط: بفتح أوله وكسره: الطول، الوكل: المتواكل.

(٦) نهاية الأرب، ٢/١٠١، والقَوام، بالفتح: القامة وحُسْن الطول.

(٧) ديوانه ٩/٢٥، العمدة ٢/٤٨.

(٨) الإيغال: مصدر أوغل في السير إذا أسرع وأبعد، والضمير للإبل، والأواخر جمع آخرة، وآخرة الرحل: هو العود الذي يستند إليه الراكب، الميس: شجر صلب تُتخذ منه الرحال، أراد الشاعر =

يريد الشاعر أن بعض الرحل يحك بعضه، فيحصل صوت شبيه بصوت صغار الدجاج من شدة السير، واضطراب الرحل، وهو ما يقال له النقيض. ومنه قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٣]، فالنقيض صوت الرحل. وهذا يدلنا على ما للبيئة من أثر في التشبيه من جهة، وعلى سليقة القوم اللغوية وقدراتهم على التعبير من جهة أخرى.

وكقول امرئ القيس:

يَغِـطُ غَطِـيطَ البَكْـرِ شُـدَّ خِناقُـهُ  لِيَقْتُلَنِـي والمَـرْءُ لَـيْسَ بقَتَّـالِ(١)

يصور غضب رجل أظهرت زوجه ميلاً نحو امرئ القيس، فيشبه صوت غطيطه في نومه بغطيط البكر، وهو الفتيّ من الإبل الذي يُشد حبل حول خناقه لترويضه، وقال ذو الرمّة(٢) يصف إبلاً:

كـأنَّ علـى أنيابهـا كُـلَّ سُـحْرَةٍ  صِياحَ البَوازي مِنْ صَريفِ اللوائِكِ

والمعنى أن سامع صوت الإبل يظن أن صوت البوازي - جمع باز وهو الطير المعروف - جارٍ على أنيابها، وبما أن منشأ هذا الظن هو مشابهة صريف أنياب الإبل - أي: صوتها - لصياح البوازي، جعل الشيخ عبدالقاهر هذا البيت مثالاً لتشبيه ذلك الصريف بصياحها.

وقال تميم بن مُقبل يصف قلبه(٣):

وللفُـؤادِ وَجيـبٌ تَحـتَ أَبْهَـرِهِ  لَـدْمَ الغُـلامِ وَراءَ الغَيْـبِ بـالحَجَرِ

---

= (كأن أصوات الرحل (أواخر الميس) انقاض الفراريج) فأخر المضاف إليه عن المضاف، وهذا من التعقيد اللفظي الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب فارجع إليه إن شئت.

(١) يغط من الغطيط: وهو صوت البعير إذا هدر، والبَكر: ولد الناقة الفتيّ.

(٢) ديوانه رقم ١٦/٥٥. اللوائك: الأنياب ومفردها لائك.

(٣) الأماني، ١٦/١، الوجيب: خفقان القلب واضطرابه، الأبهر: الشريان الخارج من القلب، واللدم: الضرب بشيء ثقيل يُسمع وقعه.

فشبه صوت دق القلب بالصوت الحاصل من دق الغلام بالحجر من وراء الحائط.

ومنه قول أبي العتاهية يمدح الرشيد[(١)]:

وَزَحْفٍ لَهُ تَحْكِي البُروقَ سُيوفُه ... وتَحْكِي الرُّعودَ القاصِفاتِ حَوافِرُه

فشبه صوت وقع حوافر الخيل بالرعود القاصفة.

ج- ما يُدرك بالذوق: وذلك كتشبيه بعض الفواكه بالعسل، وكقول امرئ القيس[(٢)]:

كَأَنَّ المُدَامَ وَصَوْبَ الغَمامِ ... ونَشْرَ الخُزَامَى وريحَ القُطُر

يُعَلُّ بهِ بَرْدُ أنيابِها ... إذا طَرَّبَ الطائِرُ المُستَحِر[(٣)]

د- ما يدرك بحاسة الشم من الروائح: كتشبيه بعض الأشياء بالريحان أو الكافور، وتشبيه النكهة بالعنبر.

هـ- ما يُدرك بحاسة اللمس من حرارة وبرودة، ورطوبة ويبوسة، وخشونة وغيرها: وذلك كتشبيه اللّين الناعم بالخز، وتشبيه الخشن بالمِسْح[(٤)]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

لها بَشَرٌ مِثْلُ الحَريرِ ومَنْطِقٌ ... رَخيمُ الحَواشِي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ[(٥)]

---

(١) أبو العتاهية حياته وشعره، محمد محمود الدش.

(٢) شروح التلخيص، ٣/ ٤٣٢.

(٣) المدام: الخمر يداوم على شربها، صوب الغمام: نزول المطر من السحاب، الخزامى: نبات طيب الرائحة، والقطر: نوع من الطيب، يُعَل: يُمزج، برد أنيابها: ريقها، طرَّب: صوّت، المستحر: المصوّت وقت السحَر يريد (أنها طيبة ريح الفم في الوقت الذي تتغير فيه الأفواه بعد النوم).

(٤) المِسْح: كساء من شَعر كثوب الرهبان، والجمع: أمساح ومسوح.

(٥) البشر، أي: الجلد والبشرة، رخيم الحواشي: ليّن نواحي الكلام، الهراء: الكلام الكثير ليس له معنى، النزر: القليل، يقول: هو بين ذلك.

وألحقوا بالطرفين المدركين بالحواس، الأمور المُتخيَّلة؛ ويعنون بها الأشياء التي ليس لها وجود في الواقع، إلا أنَّ الأجزاء التي تتركب منها مدركة بالحواس، ومنه قول أبي بكر محمد بن أحمد الصنوبري(١):

وكَـــأنَّ مُحْمَـــرَّ الـــشَّقيقِ إذا تَـــصَوَّبَ أوْ تَـــصَعَّدْ
أعْـــلامُ يـــاقوتٍ نُـــشِرْنَ علـــى رِمـــاحٍ مِـــنْ زَبَرْجَـــدْ

يشبه محمر الشقيق، وهو ما يُعرف بشقائق النعمان، والريح تسفّله تارة وتُصْعِده أخرى، وأوراقه الحمر على سيقانها الخضر، شبهها بأعلام ياقوت منشورة على رماح من زبرجد، والياقوت أحمر والزبرجد أخضر، ووجه الشبه شيء أحمر فوق شيء أخضر متحرك، تارة يصعد وتارة ينزل، وليس هناك في الخارج أو في الواقع أعلام من ياقوت، وليس هناك رماح من زبرجد إلا أن الأشياء التي رُكبت منها هذه الأجزاء مدركة بالحواس، فهناك رماح وأعلام، وياقوت وزبرجد، إلا أن الأعلام ليست من ياقوت، والرماح ليست من زبرجد، والياقوت والزبرجد من الأشياء الكريمة التي تتخذ حلية وزينة.

ومن هذا القبيل قول أبي الغنائم الحمصي(٢):

خَـــوْدٌ كـــأنَّ بَنانَهـــا في خُـــضْرَةِ الـــنَّقْشِ المُـــزَرَّدْ
سَـــمَكٌ مِـــنَ البلَّـــوْرِ في شَـــبَكٍ تَكَـــوَّنَ مِـــنْ زَبَرْجَـــدْ

فهو يشبه البنان وقد أحاط به النقش المزرد بسمك من البلور، وهذا السمك قد أحاط به شبك من زبرجد، ووجه الشبه – كما ترى – صورة شيء أبيض يحيط به شيء أخضر، وإذا نظرنا إلى المشبه به فإننا لا نجد له وجوداً في الخارج؛ لأنه ليس هناك سمك من البلور ولا شبك من زبرجد، إلا أن أجزاء هذا المشبه به كلها مما يدرك بالحواس، فهناك سمك ولكنه ليس من البلور، وهناك بلّور، وكذلك الشبك

---

(١) المطوّل، ص٣١٣. محمر الشقيق: شقائق النعمان، تصوّب، أي: انحدر ونزل.

(٢) ديوانه، ٤/ ٣٧٥. الخود: الفتاة الناعمة حسنة الخُلق.

والزبرجد، كل هذه العناصر موجودة في الخارج مدركة بالحواس، إلا أن الشكل الذي تخيله الشاعر لا وجود له.

وقريب من هذا قول ابن المعتز[1]:

كَأَنَّ عُيُونَ النَرْجِسِ الغَضِّ حَوْلَنَا ... مَـدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقيقُ

فالمداهن: جمع مُدْهن، وهو ما يوضع فيه الطيب، وهي وإن كانت في واقع الناس، إلا أن الناس لا يستعملون مداهن من درّ ولا يحشونها بالعقيق كذلك.

**٢- العقليان:**

أما الطرفان العقليان فهما ما يدركان بالعقل؛ كتشبيه الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وكما ألحقوا بالطرفين الحسيين ما سموه خيالياً – وهو ما ركّبه الخيال من أجزاء محسوسة – فلقد ألحقوا بالعقليين نوعين اثنين.

**النوع الأول: الأمور الوجدانية:** وهي الكيفيات التي تدركها النفس، كاللذة والألم، والحب والبغض، والطمأنينة والخوف؛ وإنما ألحقوا هذه الوجدانيات بالطرفين العقليين، لأنها لا تُدرَك بالحواس، وليست من القضايا الفكرية، ويسمي الشيخ عبدالقاهر هذا النوع «عقلياً غير حقيقي» وكأن العقلي عنده قسمان اثنان:

١- عقلي حقيقي.

٢- عقلي غير حقيقي، ويعني به الأمور الوجدانية.

**النوع الثاني: ما سموه وهمياً:** وعرفوه بأنه الذي لا وجود له في الخارج، ولو وُجد لأُدرك بالحواس، وأظنّ أن الفرق بينه وبين الأمور الخيالية التي ألحقت بالمحسوسات ظاهر، فالأمور الخيالية أجزاؤها التي ركبت منها موجودة في واقع الناس ومدركة بالحواس - كما مر من قبل - ، أما الوهمي فلا وجود له في الخارج، لا من

---

(١) ديوان ابن المعتز، ٤/ ١٦٥، الوساطة ص٢٠٦.

حيث التركيب، ولا من حيث الأجزاء، وقد أجمع الأقدمون والمحدثون على المثيل لهذا النوع بقول امرئ القيس[1]:

أيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ

فشبه أسنان الحربة بأنياب الأغوال، وهي مما لا وجود له في الخارج، ولكن الغول لو وجد لأدرك بالحواس، والغول ما كان يتوهمه العرب، وقد كثر في أشعارهم.

ومثلوا له كذلك بقول الله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات:٦٢-٦٥]، ولا أدري كيف سووا بين الآية الكريمة وبيت الشعر، إذ الغول من الأمور المتوهمة التي لا حقيقة لها، ولكن الشياطين ليست كذلك. فشتان بين الغول والشيطان، والشيطان ليس أمراً متوهماً، الشيطان له وجود الحقيقي. قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧].

إذن قضية الشيطان ليست وهماً، كل ما هناك أننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا، ولو أنهم قسموا هذا النوع إلى ما هو متوهم لا وجود له كالغول، وإلى ما له حقيقة لا يرى بالعين كالشيطان، لأحسنوا أيما إحسان.

**٣- ما كان المشبه عقلياً والمشبه به محسوساً:**

كتشبيه الحجة بالشمس، والمنيّة بالسبع، والعزم بالسيف، والأخلاق بالعطر، والأمل عند المتشائم بالليل، والحظ كذلك، والأخلاق بالفلاة الواسعة.

---

(١) ديوانه، ص٢٤. المشرفي: أحد أوصاف السيف نسبةً إلى المشارف: قرىً من أرض اليمن.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي العلاء[1]:

وكالنّـار الحيـاةُ فَمِـنْ رَمـادٍ      أواخِرُهـا وأوّلُهـا دُخـانُ

وقول البوصيري - رحمه الله -[2]:

والنَّفسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ على      حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

ولما كان وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، ولما كان المحسوس أكثر تأثيراً في النفس؛ كانت أكثر التشبيهات من هذا القبيل؛ أي: تشبيه المعقول بالمحسوس، وسيأتي لك مزيدٌ من الأمثلة عندما نحدثك عن التشبيهات في القرآن الكريم والسنّة المطهرة.

**٤- ما كان المشبه محسوساً، والمشبه به معقولاً:**

كتشبيه العطر بالخلق الكريم، والنجوم بالسُّنن، والليل بالصدود، ولهذا القسم مزيد بحث إن شاء الله.

**الركن الثالث من أركان التشبيه: الأداة:**

وأداة التشبيه: هي ما يربط بين المشبه والمشبه به، وقد تكون حرفاً، أو فعلاً، أو اسماً.

**أولاً: أداة التشبيه حرف:**

أ- الكاف: ويليها المشبه به دائماً، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النور:٣٩]، وقال ﷺ: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[3]، وقال البوصيري - رحمه الله تعالى - في البيت الذي مرَّ بك من قبل:

والنَّفسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ على      حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

---

(١) ديوان سقط الزند، القصيدة الثالثة، ١/٤٧، والقصيدة في مدح أبي الفضائل سعد بن شريف.

(٢) ديوانه، ص٢٣٩.

(٣) رواه مسلم كتاب ففضائل الصحابة - باب قوله: «الناس كإبل مائة»، ٤/ ١٩٧٣.

وقد لا يليها المشبه به صراحة؛ وذلك إذا كان التشبيه مركباً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

ففي الآيتين الكريمتين دخلت الكاف على (الماء)، ولا يعقل أن تشبه الحياة الدنيا بالماء، وإنما المقصود تشبيه الدنيا بنضارتها وزينتها، واغترار الناس بها، ثم ما يعقب ذلك من ألم وتفرق، وتنغيص وكدر وزوال، بالنبات ينزل عليه الماء فيكسبه خضرة وزهواً، ولكنه بعد ذلك يصفرّ فيكون هشيماً وحطاماً. فأنت ترى أن الكاف لم تدخل على المشبه به صراحة، وإنما ذلك يحتاج إلى تأويل.

ب- **كأنّ**: قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨]، وقال البوصيري[(١)] في وصف أصحاب الرسول ﷺ رضي الله عنهم:

كأنــَّهُمْ في ظُهـورِ الخَيـلِ نَبْـتُ رُبـىً   مِـن شِـدَّةِ الحَـزْمِ لا مِـنْ شِـدَّةِ الحُـزُمِ

يقول: إن ثبوتهم على ظهور الخيل، إنما يرجع إلى حزمهم وعزمهم وقوتهم لا إلى الحُزُم التي شدت بها بطون الخيل.

ويرى بعض العلماء أن «كأنّ» مركبة من كلمتين (الكاف) و(إنّ) الدالة على التأكيد، فالبيت السابق أصل معناه: إنهم في ظهور الخيل كنبت ربى ولكن الكاف دخلت على (إنّ) ففتحت همزتها ومن هنا تدرك أن «كأن» أدل على تأكيد الكلام

---

(١) ديوانه، ص١٩٩. ربى: جمع ربوة وهو المكان العالي.

من الكاف؛ ولهذا جاءت في القرآن الكريم في المواطن التي يستحسن فيها توكيد الكلام وتثبيته في النفس قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

وذهب بعض العلماء إلى أنها لا تكون للتشبيه إلا إذا كان خبرها جامداً، أما إذا كان خبرها مشتقاً فإنها تفيد الظن والشك، فإذا قلت: (كأن خالداً قائم) فإنها تفيد الظن، لأن (قائم) وهي خبر كأن، اسم فاعل، واسم الفاعل من المشتقات، ولكن جمهرة العلماء على أنها للتشبيه في جميع أحوالها، فمعنى (كأن خالداً قائم) أي أن حالته التي هو عليها الآن تشبه حالته وهو قائم.

**ثانياً: أداة التشبيه فعل:**

وقد تكون أداة التشبيه فعلاً مثل: يحكي ويُشبه.

وَطُنْبورٍ[1] مَليحِ الشَّكْلِ يَحكِي ... بنَغْمَتِهِ الفَصيحةِ عَنْدليبا

وقال السريُّ الرَّفّاء في وصف شمعة[2]:

مفتولةٌ مجدولةٌ ... تَحْكي لنا قَدَّ الأَسَلْ[3]

وكقولنا: (هذا يُشبه هذا).

**ثالثاً: أداة التشبيه اسم:**

وقد تأتي أداة التشبيه اسماً، قال أبو بكر الخالدي[4]:

---

(١) الطنبور: آلة من آلات الطرب ذات عنق وأوتار.

(٢) ديوانه، ص٣٨٤.

(٣) القدّ: القامة، الأسل: الرماح.

(٤) اليتيمة ٢/١٨٩.

يَـا شَـبِيهَ البَـدْرِ حُـسْناً وَضِيَـاءً وَمَنَـالاً
وَشَـبِيهَ الغُـصْنِ لِيناً وَقَواماً واعْتِـدالاً

وقد يدل على الأداة فعل ليس فيه معنى التشبيه، كأفعال اليقين والرجحان[(١)] كقولك (رأيت هنداً بدراً)، (وعلمت خالداً أسداً)، وجعل بعضهم منه قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف:٢٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان:١٩]، ومنه قوله ﷺ: «لقد وَجَدْتُهُ بحراً»[(٢)].

ملحوظة: وقد تحذف الأداة لقيام الدليل عليها، كما تقول: «العلم نور»، و«خالد سيف»، و«حمزة أسد».

**الركن الرابع من أركان التشبيه: وجه الشبه:**

ووجه الشبه: هو المعنى الذي يلحظه المتكلم للجمع بين المشبه والمشبه به، كالشجاعة التي لوحظت بين حمزة والأسد «حمزة أسد الله وأسد رسوله»، والصرامة التي لوحظت بين خالد وبين السيف «خالد سيف من سيوف الله» والوضاءة التي لوحظت بين سعاد وبين الشمس، وينبغي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، حتى يصح التشبيه. وهذا الوجه:

١- إما أن يكون حسياً و عقلياً.

٢- وإما أن يكون مفرداً أو متعدداً.

٣- وقد يأتي صورة منتزعة من أشياء متعددة.

---

(١) راجع الأفعال الدالة على اليقين والرجحان في علم النحو.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، ٥/ ٢٢٤٤. ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب، ٤/ ١٨٠٠٢.

**أولاً: وجه الشبه الحسي والعقلي:**

١ - الحسي: وذلك كقول الأقرع بن معاذ القشيري[(١)].

وتَأْخُــذُهُ عِنْــدَ المَكَــارِمِ هِــزَّةٌ   كَمَا اهتَزَّ تحتَ البَارحِ الغُصنُ الرَّطِبُ

فوجه الشبه هنا يدرك بالبصر، وهو الاشتراك في هيئة الحركة، ومنه قول ابن المعتز[(٢)]:

كأنَّ عُيونَ النَّرْجِسِ الغَضِّ حَوْلَنا   مَــداهِنُ دُرٍّ حَــشْوُهُنَّ عَقيــقُ

وقوله[(٣)]:

فكَــأنَّ البَــرْقَ مُــصْحَفُ قَــارٍ   فَانطِباقــاً مَــرَّةً وانْفِتاحــاً

فوجه الشبه مؤلف من اللون والشكل المدرك بالحسّ. ومنه قول ذي الرمة:

كَـأنَّ أصْـواتَ مِـنْ إيغَـالِهِنَّ بنـا   أواخِـرِ المَيْسِ أنْقاضُ الفـراريجِ[(٤)]

فوجه الشبه هنا يُدْرَك بالسمع، وهو الاشتراك في النغمة الخاصة.

ومنه تشبيه الشيء إذا استدار بالكرة تارة، وبالحلقة تارة أخرى فنقول: «الأرض كالكرة» ووجه الشبه هنا الاشتراك في الشكل والصورة، ومنه قول الطُغْرائي[(٥)]:

وَذي شِـطاطٍ كَـصَدْرِ الـرُّمْحِ مُعْتَقَـلٍ   بِمِثْلِـهِ غَيْـرَ هَيَّـابٍ وَلاَ وَكِـلٍ[(٦)]

وقول الحارث بن سعيد التغلبي[(٧)]:

غَــزالٌ فَــوْقَ مَــا أصِــفُ   كَــأنَّ قَوامَــهُ أَلِــفُ

---

(١) الحماسة، ص٦٣٠. البارح: ريح الصيف الحارة.

(٢) ديوانه، ص٥١٤، قصيدة (النرجس).

(٣) ديوانه، ص١٩١. قصيدة (عرف الدار).

(٤) سبق شرح البيت.

(٥) ديوانه، ص٣٠٢.

(٦) سبق شرح هذا البيت.

(٧) نهاية الأرب، ٢/ ١٠١.

والوجه: الاشتراك في الهيئة فإن كلاً مستوٍ منتصب.

٢- العقلي: وذلك كقولك: فلان كحاتم في الكرم، وكالأسد في الشجاعة، وكالثعلب في المكر، وكالثور في القوة. ومنه قول أبي فراس[(١)]:

وقَـدْ صَـارَ هـذا النَّـاسُ إلاَّ أَقَلَّهُـمْ    ذِئابـاً عَلَـى أجـسَادِهِنَّ ثِيـابُ

**ثانياً: تقسيمه إلى مفرد ومتعدد:**

قد يكون وجه الشبه مفرداً، كما تقول: «هو كالأسد في الشجاعة»، وقد يكون متعدداً، ومن ذلك قول النبي ﷺ «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به، كالأُتْرُجَّة طعمها طيب وريحها طيب»[(٢)] فإن وجه الشبه هنا الطعم والرائحة.

ومنه قول الشاعر[(٣)]:

أنـْـتَ نَجْـمٌ في رِفْعَـةٍ وَضِـياءٍ    تَجْتَلِيـكَ العيُـونُ شَـرْقاً وَغَرْبـاً

فوجه الشبه: الرفعة والضياء، ولو اقتصر على أحدهما لكفى.

وقد يكون المتعدد حسياً وعقلياً معاً، كما تقول: «الطالب كأستاذه في مشيته وخُلُقه وعلمه».

## أقسام التشبيه

**أولاً: تقسيم التشبيه من حيث طرفاه:**

١- طرفا التشبيه قد يكونان مفردين، كتشبيه الحسناء بالشمس، وقد يكونان مقيدين، وقد يكون أحدهما مقيداً والآخر مفرداً، والقيد قد يكون شبه الجملة، وقد يكون حالاً، وقد يكون صفةً، وجعلوا منه المضاف إليه، مع أن المضاف إليه – كما

---

(١) ديوان أبي فراس، جمع وتعليق ونشر سامي الدهمان، ٢/ ٢٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضائل القرآن.

(٣) البلاغة الواضحة، ص٢٣. تجتليك: تنظر إليك.

ذكره علماء المعاني – لا يُعد من القيود ولا صلة الموصول[1]، ولعل عذر علماء البيان أنهم لا يتكلمون عن الجملة وأجزائها إنما يتكلمون عن أحد طرفي التشبيه.

فمن الطرفين المقيدين قولهم: «الساعي في غير طائل كالراقم[2] على الماء»، «عِلْمٌ لا ينفع كدواء لا يَنْجَع»، «الطامع في النصر من عدوه كالهارب من الرمضاء إلى النار»، «الكلمة الصعبة المفيدة كالدواء المرّ» ، «الكلمة الطيبة كريح الصبا»، «الحسناء السيئة كخضراء الدِّمَن»[3] «الولد العاق كجمر الغضا»[4] «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» .

هذه التشبيهات إذا نظرت إلى طرفيها المشبه والمشبه به تجد أن كلاً منها مقيد بقيد، وإذا نظرت إلى هذه القيود في كل من الطرفين تجده تارة شبه جملة، وتارة مضافاً إليه كما في (خضراء الدمن) وتارة صفة.

وقد يكون المشبه مفرداً والمشبه به مقيداً ومنه قوله ﷺ : «الناس كابلٍ مائةٍ لا تجد فيها راحلة»[5] ومنه قول الخنساء[6]:

أَغَـرُّ أَبْلَـجُ تَـأْتَمُّ الهُـدَاةُ بِـهِ كأَنَّـهُ عَلَـمٌ في رَأْسِهِ نَـارُ[7]

---

(١) راجع تقسيم الجملة في الجزء الأول.

(٢) الراقم على الماء، أي: الذي يكتب على الماء.

(٣) خضراء الدمن: النبات يرى له نضارة وهو منتن الأصل وبيء المرعى، ينبت في الأرض النتنة، ويروى هذا عن الرسول ﷺ وهو ضعيف.

(٤) الغضا: شجر من الأثل، خشبه من أصلب أنواع الخشب وجمره يمكث طويلاً لا ينطفئ، ووجه الشبه ظاهر؛ فكما أن جمر الغضا يظل مشتعلاً فكذلك عقوق الولد لوالديه يصعب أن تنطفئ حرقته في قلبيهما.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الرقائق، باب٣٥: رفع الأمانة، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ «الناس كإبل مائة» .

(٦) ديوانها ص٣٨٦. وهناك رواية أخرى (وإن صخراً لتأتم الهداة به).

(٧) جعل صاحب جواهر البلاغة، الأستاذ أحمد الهاشمي رحمه الله، المشبه به هنا من قسم المركب، وما نظن الأمر كذلك بل هو من المقيد؛ لأن المركب هيئة من شيئين أو أكثر كما ستعرفه فيما بعد وليس الذي معناه هنا من هذا القبيل.

ومنه قوله: «الثغر كاللؤلؤ المنظوم» ، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك كقولهم: «العين الزرقاء كالسهام» ، و «الشعر الأسود كالليل» .

ولابد أن ننبه على أمر: وهو أن التشبيه المقيد – سواء كان القيد في أحد طرفيه أم في كليهما – إنما هو الذي يكون القيد فيه ذا صلة بوجه الشبه كالأمثلة المتقدمة، فإنك إذا رجعت إليها فستجد أن القيد في كل واحد منها له صلة وثيقة بوجه الشبه، أما إذا كان القيد ليس كذلك – أي لا صلة له بوجه الشبه – فإن التشبيه يعد مفرداً لا مقيداً، فإذا قلت: «رأيت فتاةً ذات عفةٍ وحياء كالشمس» ، فإن هذا التشبيه لا يعد مقيداً على الرغم من أن المشبه – وهو (فتاة ذات عفة وحياء) – مقيدٌ لكن قيده هذا ليس له صلة بوجه الشبه من قريب أو بعيد، فليس كقولنا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» أو «الساعي في غير طائل كالراقم على الماء» ، فإن كل قيد في هذين التشبيهين له صلة بوجه الشبه في كل منهما، كذلك قولك: «خالد يخفض جناحه للناس كالبحر» ، فإن هذا التشبيه ليس مقيداً؛ لأن وجه الشبه هو الكرم والجود، وخفْض الجناح للناس إنما يدل على خُلُق آخر.

٢– وقد يكونان متعددين كلاهما أو أحدهما، ولهذا صور كثيرة:

أ– فقد يكون المشبه واحداً ولكن المشبه به متعدد.

ب– قد يكون المشبه متعدداً والمشبه به واحد.

ج– قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه إلا أنه يؤتى بالمشبهات أولاً ثم يؤتى بالأشياء المشبه بها ليقابل كل واحد بما يناسبه.

د– قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه كذلك إلا أنه يذكر مع كل مشبه المشبه به وإليك البيان:

(د–١) استمع إلى قول الشاعر أبي بكر محمد الخالدي[1]:

(١) اليتيمة، ٢/٢٢٦.

يَـا شَـبيهَ البَـدْرِ حُـسْناً وَضِـيـاءً وَمَنـالا

وشَـبيهَ الغُـصْنِ لِينـاً وَقَوامـاً واعْتِـدالا

أنـتَ مِثْـلُ الـوَرْدِ لَوْنـاً ونـسيماً ومَـلالا[1]

زارَنـا حَتّـى إذا مـا سَـرَّنا بـالقُرْبِ زالا

تجد أن المشبه واحد، ولكن المشبه به متعدد، فقد شبه المحبوب أولاً بالبدر، وثانياً بالغصن، واستمع إلى قول الآخر:

مَـرَّتْ بنَـا رأْدَ[2] الـضُّحَى تَحْكِـي الغَزالَـةَ والغَـزَالا

وقال البحتري[3]:

كأنَّـما يَبْـسِمُ عـن لُؤْلُـؤٍ مُنَـضَّدٍ أوْ بَـرَدٍ أو أقـاحْ

وكقوله[4]:

ذاتِ حُسْنٍ لَوْ اسْتَزادَتْ مِنَ الحُسْنِ إلَيْـهِ لَمَـا أصَـابَتْ مَزِيـداً

فَهـيَ كالـشَّمْسِ بَهْجَـةً والقَـضِيبِ اللَّـدْنِ قَـدّاً والـرِّيمِ طَرْفـاً وَجِيـداً[5]

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨].

---

(١) المَلال: قصر الإقامة، وفي مثل هذا المعنى يقول الشاعر:

لا يَكُـنْ عَهْـدُكَ وَرْداً إنَّ عَهْـدِي لَـكَ آسُ

فالمعروف أن الورد لا يدوم طويلاً بعكس الآس: وهو نبات معروف يبقى مدّة طويلة قبل أن يذبل ويذوي.

(٢) رأد الضحى: وقت انبساط شمسه وارتفاع نهاره.

(٣) ديوانه، ١/ ٢٣٦.

(٤) ديوانه، ١/ ٣٠٦.

(٥) اللدن: اللين الناعم، القدّ: القامة.

وتأمل في هذه جميعاً، فإنك تجد المشبه واحداً ولكن المشبه به متعدد، واستمع إلى قول أمير الشعراء[1]:

لَمَّـا خَطَـرْتَ بِـهِ الْتَفُّـوا بِسَيِّدِهِمْ     كَالشُّهْبِ بالبَدْرِ أوْ كَالجُنْدِ بِالعَلَمِ[2]

ومن هذا قول الشاعر:

أنْتَ كَاللَّيْثِ في الشَّجَاعَةِ والإقْدامِ     والسَّيْفِ في قِراعِ الخُطُوبِ

ويسمى هذا النوع من التشبيه (الجمع)؛ لأن المتكلم جمع مشبهاتٍ بها متعددة لمشبه واحد، وتأتي بلاغة هذا التشبيه من أن المتكلم أرشد إلى معانٍ كثيرة في المشبه وصفات متعددة، فجعل لكل معنى ولكل صفة مشبهاً به يعتمد عليه، انظر إلى البيت المتقدم وهو قوله:

ذاتِ حُسْنٍ لو استزادت من الحُسْنِ     إلَيْـهِ لَمَـا أصَـابَتْ مَزِيـداً

فقد نظر إلى المرأة من حيث الوضاءة فشبهها بالشمس، ومن حيث القد فشبهها بالقضيب، ومن حيث الجيد والطرف فشبهها بالريم.

(د-٢) وهذا عكس سابقه: المشبه متعدد والمشبه به واحد، ونمثل له بقول الشاعر:

صَـدْغُ الحَبِيـبِ وَحَـالِي     كِلاهُمَـا كَاللَيَـالِي

وَثَـغْرُهُ في صَفَـاءِ     وأدْمُعِـي كَـاللآلِي

فالمشبه متعدد، فقد شبه شعر الحبيب وحظه، بالليل في السواد، فأما تشبيه الشعر بالليل فللسواد في كليهما، وأما تشبيه حظه بالليل، فلأنه لم ينعم بوصال حبيبه، وفي البيت الثاني مشبهان، الأول: ثغر الحبيب، والثاني: دموع الشاعر، والمشبه به واحد وهي اللآلي.

---

(١) الشوقيات، ١/١٩٨، قصيدة (نهج البردة).

(٢) يقول: لما مررت بالمسجد الأقصى التفّ حولك الرسل والملائكة كما تلتف الشهب حول البدر أو الجند حول العلم.

ويسمى هذا النوع التسوية، لأنه سوّى بين المشبهات بحيث جعل لها مشبهاً به واحداً، وهذا - بالطبع - أقل بلاغة من سابقه، وننبهك هنا على أنه لا بد من مناسبة بين كلا المشبهين، فهم قد شبهوا الرمش بالسهم، وشبهوا الكلمة تخرج من صاحبها بالسهم، فلو أنك قلت: «الرمش والكلمة كالسهم» لم يكن له في النفس لطف وقبول، كاللطف الذي وجدته في البيتين السابقين.

لا بد إذن من جامع، فلو قلت: «أخلاق فلانة وأعطافها كالمسك، وكلامها وريقها كالشهد» ، كان ذلك مما تأنس به نفسك، كما إذا قلت: «عزمه ولسانه كالسيف»، و«شعره ووجه كالصبح» - تعني به الشيب - ، و«التفاحة والبرتقالة كالعسل» و«فلان وفلانة كالثعلب» ، كان مقبولاً كذلك، وفائدة هذا القسم الاختصار والإيجاز.

(د-٣) أن تذكر المشبهات على حدة، ثم تذكر الأشياء المشبه بها على حدة - كذلك - ويمثلون له ببيت امرئ القيس[(١)]:

كأن قُلُوبَ الطَيْرِ رَطْباً ويَابِساً ... لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي[(٢)]

ففي الشطر الأول ذكر مشبهين: الأول قلوب الطير وهي رطبة، والثاني قلوبها وهي يابسة، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين، فالقلوب الرطبة شبهها بالعُنّاب، والقلوب اليابسة شبهها بالحشف البالي، ومثل هذا قول ابن المعتز[(٣)]:

ليلٌ وبَدْرٌ وغُصنٌ ... شَعْرٌ وَوَجْهٌ وَقَدُّ

خَمْرٌ وَدُرٌّ ووَرْدٌ ... رِيقٌ وَثغْرٌ وَخَدُّ

ففي البيت الأول جمع بين مشبهات عدة وذلك في الشطر الأول ثم ذكر المشبه به - لكل منها - في الشطر الثاني، فالليل في الشطر الأول المشبه، والشعر مشبه به،

---

(١) (دلائل الإعجاز، ص٢٨٥، المطول، ٣٣٨)، ديوانه، ص٣٨.

(٢) الوكر: العش، والحشف: التمر الرديء لا نوى له، والعناب: شجر أحمر لين الأغصان.

(٣) العمدة، ١/ ٢٩٢.

وكذلك البدر مشبه والوجه مشبه به، كذلك الغصن مشبه والقدّ مشبه به، وفي البيت الثاني كذلك؛ فالخمر مشبه والريق مشبه به، كذلك الدر والثغر والورد والخد.

ومثل هذا قوله:

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ في نَدًى وَوَغًى ... كَالْغَيْثِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ العَارِضِ البَرِدِ

ففي الشطر الأول مشبهان، الأول: تبسم الممدوح وذلك في نداه وكرمه والثاني: تقطب وجهه في الوغى والحرب، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين وهما الغيث والبرق، ويعنون به ما يكون من لمعان السيف في شدة الوغى، ويسمون هذا النوع (ملفوفاً) لأنه لف المشبهات معاً، والأشياء المشبه بها كذلك.

(د-٤) أن يذكر عدة تشبيهات ولكن كل تشبيه على حدة لا يتداخل مع غيره.

كقول محمد بن لنكك:

الخَدُّ وَرْدٌ والعِذارُ[(١)] رِياضٌ ... والطَّرْفُ لَيْلٌ والبَيَاضُ نَهَارُ

ففي البيت أربعة تشبيهات ولكنها مذكورة كل على حدة، ومن هذا القبيل قول المرقش الأكبر[(٢)]:

النَّشْرُ مِسْكٌ وَالوُجُوهُ دَنَا ... نِيرٌ وأطْرافُ الأكُفِّ عَنَمْ

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

إنما النَّفْسُ كَالزُّجاجَةِ والعِلْمُ ... سِراجٌ وحِكْمَةُ اللهِ زَيْتُ

فإذا أشْرَقَت فإنَّكَ حَيٌّ ... وإذا أظْلَمَتْ فإنَّكَ مَيْتُ

فقد شبه النفس بالزجاجة والعلم بالسراج، وحكمة الله بالزيت.

---

(١) العِذار: هو عارض الوجه أو جانب اللحية.

(٢) المفضليات ٢/ ١٩. القصيدة رقم ٥٤، الصناعيتين ص١٨٩، النشر: الريح الطيبة، العنم: نبات أملس دائم الخضرة، يتخذ من أزهاره خضاب.

وسموا هذا (مفروقاً) لأنه فرّق بين التشبيهات فجاء كلٌّ مستقلاً عن صاحبه. وأظنك تدرك مما تقدم أن أبرز ميزة لهذه الأقسام الإيجاز، وما نظن أن وراءها أغراضاً بيانية ذات خطر وشأن.

**ثالثاً**: قد يكون الطرفان مركبين، وقد يكون أحدهما مركباً والآخر مفرداً، ولعلك يجول في خاطرك وتتساءل عن الفرق بين المركب والمتعدد، والأمر يسير سهل، فلقد رأيت حينما حدثناك عن المتعدد أنه يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض وإنما جمع بين المتعددات للإيجاز والاختصار، أما المركب فليس كذلك، إذ لا يمكن الفصل بين أجزائه، ولو أنك فصلت بينها لاختل المعنى، وزال رونقه، وبطل القصد الذي أراده المتكلم.

تأمل قول القاضي التنوخي[(١)]:

كأنـــــَّما المَـــرِّيخُ والمُـــشْتَرِي      قُدَّامَـــــهُ في شَـــامِخِ الرِّفْعَـــةْ

فكّر في هذا التشبيه، ترى أن الشاعر يشبه حال المريخ والمشتري يسير أمامه في رفعة وعلوّ برجل يسير في جنح الليل وقد انصرف من دعوة بعد أن انفض المجلس وأسرجت أمامه شمعةٌ، المشبه - إذن - المريخ والمشتري أمامه، والمشبه به المنصرف من الدعوة وقد أسرجت أمامه شمعة، وأنت تجد هنا أن كلاً من المشبه والمشبه به مركبان، حاول الآن في نفسك أن تفض هذا التركيب وتفصل أجزاءه بعضها عن بعض، ستجد أن هذه المحاولات - مهما كثرت - لا تجديك شيئاً، بل تذهب هباءً، فلو أردت أن تشبه المريخ بمنصرف من الدعوة، وأن تشبه المشتري بالشمعة، إذن لذهب رونق المعنى، وفسد الذوق البياني، وأظلمت صورته الرائعة البديعة، وتدرك أن هذا يختلف كل الاختلاف عن بيت امرئ القيس المتقدم.

كـأن قلـوب الطـير رَطْبـاً ويابـساً      لَدَى وَكْرِها العُنّـابُ والحشفُ البـالي

---

(١) اليتيمة، ٢/ ٣١٠، نهاية الأرب، ٧/ ٤٢.

إذ يمكنك هناك أن تفصل بين التشبيهات، فتقول كأن قلوب الطير الرطبة العُنّاب، وكأن قلوبها اليابسة الحشف البالي، ولكن الهدف من الجمع بينهما الإيجاز والاختصار - كما قلنا من قبل - أما هنا فالأمر يختلف كل الاختلاف، إذ لا يمكننا أن نشبه المشترى بالشمعة، والمريخ بالمنصرف عن الدعوة كما عرفت.

وانظر إلى قول ابن المعتز[(١)]:

كأنـــَّهُ وكَـأنّ الكَـأْسَ في فَمِـهِ        هِـلالُ أوّلِ شَـهْرٍ غـابَ في شَـفَقِ

ويروى هذا البيت:

كأنــــّهُ وَكَـــأنّ الكَـــأْسَ في يَـــدِهِ        هِـلالٌ تَـمّ ونَجْـمٌ غـابَ في شَـفَقِ

فالشاعر يريد أن يشبه الكأس - وقد غاب جزء منها بين شفتي شاربها - بصورة الهلال الذي غاب في الشفق، حاول أن تفرق أجزاء هذا التشبيه - كما حاولت في سابقه - ستجد النتيجة واحدة، فلا معنى لتشبيه الكأس بالهلال والشفة بالشفق لأن ذلك غير مستقيم وتفسد به الصورة التي أرادها الشاعر.

واستمع إلى قول بشار[(٢)]:

كَأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَـوْقَ رُؤوسِـنا        وأَسْـيافَنا لَيْـلٌ تَهـاوَى كَواكِبُـه

فالشاعر يريد أن يشبه ساحة الوغى، ما فيها من غبار كثيف، والأسياف ذات اللمعان والبريق، وهي تتساقط في هذا الغبار الكثيف، يشبه هذا الصورة بالليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب، ولو أردت أن تفصل بين أجزاء هذا التشبيه وتفرق بعضها عن بعض فتشبه مثار الغبار بالليل، وتشبه الأسياف بالكواكب، كلاً على حدة، أذهبت جمال الصورة، ورونقها وبهاءها.

---

(١) ديوانه، ٣/ ١٦٣، ديوان المعاني، ١/ ٣٠٧.

(٢) الوساطة ٢٣٧، ديوان المعاني، ٢/ ٦٧.

أظنك أدركت الآن وتذوقت الفرق الهائل بين المتعدد والمركب، فالمتعدد يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض، فيمكنك أن تفصل التشبيهات في البيت السابق:

لَيْـــلٌ وبَـــدْرٌ وَغُـــصْنٌ      شَــعْرٌ ووجْــهٌ وَقَــدُّ

فتقول الليل كالشعر،والبدر كالوجه، والغصن كالقدّ.

أما المركب فإن الفصل فيه غير ممكن، نعم، قد نجد بعض التشبيهات المركبة يمكن فصل بعضها عن بعض فنُخَيَّرُ بين أن نعدها من المركب أو من المتعدد، ولكننا نُحكّم الذوق في ذلك. انظر إلى قول أبي طالب الرقي[1]:

وَكَــأنَّ أجْــرامَ النُّجُــومِ لَوامِعــاً      دُرَرٌ نُثِــرْنَ عَلَــى بِــساطٍ أزْرَقِ

يشبه أجرام النجوم لوامعاً في السماء بالدرر المنثورة على بساط أزرق، فأنت ترى أنه من الممكن أن تشبه النجوم بالدرر تشبيهاً على حدة، ثم تشبه السماء ببساط أزرق تشبيهاً آخر، ولكنك لا تجد لهذا من الحسن والرونق والروعة والتأثير ما تجده للتشبيه في حالة تركيبه، فكونه تشبيه صورة بصورة خير من أن تجعله تشبيهين متعددين.

ونضيف – بعد هذا – أن هناك فرقاً آخر بين التشبيه المتعدد والمركب – غير ما ذكرناه – من إمكان الفصل بين أجزائه أو عدم إمكانه، هذا الفرق هو: أن الغرض من التشبيه المتعدد كان الإيجاز والاختصار، أما الغرض من التشبيه المركب – فليس كذلك – إنما هو: جمال الصورة، وقوة التأثير في النفس، وخصوبة خيال المتكلم، وفيه لطف المنشأ، وجليل الغاية، وحلاوة الثمرة.

**ثانياً: تقسيم التشبيه من حيث الأداة:**

**ينقسم التشبيه من حيث الأداة إلى مرسل ومؤكد:**

فالمرسل: ما ذكرت فيه الأداة، كما مرّ في الأمثلة السابقة.

---

(١) اليتيمة، ٢٤٤، ٢٤٥.

والمؤكد: ما حذفت منه الأداة كقولنا «العلم نور في الهداية» ، و«حمزة أسد في الشجاعة»، ولهذا القسم صور متعددة.

١- قد يأتي على صورة مبتدأ وخبر كالمثالين السابقين.

٢- وقد يأتي على صورة المبتدأ والخبر، ويكون الخبر مضافاً، وإليك الأمثلة التالية:

يمكنك عند تقدير أداة التشبيه: أن تقدم أحد المتضايفين على الآخر، فإذا قلت: «هو ملجأ المساكين، وحصن الضعفاء، وكعبة القاصدين، وروضة المشتاقين» ، فيمكنك أن تقدر الكاف بإبقاء الكلام على ما هو عليه، فنقول: «أنت كحصن الضعفاء، وكملجأ المساكين، وككعبة القاصدين، كروضة المشتاقين» .

وجاز لك - ثانياً - أن تقدم المضاف إليه على الأداة، وهو أحسن من سابقه، وأجمل وقعاً على النفس، فتقول: «أنت للمساكين كالملجأ، وللضعفاء كالحصن، وللقاصدين كالكعبة، وللمشتاقين كالروضة»، وهنا تكون قد فككت المتضايفين بعضهما عن بضع.

٣- أن يكون المشبه به مصدراً (مفعولاً مطلقاً) فتقول: (كرَّ كرَّ الأسد» ، و«أقل إقبال النسيم»، و«دبّ دبيب المرض» ومنه قول سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨]، ومنه قوله ﷺ : «ينطلق أحدكم إلى أخيه يعضُّه عضيض الفحل، ثم يأتي يلتمس العقل، لا دِيَة لك»[(١)].

٤- أن يكون المشبه به حالاً «كرَّ حمزة أسداً» و«أقبلت سعاد بدراً» .

٥- أن يكون المشبه به مضافاً، والمشبه مضافاً إليه، تقولك «سبحانك اللهم، وقد أبدعْتَ ليلَ الشَّعْر، وعاجَ العنق، ولحْظَ السهم، وورْدَ الخد، ونرجسَ العيون» .

---

(١) رواه الإمام أحمد، ٤/ ٢٢٣. ورواه ابن ماجه، كتاب الديات، باب «من عض رجلاً فنزع يده فندر ثناياه»، ٢/ ٨٨٦. والحديث في رجل عضّ يد أخيه، فجذب الآخر يده فطرح ثنيته، فأتى الرجل رسول الله ﷺ يطلب عقل ثنيته، أي: ديتها، فأجابه الرسول بأنه ليس له دية.

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

والرِّيحُ تَعْبَثُ بالغُصُونِ وَقدْ جَرى ... ذهَبُ الأصيلِ عَلى لُجَيْنِ الماءِ

والأصل: أصيل كالذهب، وماء كاللجين.

وكقول الشريف الرضي[1]:

أرْسَى النَّسيمُ بِوادِيكُمْ وَلاَ بَرِحَتْ ... حَامِلُ المُزْنِ في أجْداثِكُم تَضَعُ

ولا يَزالُ جَنينُ النَّبْتِ تُرْضِعُهُ ... عَلى قُبورِكُمُ العَرَّاصَةُ الهَمِعُ

فالتشبيه في البيت الأول في قوله: «حوامل المزن»، حوامل مضاف والمزن مضاف إليه، والأصل فيه «مزن كالحوامل» فشبه المزن بالحوامل لأن كلاً منهما يُرجى منه الخير، وفي البيت الثاني تشبيه آخر وهو قوله: «جنين النبت» والأصل «نبت كالجنين».

وقال شوقي[2]:

جُبْتَ السَموات أوْ مَا فَوْقَهُنَّ بهم ... عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجُمِ[3]

واعلم أنهم يفضلون التشبيه المؤكد على التشبيه المرسل لأنه أبلغ؛ فإن حذف الأداة يشعرك بقرب اتحاد المشبه بالمشبه به، أما ذكر الأداة، فإنه يذهب من النفس هذا الرونق، بل تشعر بشيء من البعد. وأضف إلى ذلك أنه أوجز – كذلك – مما ذكرت الأداة فيه، ولا تظننَّ أن كل تشبيه مؤكد حذفت أداته يجب أن يكون أبلغ على الدوام مما ذكرت فيه الأداة، فقد يبدع الشاعر في تشبيه ذكرت أداته ويقصر في تشبيه حذفت منه الأداة.

المعوّل –إذن– على الصورة التي يبرزها المتكلم، فإذا تساوت الصورتان كان المؤكد أبلغ من المرسل.

---

(١) ديوانه، ١/٦٤٧. العراص: السحاب ذو البرق والرعد، الهَمِعُ: السحاب الماطر.

(٢) الشوقيات، ١/١٩٨.

(٣) بهم: المراد مررت ببعضهم في السموات، منورةٍ دريّةِ اللجم: المراد البراق.

**ثالثاً: تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه:**

**ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه:**

**١- إلى مفصل ومجمل:** فالمفصل ما ذكر فيه وجه الشبه، كقولنا: (هي كاللؤلؤ في الصفاء)، والمجمل ما لم يذكر فيه وجه الشبه، ويمكنك أن تدرك على ضوء ما سبق: أن التشبيه إن ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه فهو (مرسل مفصّل) - «هي كالشمس في الحسن» - وإن ذكرت فيه الأداة وحذف وجه الشبه، فهو (مرسل مجمل) - «هي كالشمس» - وإن حذفت منه الأداة وذكر فيه وجه الشبه فهو (مؤكد مفصل) - «هي شمسٌ في الحسن».

أما إذا حذفت الأداة ووجه الشبه فهو التشبيه (البليغ) - «هي شمس» و«هو أسد» - ومنه قوله ﷺ: «والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»[١] وإنما كان تشبيهاً بليغاً لأنه حذفت منه الأداة ووجه الشبه، فصار المشبه والمشبه به كالشيء الواحد وفي هذا ما فيه من زيادة الدلالة على اتحاد المشبه والمشبه به.

**٢- ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى تمثيل وغير تمثيل:** فالتمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أشياء متعددة، والتشبيه غير التمثيل ما لم يكن وجه الشبه فيه كذلك، وهذا موضوع حريّ بالتفصيل جدير بالتوضيح والتمثيل، فلنعقد له باباً خاصاً، ولنعرض أولاً لما فيه من آراء ثم نبين حقيقته وروعته وموقعه مستمدين العون من الله.

## التشبيه التمثيلي كما استقرت عليه أقوال البيانيين

قد قدمنا لك - من قبل - حينما حدثناك عن أقسام التشبيه من حيث طرفاه، بعض الأمثلة عن التشبيه المركب، وهذا سيعينك على فهم التمثيل وتذوقه، راجع تلك الأبيات التي ذكرناها هناك:

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الطهارة)، باب (فضل الوضوء)، ١/ ٢٠٣.

كأنـــــّما المَـــرِّيخُ والمُـــــشتَري قُدَّامَـــــهُ في شَــــامِخِ الرِّفْعَـــةْ

مُنْـــصرِفٌ باللَّيْـــلِ عَـــنْ دَعْـوَةٍ قَـــدْ أُسْـــرِجَتْ قُدَّامَـــهُ شَـــمْعَةْ

كأنـــــَّهُ وكَـــأنَّ الكَـــأْسَ في فَمِــهِ هِـلالُ أوَّلِ شَـهْرٍ غَـابَ في شَـفَقِ

كَـأنَّ مُثـارَ النَّقْـعِ فَـوقَ رُؤوسِـنا وأَسْـيافَنَا لَيْـلٌ تَهـاوَى كَواكِبُـه

وستجد أن هذه التشبيهات جميعاً كان فيها كل من المشبه والمشبه به صورة خاصة، ففي البيت الأول، المشبه (المريخ والمشتري يسير أمامه)، والمشبه به (منصرف من دعوة في جنح الليل يسير وقد أُسرجت أمامه شمعة). والمشبه في البيت الثاني: (صورة إنسان وسيم وقد دخل بعض الكأس بين شفتيه)، والمشبه به (الهلال وقد غاب في الشفق)، والمشبه في البيت الثالث: - كما عرفت - (مثار النقع في ساحة الوغى والسيوف ذات اللمعان تتساقط فيه)، والمشبه به (الليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب).

ووجه الشبه في هذه جميعها صورة منتزعة من أشياء متعددة؛ فوجه الشبه في البيت الأخير صورة أجرام ذات لمعان تتساقط في ظلام حالك، ووجه الشبه في البيت الثاني صورة شيء أبيض غيّب في شيء من الحمرة، وفي البيت الأول، صورة جرم كبير يتقدمه شيء مضيء.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا ﴾ [الجمعة:٥]، فالمشبه اليهود وقد كلفوا بالتوراة والقيام بما فيها من تكاليف فيها الخير لهم؛ ولكنهم أعرضوا عنها ولم ينتفعوا بها؛ والمشبه به: الحمار يحمل الأسفار الثمينة النفيسة المفيدة، ولكن ليس له منها إلا التعب والإجهاد، ووجه الشبه صورة منتزعة من متعدد: صورة من هُيئت له نفائس الأشياء فلم يزدد بها إلا تعباً دون أن يحصل على

فائدة. استمع إلى قول كثير[1]:

(١) نهاية الأرب، ١/٧٨. المطول، ٣٢٦. أسرار البلاغة، ص٩٨، تحقيق هـ. ريتر.

لَقَـدْ أطْمَعَـتْني بالوِصَـالِ تَبَسُّمَا وبَعْـدَ رَجَـائي أعْرضَـتْ وتَوَلَّـتِ

كَمَـا أبْرَقَـتْ قَوماً عِطاشَـاً غَمامَـةٌ فَلَمَّـا رَجَوْهَـا أقْشَعَتْ وَتَجَلَّـتِ

فهو كما تراه في شكواه وقد أطمعته محبوبته بالوصال لما رأى من تبسمها وبشاشة وجهها، ولكنه حينما منى نفسه بالرجاء تركته وأعرضت عنه، فما مثله إلا كمثل قوم عطاش وقد رأوا غمامة في السماء فأيقنوا بالمطر الذي سيذهب ظمأهم، ولكنها سرعان ما انقشعت فما زادهم ذلك إلا تألماً وحسرة، ويمكنك أن تسترخ الصورة التي هي وجه الشبه (صورة من أيقن بالوصول إلى الهدف بعد أن بدت أسبابه ومقدماته ولم يبق بينه وبين ما يريد إلا قيد أنملة فتبددت آماله، ضاعت أمانيه). واستمع إلى قول الشاعر:

دَانٍ إلى أيْـدِي العُفَـاةِ وَشَاسِـعٌ عَنْ كُلِّ نِـدٍّ في النَّدَى وضَـرِيبِ[1]

كَالْبَـدْرِ أفْـرَطَ في العُلُـوِّ وَضَـوْءُهُ لِلْعُـصْبَةِ الـسَّارينَ جِـدُّ قَرِيـبِ

فهو يشبه الممدوح وهو قريب إلى سائليه، ينالون من عطاياه، ويسعدون بوجوده؛ ولكنه مع هذا القرب بعيد في منزلته ورفعته وعلو شأنه، يشبهه بالبدر وقد أفرط في العلو ولكن ضوءه قريب لأولئك السارين في جنح الليل، ووجه الشبه صورة ذلك الشيء القريب من ناحية ولكنه البعيد من ناحية أخرى. ويقول أبو فراس[2]:

والمَـاءُ يَفْـصِلُ بَـيْنَ رَوْضِ الزَّهْـرِ في الـــــشَّطَّيْنِ فَـــــصْلا

كَبِــــساطِ وَشْــــيٍ جَــرَّدَتْ أيْـدِي القُيُـونِ عَلَيْـهِ نَـصْلا

يشبه حال ماء الجدول، وهو يجري بين روضتين على شاطئيه حلاّهما الزهر البديع ألوانه، منبثاً بين الخضرة الناضرة، بحال سيف لمّاع لا يزال في بريق حدته وقد

---

(١) الضريب: المثل والنظير، وعطفه على الندّ عطف تفسير، سبق توثيق البيت.

(٢) ديوانه ص٩٠، اليتيمة ١/ ٢٤، القيون: جمع قين: وهو الحداد، ثم أطلقت على كل صانع.

جرّده القيون على بساط من حرير مطرز، ووجه الشبه وجود بياض مستطيل حوله اخضرارٌ فيه ألوان مختلفة. ويقول ابن المعتز[١]:

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيامِ وَقَدْ ... بَشَّرَ سُقْمُ الهِلالِ بالعيدِ
يَتْلُو الثُّرَيّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ ... يَفْتَحُ فاهُ لأكْلِ عُنْقُودِ

فشبه صورة الهلال والثريا أمامه بصورة شره فاتح فاه لأكل عنقود من العنب، ووجه الشبه صورة شيء مقوس يتبع شيئاً آخر مكوناً من أجزاء صغيرة بيضاء. ويقول ابن الرومي[٢]:

ما أنسَ لا أنسَ خبّازاً مَررْتُ بهِ ... يَدْحُو الرُّقاقَةَ وشْكَ اللَّمْحِ بالبَصَرِ
ما بَيْنَ رُؤْيَتِها في كَفِّهِ كُرَةً ... وَبَيْنَ رُؤْيَتِها قَوْراءَ كالقَمَرِ
إلاّ بِمِقْدارِ مَا تَنْداحُ دائِرَةٌ ... في صَفْحَةِ المَاءِ تَرْمِي فيهِ بالحَجَرِ

يشبه حال عجينة الرقاقة في يد الخباز تكون في أول أمرها كرة صغيرة ثم تنبسط وتستدير بسرعة بحال دائرة الماء الناشئة من إلقاء حجر فيه، تكون في أول أمرها صغيرة ثم تنداح سريعاً، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول أمره صغيراً مستديراً ثم يأخذ في الاتساع والانبساط وشيكاً. وقال في الشيب[٣]:

أوّلُ بَدْءِ المَشيبِ وَاحِدَةٌ ... تُشْعِلُ ما جَاوَرَتْ مِنَ الشَّعْرِ
مِثْلُ الحَريقِ العظيمِ تبدؤُهُ ... أوّلَ صَوْلٍ صَغيرةُ الشَّرَرِ

يشبه حال الشيب يبتدئ بشعرة تؤثر فيما جاورها من الشعر الأسود فيشيب جميعاً بحال الحريق العظيم تبدؤه شرارة صغيرة، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول

---

(١) ديوانه ٣/ ٨٧، الصناعتين، ص١٩٤.

(٢) ديوانه، ٢/ ٢٧٧.

(٣) ديوانه، ٢/ ٢١٠.

الأمر صغيراً ثم لا يلبث أن ينتج أمراً عظيماً خطيراً، وقال أبو تمام في مغنية تغني بالفارسية[١]:

وَلَـمْ أَفْهَـمْ مَعانِيَهَـا وَلكِـنْ ... وَرَتْ كَبِـدي فَلَـمْ أَجْهَـلْ شَـذَاهَا
فكنـتُ كَأَنَّـني أعْمَـىً مُعَنًّـى ... يُحِبُّ الغانِيَـاتِ وَلا يَراهـا

يشبه الشاعر حاله وقد أثار نغمُ المغنية بالفارسية في نفسه كامن الشوق وهو لا يفهم لغتها، بحال الأعمى يهوى الغانيات وهو لا يرى شيئاً من حسنهن، ووجه الشبه صورة قلب يتأثر وينفعل بأشياء لا يدركها كلّ الإدراك.

ويقول آخر في صديق عاقٍّ:

إنـّي وَإيّـاكَ كَالـصَّادِي[٢] رَأَى نَهَـلاً ... وَدُونَـهُ هُـوَّةٌ يَخْـشَى بهـا التَلَفـا
رَأَى بعَيْنَيْـهِ مـاءً عَـزَّ مَـوْرِدُهُ ... وَلَـيْسَ يَمْلِـكُ دونَ المَـاءِ مُنْـصَرَفا

يشبه الشاعر حاله مع صديقه العاق، وقد دعا الوفاء الشاعر إلى الإبقاء على مودة هذا الصديق، ودعاه ما رآه فيه من العقوق إلى قطعه، وهو بين الأمرين حائر ولكنه يصغي أخيراً إلى داعي الوفاء، يشبه حاله مع صديقه بحال عطشان رأى ماء، وتحول بينه وبين الشرب منه هوّة يخشى منها الهلاك على نفسه لو دنا منه فوقف حائراً ولكنه لا يستطيع الانصراف عن الماء، ووجه الشبه صورة من يريد شيئاً فتحول العقبات دونه فتدركه الحيرة ولكنه لا ييأس.

---

(١) نُسبا لأبي تمام في زهر الأدب ١/١٦١، وفيه قوله – أبي تمام – إنه أخذ هذا المعنى من بشار ابن برد في قوله:

يا قـومُ أذني لـبعض الحـيِّ عاشـقة ... والأذنُ تَعْـشَقُ قبـلَ العَـيْنِ أحيانـا
قالوا: بمَنْ لا تَرَى تَهذي؟ فَقُلتُ لهـم ... الأذنُ كَالعَيْنِ تُـوفي القَلْـبَ مَـا كَانـا

وهما ليسا في ديوان أبي تمام.

(٢) الصادي: العطشان.

ويقول المتنبي في وصف أسد[1]:

يَطَـأُ الثَّـرى مُتَرَفِّقـاً مِـنْ تيهِـهِ فكَأَنـــَّـهُ آسٍ يجُـسُّ عَلـيلا

يشبه هيئة الأسد وهو يمشي على الثرى برفق من شدة زهوه بنفسه بهيئة الطبيب الذي يجُسُّ المريض برفق، ووجه الشبه صورة شيء يمس شيئاً آخر في رفق وتؤدة.

ومن ذلك قولك: «المتردد في الأمور يجذبه رأي هنا ورأي هناك كريشة في مهب الريح» وقولك: (الكلمة الطيبة لا تثمر في النفوس الخبيثة كالحبة الصالحة لا تنبت في الأرض السَّبخة» ومنه قولك: «العالِم المتواضع لا يزيده تواضعه إلا رفعة وشرفاً كالشعلة إذا نُكّست زادت اشتعالاً» ، «المذنب لا يزيده الصفح إلا تمادياً كاللئيم لا يزيده الإحسان إلا تمرداً» .

هذا هو التشبيه التمثيلي يقع من النفس خير موقع، وقد تنافس فيه الشعراء والبلغاء - كما رأيت -.

**أما غير التمثيل**: فهو ما لم يكن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، بل يكون وجه الشبه فيه أمراً واحداً وربما يكون أكثر من شيء واحد فمثال الأول: قول امرئ القيس[2]:

ولَيْلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أرْخَى سُدُولَهُ عَلَـيَّ بـأنواعِ الهُمُـومِ لِيَبْتَلِـي

فوجه الشبه هنا الشدة والصعوبة. ومثال الثاني:

أنـْـتَ نَجْـمٌ في رِفْعَـةٍ وَضِـياءِ تَجْتَلِيـكَ العُيُـونُ شَـرْقاً وغَرْبـا

فوجه الشبه هنا الرفعة والضياء إلا أننا يمكن أن نستغني بأحدهما عن الآخر أو نقدم أحدهما على الآخر وهذا ممتنع في تشبيه التمثيل.

---

(١) ديوانه، ٣/ ٤٤٣.

(٢) ديوانه، ص١٠٧.

## التشبيه الضمني

ويسمى التشبيه الكنائي.

عرفت صوراً كثيرة للتشبيه - فيما مضى - فتارة يأتي على صورة مبتدأ وخبر، وتارة على صورة المضاف والمضاف إليه، وتارة على صورة مصدر، وأخرى في صورة حال إلى غير ذلك - مما عرفت من قبل - ، ولكن هذا النوع من التشبيه لا يأتي على أي صورة من تلك الصور المعروفة، إلا أنك تلمح معناه وأنت تقف تتأمل في البيت من الشعر، أو في الجملة من النثر، لتستخرج التشبيه من بين أثنائهما، من أجل ذلك سمي ضمنياً لأن لا يذكر صراحة في الكلام.

ولا بد من أن ننبهك هنا على قضية ذات شأن وهي أن التشبيه الضمني ليس قسيماً لتشبيه التمثيل، أي: ليس أحدهما يقابل الآخر[1]، ذلك لأن النظر في تشبيه التمثيل إلى وجه الشبه، سواء كان التشبيه صريحاً أم غير صريح. أما النظر في التشبيه الضمني فهو من هذه الحيثية - أعني كونه غير صريح - وستدرك هذا حينما نشرح لك هذا النوع من التشبيه فتحسن تذوقه وتنجذب نفسك إليه:

يقصد المتكلم إلى هذا الأسلوب من التشبيه حينما يأتي بمعنى من المعاني وقضية من القضايا ثم يرى أن يأتي لها ببرهان ودليل ويقيم عليها الحجة، ولقد فطن الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - بصفاء ذهنه، وثاقب فكره، إلى هذا الأسلوب، حيث قسم التمثيل إلى قسمين:

**الأول:** الذي يجيء أعقاب المعاني.

**الثاني:** أن يبرز المعنى باختصار في معرضه ويُنقل عن صورته الأصلية إلى صورته.

---

(١) كالاسم والفعل فكلٌ منهما قسيم للآخر.

ومن القسم الأول التشبيه الضمني، صحيح أن القسم الأول لا يشمل التشبيه الضمني وحده - كما توهمه عبارة بعض الكاتبين المحدثين[(١)] - إنما يشمله وغيره، فالتشبيه الذي يأتي عقب المعاني نوعان:

**أحدهما**: التشبيه الضمني.

**وثانيهما**: كل تشبيه صريح جاء عقب المعنى ومنه البيت الذي تقدم معناه من قبل[(٢)]:

دَانٍ إلى أيْـدِي العُفَـاةِ وشاسِـعٌ      عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَضَرِيب

فلقد تم المعنى في هذا البيت ثم جاء بالتشبيه بعد تمام المعنى وهو قوله:

كَالبَـدْرِ أفْـرَطَ في العُلـوِّ وَضَـوْؤُهُ      لِلْعُـصْبَةِ الـسَّارِينَ جِـدُّ قَرِيـبِ

التشبيه الذي يأتي عقب المعنى - إذن - منه ما هو ضمني ومنه ما هو صريح، والذي يعنينا الآن هو النوع الأول: كل تشبيه ضمني إذن لا بد أن يأتي عقب المعنى، أي: عقب تمام المعنى الذي يريده المتكلم ليكون بمثابة دليل وبرهان. استمع إلى قول أبي تمام[(٣)]:

وإذا أرادَ اللهُ نَـشْرَ فَـضيلَةٍ      طُوِيَـتْ، أتـاحَ لَهـا لِـسانَ حَسُودِ

وهنا تجد أن المعنى الذي قصده الشاعر قد تمّ وكمل ولكنه أحس بأن هذا القول يحتاج إلى حجة، فأنى للحسود أن يكون سبباً في انتشار الفضيلة التي طويت وغُيِّبت؟ وكأنما الأمر يحتاج إلى حجة تصدقه فأعقبه بالبيت الآخر:

لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فيما جاوَرَتْ      مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ العُودِ

---

(١) انظر البلاغة والتطبيق.

(٢) تقدم هذا البيت.

(٣) ديوانه، ص٨٥. ديوان المعاني، ١/ ٤٦.

الا ترى أن الشاعر هنا قد أزال من نفسك كل ما علق فيها من شك، وأزاح عنها كل شبهة، ولم تُرَتِّبْ بأن لسان الحسود يكون سبباً في نشر الفضيلة المغيَّبة، الا ترى هذه النار التي تأكل الأخضر واليابس، أكانت تفوح رائحة العود الزكي ويُعرف الجيد من غيره لولا اشتعال النار في كل ما حوله؟، وأن تدرك أن هذا التشبيه لم يأت على صورة من الصور التي عرفتها من قبل، ولكنك تلمح بكل وضوح أن هنا تشبيهاً رائعاً بديعاً لا يقل أثراً في النفس عن التشبيه الصريح، واستمع إلى قول الآخر[1]:

إصْـبرْ علـى مَـضَضِ الحَـسُودِ فـإنَّ صَـبْرَكَ قاتِلُـهْ

ولا ريب أن المعنى الذي يقصده الشاعر معنى تامّ ليس فهي نقص، ولكن كيف يتأتى أن يقتل الحاسد بصبر المحسود، وهنا يبرز الشاعر لك ما يبدد كل ما يدور حول هذا المعنى من شبه فيقول:

فَالنـارُ تأكُـلُ بَعْـضَهَا إنْ لَـم تَجِـدْ مَـا تأكُلُـهْ

الست تجد أن هذا الدليل يشرق في نفسك، بهذا الأمر المشاهد المحسوس. أليست هذه النار يأكل بعضها بعضاً؟، إن لم تجد ما يذكي أوارها[2]، ويزيد اشتعالها؟ وهذا هو شأن الحسود يقتله حسده إذ لم يبلغ ما يتمناه.

وهذا الرافعي – رحمه الله – يذكر في أحد كتبه معاتباً شاكياً:

يا مَنْ على الحبِّ يَنْسانا ونَذْكُرُه لَـسَوْفَ تَـذْكُرُنا يَوْمَـاً ونَنْساكَ

ولقد تمت القضية التي يريد الشاعر بما لا مزيد عليه، ولكن هل يتأتى ذلك؟ وكيف؟ وهل ينسى المحب؟ وهل يتذكر السالي؟ وتأتي الحجة لتبدد كل ما في هذه التساؤلات من غموض كما يبدد الفجر ظلمة الليل. فاستمع إليه يقول بعد ذلك:

إنَّ الظَّـلامَ الّـذِي تَجْلُـوه يـا قَمَـرُ لَـهُ صَـبَاحٌ، مَتَـى تُدْرِكْـه أخفـاكَ

---

(١) وهو ابن المعتز، ديوان، ص٥٧٩.

(٢) وأَرَ النار: عمل لها موقداً.

أليس القمر هو الذي يجلو الظلمة، ولكن ماذا يكون بعد ذلك؟ إن للظلمة صباحاً سيُخفي هذا القمر تماماً حينما يدركه، ألا تجد في التشبيه الضمني الإقناع والإمتاع معاً؟

واستمع إلى قول فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري[(١)]:

وإنْ كُنْتَ تَبْغي العَيْشَ فابْغِ تَوَسُّطاً ... فَعِنْدَ التَّناهي يَقْصُرُ المُتَطاوِلُ

ومن الذي يقتنع بمثل هذا؟ ومن الذي يرضى بالتوسط؟ ومن الذي لا يحاول أن يصعد إلى القمة؟ وما بال أبي العلاء يطلب منا ما تأباه نفوسنا، ولكن لنتمهل خيراً من أن نتعجل فماذا عنده بعد ذلك:

تُوفّى البُدُورُ النَّقْصَ وهيَ أهِلَّةٌ ... ويُدْرِكُها النُّقْصانُ وَهْيَ كَوامِلُ

هذا البدر الذي لا يخفى – كما يقولون – يكن أبعد ما يكون عن النقص وهو هلال ولكنه حينما يكمل ويصبح تِمّاً[(٢)] يتلألأ ويسطع. هناك يعرض له النقص.

واستمع إلى أبي تمام[(٣)]:

وطُولُ مُقامِ المَرْءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ ... لِديباجَتَيْهِ فاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

ثم يأتيك بالدليل لهذه القضية وهو المشبه به:

فإنّي رَأيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً ... إلى النَّاسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وقد يكون في تعليل الشاعر ما يبعث الأمل، ويدفع اليأس، ويستدرّ به عطف المخاطب، واستمع إلى قول المتنبي[(٤)]:

---

(١) ديوان سقط الزند، ص٢٢٨، قصيدة (إلا في سبيل المجد).

(٢) تمّ تِمّاً، أي: كمُل واشتد وصلُب، والمراد: أصبح تاماً كاملاً.

(٣) ديوان ١٠٠-١٠١، الموازنة ٣١. يقول: إن الرجل إذا استمرت إقامته بين أهله وعشيرته ملّوه وربما كرهوه، ولكنه إذا أقام حيناً واغترب حيناً آخر فإنهم يزدادون به تعلقاً وبه محبة.

(٤) ديوانه، ٤/ ٢٢٤. السيب: العطاء والمعروف ونحوه.

وَمِـنَ الخَيْـرِ بُـطءُ سَيْبِـكَ عَنّـي        أَسْـرَعُ الـسُّحْبِ فِي المَسِيرِ الجِهَامُ

هل تصدق أن الإبطاء في العطاء من الخير؟ ومن ذا الذي يمكن أن يقنع بهذا القول؟ ولكن الشاعر استطاع أن يقنع نفسه ويرضي ممدوحه:

أسـرع الـسحب في المسير الجهام

إن أكثر السحاب سرعة ذلك الذي ليس فيه ماء. واستمع إلى قول البحتري[1]:

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطَ حُسْنٍ جِوارُهَا        خَلائِقَ أَصْفارٍ مِنَ المَجْدِ خُيَّبِ
وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى        طَوالِعَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

يقول: إن مما زاد الممدوح فضلاً وزاد أخلاقه حُسْناً مجاورته لأقوام بعيدين عن الخير خُيَّبٍ من المجد والمروءة، وكذلك النجوم تزداد تألقاً وسناً حينما تظهر في ظلمة الليل الحالك.

ومن هذا قول المتنبي يمدح سيف الدولة[2]:

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وأَنْتَ مِنْهُمْ        فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

كيف يفوق الأنام وهو منهم؟ ولكن أليس المسك من دم الغزال، وأين هذا من ذاك؟ وقريب من هذا:

وما أنا منهُمُ بالعَيْشِ فيهم

ولكن كيف لا تكون منهم وأنت بينهم؟ ويردّ على تساؤلك هذا بقوله:

ولكِنْ مَعْدِنُ الذهَبِ الرُّغَامُ

إن مستقر الذهب في التراب، فهل نستطيع أن نقول: إن الذهب تراب؟

---

(١) ديوانه، ١/١١٨. قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك)، أصفار من المجد: خالون من المجد.

(٢) ديوانه، ٣/٢٠.

والحقُّ أن هذا الأسلوب من التشبيه فيه عمق الفكرة، وغزارة المعنى، وحرارة الإمتاع، ووضوح الإقناع، فكّر في نفسك، وفي حالك وحال أمتك، وقد أرادت أن تخفي مرارة الضيم، ولوعة الأسى، وألم الهزيمة، أرادت أن تخفي ذلك كله لتقنع بفاخر الثياب، والرياش، وشامخ البنيان، وأصبح الهوان في حياتها أمراً ليس ذا بال، وكأنما يخاطبها الشاعر قديماً بقوله:

لا يُعْجِبَنَّ مَضيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهَلْ يَروقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ؟

حقاً إن ذا الضيم لا ينبغي أن يعجبه ما يتمتع به من مُتع، ويقيم الشاعر البرهان على ذلك:

وهل يروقُ دفيناً جودة الكفن

وماذا يضير الدفين أياً كان كفنه. وشبيه بهذا قول الآخر:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوانُ عَلَيْهِ ما لِجُرْحٍ بِمَيْتٍ إيلامُ

وقد يتوسل الشاعر بهذا الأسلوب بما أعطي من بيان فيتوصل إلى ما يريده وهو يقيم الحجة والبرهان. استمتع إلى أبي تمام[1] وهو ينفي عن نفسه عيب الفقر، ويبين لليلاه أنها لا ينبغي أن تنكر عليه فقره، وخلو يده من المال، فذلك ليس عيباً في الرجال:

لا تُنْكِري عَطَلَ الكَريمِ مِنَ الغِنَى

ولكن لماذا؟ فيبين أن ذلك أمر طبعي بدهي، أن يكون ذو المجد متصفاً بضيق ذات اليد.

وهذا المعنى في قول جؤبةَ بن النضر[2]:

لا يأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ صُرَّتَنا لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْها وَهْوَ مُنْطَلِقُ

---

(١) ديوانه، ص٢٤٦.

(٢) الإيضاح، ٢/١١٣.

يقول:

لا تُنكِري عَطَلَ الكَريمِ مِنَ الغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العَالِي

وإذا كانت لا ينبغي أن تنكر عليه الفقر فينبغي أن لا تنكر كذلك هذا الشيب الذي لاح في رأسه، فجعلها تعرض عنه وهو لا يزال فتىً في ضحوة عمره:

قَدْ يَشيبُ الفتى ولَيْسَ عَجيباً أنْ يُرَى النَّوْرُ في القضيبِ الرَّطيبِ

فإذا كان النور يرى في القضيب الرطيب فلماذا تنكر على الفتى أن يشيب؟! .

ومن التشبيه الضمني قول ابن الرومي[1]:

وَيْلاهُ إنْ نَظَرَتْ وإنْ هِيَ أعْرَضَتْ وَقْعُ السِّهَامِ وَنَزْعُهُنَّ أَلِيمُ

ذلك هو أسلوب التشبيه الضمني، ومما سبق يتبين أن هذه التشبيهات كلها أو جلّها من قسم التمثيل، كما يتبين لنا كذلك أن لهذا الأسلوب من المحاسن الكثيرة حيث يشترك في تذوقه الفكر والوجدان معاً، ولا عجب في ذلك فهو ضمني، زاده نقابه الذي ينتقبه حسناً وبهاءً.

**أسباب تأثير التشبيه :**

وقد تتساءل هنا عن سبب تأثير التشبه في النفوس، وما يحدثه فيها من أنس، وقبل أن نبين لك هذه الأسباب ونشرحها، يجدر بك أن تعلم أن هناك جهات كثيرة تشترك في التشبيه.

١- وأول هذه الجهات براعة المتكلم، وهذه البراعة تقوم على دعائم وأسس:

أ- من هذه الدعائم الخيال الخصب.

ب- العاطفة الجياشة.

---

(١) ديوانه، ٣/ ٤٥٧، قصيدة (قلبي سقيم).

ج- الذهن الذي يجعل المتكلم قادراً على الاستنتاج ليجمع بين الأشياء، إذ إن المتكلم ليس هو الذي يوجد الرابطة بين الأشياء، وينشئ ما بينها من وجوه اتصال، واتفاق، ومناسبة، إنما وظيفته أن يستنتج الروابط والصلات بين الأشياء المختلفة المتنافرة.

٢- وثاني هذه الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه الحسّ، ومن البدهي أن تكون النفس أكثر تأثراً بالمحسوس من المعقول، ولذا وجدنا المشبه به لا يكون في الغالب إلا من المحسوسات.

٣- وقد يكون من الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه: العقل، ومع ذلك، لا يستقل وحده في تأثير التشبيه، إنما يكون مبنياً على الحسّ مع أن الحس والعقل، كليهما لا يكفيان ولا يفيان لكي يكون التشبيه مقبولاً وجيّداً، بل لا بد أن تشترك معهما النفس كذلك، وهذا كلام مجمل لا بد له من تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

**أولاً**: ولعلك تدرك – بعد هذا – أن من أول أسباب تأثير التشبيه أنه ينقلها – النفس – من المعقول إلى المحسوس، ومن الفكرة إلى الفطرة، ومن الغموض إلى البديهة. ومن شأن هذا أن يزيل ما فيها من شكوك، ويذهب ما فيها من أوهام، فليس الخبر كالعيان – كما يقولون – ولا تنس أن صلة النفس بالمحسوسات أسبق من صلتها بالمعقولات.

**ثانياً**: ومن أسباب تأثير التشبيه ما في التشبيه من الجمع بين الأشياء المتباعدة، وفي هذا السبب من الطرافة ما تستريح له النفس.

**ثالثاً**: ومن أسباب تأثير التشبيه – وهو ناشئ عما قبله – حاجته إلى الفكر، وفي هذا السبب لذة تسعد بها النفس، ويستريح لها القلب. ولنمثل لك الآن بما يبين لك هذه الأسباب ويوضحها:

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤] فالآية الكريمة تبين أن الذين يدعون من دون الله لا يحصلون على شيء من تعبهم

وجهدهم، لأن الذين يُدعون لا يستجيبون لهم بشيء، وهذا المعنى - مع كونه مسلّما غير مشكوك فيه - إلا أن التشبيه جيء به ليزيد هذا المعنى تثبيتاً وتأكيداً، وتقريراً في النفس، وهو من المعاني المحسوسة المرتكزة في البديهة، أن من يبسط كفيه إلى الماء - طمعاً في أن يصل الماء إلى فيه ليشرب ويبلّ ظمأه - ، لن يصل إلى ما يريد، ولن يحصل على بغيته.

استمع إلى قول ابن لنكك[1]:

إذا أخو الحُسْنِ أضحَى فِعْلُهُ سَمِجاً ... رَأيتَ صورَتَه مِنْ أقْبَحِ الصُّوَرِ

وهذا المعنى مما تقبله النفس ولا ترتاب فيه، ولكن الشاعر أراد أن يقرر لك هذا المعنى ليثبت في نفسك خير تثبت، ويتأكد خير تأكيد، فجاء في البيت الثاني وهو قوله:

وَهَبْهُ كالشَّمْسِ في حُسْنٍ ألَمْ تَرنا ... نَفِرُّ منها إذا مَالَتْ إلى الضَّرَرِ

الا ترى كيف وضّح لك الصورة وفصلها؟ وكيف جمع بين الأشياء المتباعدة؟ فأخو الحسن إذا قارف أفعالاً مذمومة، فحري أن يهجره الناس، ويبتعدوا عنه، وهذه الشمس في حسنها ودفئها، إذا قويت حرارتها وتأكد ضررها، ابتعد عنها المعجبون بدفئها وسطوعها. واستمع إلى قول أبي تمام[2]:

وَطُولُ مُقامِ المَرءِ في الحَيِّ مُخلِقٌ ... لِديباجَتَيْهِ فَاغتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

وهذا معنى جيد يقول: إن طول مكث المرء في مكان ما، يُنقص من شوق الناس إليه، فيخلق كما يخلق الثوب ولم يرد الشاعر أن يلقي إليك هذا المعنى دون أن يدلل له، ويأتي عليه بشواهد من المحسوس فقال:

فإنّي رَأيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحبَّةً ... إلى النَّاسِ أنْ لَيْستْ عَلَيْهِم بِسَرْمَدِ

(١) اليتيمة، ٢/ ٣٣٠. نهاية الأرب، ١/ ٤٤.

(٢) ديوانه، ص١٠٠-١٠١.

فالشمس؛ إنما يزداد الناس حباً لها، وشغفاً بها، لأنها ليس دائمة، بل هي تروح وتجيء، وتغيب وتطلع، وتغرب وتشرق، وإذا كانت المعاني - في الأمثلة السابقة - مؤكّدة غير مشكوك فيها، وإنما زادها التشبيه تأكيداً وتثبيتاً فإن هناك معاني قد تشك فيها النفس، ولا تطمئن إليها، فيأتي التشبيه ليزيل هذا الشك، كي تطمئن لها النفس، انظر مثلاً إلى قول القائل: (قد يشيب الفتى) وهذا المعنى ربما ينازع فيه بعض الناس، فمن المعلوم أن الشيب إنما هو من شأن أولئك الذي تقدمت بهم السن، وبلغوا من الكبر عتياً وليس من شأن أولئك الذين لا زالوا في ضحوة العمر وشبابه، ولكن الشاعر أراد أن يزيل هذا الشك من النفس فقال:

قَـدْ يَـشيبُ الفَتـى ولَـيْسَ عَجيبـاً     أنْ يُرى النَّورُ في القَـضيبِ الرَّطيـبِ

وخذ قول المتنبي:

وَمَـا أنـا مِـنْهُمْ بـالعَيْشِ فـيهِمْ

وهذا المعنى يصعب على النفس أن تتقبله لأول وهلة، فكيف يُتصور أن من نشأ في قوم ليس منهم؟ فأراد الشاعر أن يزيل ذلكم التوهم وهذا الشك فقال:

وَمَـا أنـا مِـنْهُمْ بـالعَيْشِ فـيهِمْ     ولكِـنْ مَعْـدِنُ الـذَّهَبِ الرُّغـامُ

وخذ قول المتنبي:

فـإنْ تَفُـقِ الأنـامَ - وأنـتَ مِـنْهُمْ -     فـإنَّ المِـسْكَ بَعْـضُ دَمِ الغَـزالِ

فإنك واجدٌ فيه قريباً مما وجدته في سابقه، إذ كيف يمكن أن يتفوق على الأنام وهو واحد منهم؟ فأراد أن يبرهن لهذا المعنى حتى تطمئن به النفس؛ وذلك بأن المسك وهو من الأشياء الثمينة المحببة إلى النفس ليس إلا من دم الغزال.

وهكذا لو استقرأت الكلام البليغ لوجدت كل تشبيه يؤثر في النفس لا يخلو عن واحد من الأسباب التي ذكرتها لك، وقد تجتمع له كلها أو بعضها، فكثير منه ما

ينقلك من المعقول إلى المحسوس وهو السبب الأول، وكثير منها ما يجمع بين الأمور الغريبة فيغدو بحاجة إلى الفكر، استمع إلى قول البحتري[1]:

ضَحُوكٍ إلى الأبْطَالِ وَهْوَ يَروعُهُم ... ولِلسَّيْفِ حَدٌّ حينَ يَسْطُو ورَوْنَقُ[2]

فانظر كيف جمع بين الضحك والهيبة، وكيف استدل لذلك بالسيف الذي اجتمعت له الحدة واللمعان، وانظر إلى قول أبي الحسن بن مقلة[3]:

لَستُ ذا ذِلَّةٍ إذا عَضَّنِي الدَّهْرُ ... ولا شَامِخاً إذا وَاتاني

أنا نارٌ في مُرْتَقى نظَرِ الحَاسِدِ ... مَاءٌ جَارٍ مَعَ الإخْوانِ

وأنت تدرك بأن مما يزيد هذه التشبيهات روعة أن جمعت بين هذه الأشياء المتباعدة، وربما المتناقضة كذلك.

وقد تتساءل: كيف يكون التشبيه مؤثراً في النفس وهو بحاجة إلى الفكر؟ أليس ذلك متناقضاً مع ما عرفناه من قبل، من أن الكلام البليغ هو ما يكون معناه إلى نفسك أسرع من وصول اللفظ إلى أذنك؟ أليست حاجة التشبيه إلى فكر تدخله في باب التعقيد المنافي للبلاغة؟ .

ونجيبك أولاً: بأن الفكر ركيزة أساسية للتمييز بين الكلام المبتذل والكلام الجيد، هذا بالنسبة لقائله، وهو كذلك بالنسبة إلى السامع حتى يمتاز الفطن عن غيره.

وأما ثانياً: فإنهم لم يذموا التعقيد من أجل حاجته إلى الفكر، وإنما ذمّ التعقيد لما فيه من سوء الترتيب وضعف التركيب من جهة، ولقلة فائدته وثمرته من جهة ثانية.

«وإنما ذم التعقيد لأن صاحبه أساء التعبير عن المعنى، ولم يرتب الألفاظ الترتيب الملائم له، فشاك طريق السامع إليه ووعر مذهبه، وقُسّم فكره، ووُزِّع ظنه، وتركه

---

(١) ديوان البحتري، ٢/٧٦.

(٢) رونق السيف: ماؤه وحسنه.

(٣) اليتيمة، ج٣، ص١٠٠.

حائراً لا يدري من أين يتوصل إليه، ولا كيف يطلبه، أما التمثيل وسائر الأساليب البليغة، والكلام المخلَّص من شوائب التعقيد فإن صاحبه يتحرى فيه حُسْن البيان، ويخلصه من سوء الدلالة فيرتب الألفاظ الترتيب الذي يهدي إلى المعنى ويفتح الطريق للفكر ويمهده وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار وأوقد فيه الأنوار» .

«وخلاصة القول أن المجهود الفكري في التعقيد زائد على ما ينبغي للمعنى، ومنشؤه من عمل المتكلم وسوء عبارته، وثمرته تافهة، وإن المجهود الفكري في التمثيل مناسب للمعنى ومنشؤه لطفه ودقته، وفائدته جليلة ولذلك كان الأول باعثاً على الذم، والثاني موجباً للمدح»[1] .

## التشبيه في القرآن

ونرى لزاماً علينا ونحن نتحدث عن التشبيه أن نعقد فصلاً خاصاً نتحدث فيه عن تشبيهات القرآن الكريم، وآخر عن التشبيهات في السنّة النبوية، إذ الرسول ﷺ هو سيّد الناطقين بالضاد وأفصحهم، وقد أعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً.

**نتائج مما سبق :**

وقبل أن نحدثك عن تشبيهات القرآن، نرجو أن نستذكر معاً بعض النتائج والملحوظات التي يمكن أن نستنتجها ونلحظها. مما قدمناه لك عن التشبيه.

**أولاً**: ولعل من أول هذه النتائج وأولاها بالتسجيل، أن هذا التشبيه يتأثر بالبيئة، بل إنه يخضع لها، وتتحكم فيه، وتضفي عليه كل سماتها، وتمنحه جميع خصائصها، ولا أدل على ذلك من أننا رأينا التشبيه في العصر الجاهلي كانت عناصره منتزعة من بيئتهم الخاصة، فالبقر الوحشي، وحمار الوحش، والعقاب والغراب، وعيون الطير وقلوبها، والسيف والنار، ونقيض الرحل وصوته، وصوت الباز، والريم، والطلل،

---

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير، تأليف عبدالهادي العدل، ص١٢٥.

والكواكب، وقد تجد السفينة وموج البحر على قلّة، إلى غير ذلك مما كانت تقتضيه وتحتمه بيئة أولئك في جاهليتهم.

ولقد أعطوا حظاً من النباهة واليقظة والقدرة على التصوير والتعبير فكان لا بد من أن يستثمروا ذلك كله دون أن يعطّلوه، فرأينا هذه اليقظة، وتلك البلاغة، وهذه القدرة على التصوير، وهذا الجمال في العبارة، يُستثمر في أمور ليست ذات شأن، ولكن الذي رجحها ورشحها وجوها في تلك البيئة، فالحشرات على اختلافها، ومستنقعات الماء، والوحوش، والرياح، تلك هي المواد التي غالباً ما كانوا يصنعون منها تشبيهاتهم، فقلوب الطير تارة كالعناب، وتارة كالحشف البالي، وعيونها كالخرز الذي لم يُثقّب، والأعطاف كالمسك وكالطيب، والريق كالشراب، حتى ما كان بعيداً عن بيئتهم يقربونه فيشبهونه بما هو من أشياء البيئة كتشبيه السفينة بولد الناقة في قول الأعشى[1]:

تَقِصُ السَّفِينُ بجانِبَيْهِ كَما ... يَنْزُو الرُّباحُ خَلا لَهُ كَرَعُ[2]

وإذا تركنا هذا العصر إلى العصر الإسلامي نجد أن التشبيه – مع ما بين العصرين من تقارب – أصبحت له عناصره التي استمدت وجودها من البيئة، ألا تنظر إلى بيت حسان[3]:

وَقافِيَةٍ عَجَّتْ بلَيْلٍ رَزِينَةٍ ... تُلَقَّيْتُ مِنْ جَوِّ السَّماءِ نُزُولَها

---

(١) أسرار البلاغة، ص١٦٧، تحقيق هـ.ريتر، الصناعتين ٦١.

(٢) تقص: تثب، والنزو: الوثوب، والرُّبَاح بضم الراء وتشديد الباء، وخففت الباء للضرورة: الفصيل أو القرد، وخلا: من الخلو، والكرع: الغدير أو ماء السماء، شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه لأنه إذا نزا كانت له حركات متفاوتة ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب.

(٣) ديوانه، ص ١٩٦، قافية: أي قصيدة، عجت بليلٍ، أي: صاح بها صاحبها في الليل، تلقيت من جو السماء نزولها: أراد أنه أوحي إليه بها.

فإذا جاوزنا ذلك إلى العصر العباسي وجدنا الاختلاف الكبير، والبون الشاسع، في عناصر التشبيه حيث أصبحت هذه العناصر بعيدة عما قبلها اللهم إلا من حيث الصورة والشكل، فمداهن الدّر المحشورة بالعقيق، وأعلام الياقوت، والرماح من زبرجد، وشبك الزبرجد، والسمك من البلور، والزوارق المحملة بالعنبر إلى غير ذلك من أنواع الحلي والأزهار والروائح.

وإذا تركنا العصر العباسي فإننا نجد أن الصورة التشبيهية - إن قُبل التعبير - كانت تسيطر عليها البيئة فتلبسها ما تكسوه لكل من هو في كنفها مما يعرفه الناس، ولعل خير شاهد على هذا، هذا العصر، وأنت إذا تتبعت الصورة الأدبية وجدت كثيراً مما هو جديد لم يعرف من قبل، ولعلنا نوفق إن شاء الله، أن نعقد فصلاً في آخر هذا الكتاب نتحدث فيه عن الصورة عند المحْدَثين تشبيهاً كانت أم غير تشبيه.

ولكن مع اختلاف البيئة وطغيانها على التشبيه فإننا نجد أشياء لا تتغير من حيث العنصر والحقيقة، وإن تغيرت من حيث الصورة والشكل.

ثانياً: رأينا أن التشبيهات فيما مضى كان منها ما يأتي للإيجاز والاختصار فهو عنصر أساسي لا يستغنى عنه، ومنها ما ليس كذلك، وإنما جيء به بعد تمام الكلام وكمال المعنى وكان الهدف منه زيادة التقرير والتوضيح، وذلك ما ذكرناه لك عند أول حديثنا عن التشبيه الضمني.

ثالثاً: وثالثة هذه النتائج أن بعض هذه التشبيهات - وهو القليل - كانت تُلاحظ فيها الدقة من حيث العبارة، لتؤدي المعنى أداءً تاماً غير منقوص، كما رأينا في بيت امرئ القيس السابق وهو يصف الرديني باللهب الذي لم يتصل بدخان، وعيون الطير بالخرز الذي لم يثقب. وفي غير هذين مما ذكرناه لك من قبل.

ولكن كثيراً من التشبيهات لم نجد فيها تلك الميزة - أعني ليس فيها تلك الدقة - التي لوحظ فيها دقة التعبير، بحيث تتفق مع الصورة اتفاقاً كاملاً. وهناك أمر آخر اختلفت فيه تلك التشبيهات كذلك، فكما اختلفت من حيث الصورة ودقة التعبير عنها، فقد اختلفت من حيث الألفاظ التي اختيرت لها. وهناك اختلاف ثالث من حيث الصورة نفسها كما عرفته من قبل وكما ستعرفه فيما بعد.

وهذه بعض الحقائق التي أمكننا نستخلصها من دراستنا للتشبيه:

١- خضوعه للبيئة.

٢- مجيئه بعد تمام الكلام.

٣- عدم التزام الدقة في كثير منه.

٤- اختلاف كثير من التشبيهات من حيث اختيار اللفظ.

٥- اختلافه من حيث الصورة جمالاً وروعة.

**خصائص التشبيه في القرآن:**

التشبيهات في القرآن الكريم، مع أنها ليست بدعاً من التشبيه، ذلك أن القرآن الكريم عربي من حيث الأسلوب، ومن حيث النظم، ولكننا نجد مع ذلك أن لتشبيهات القرآن خصائص ومميزات.

**أولاً:** وأولى هذه الخصائص أن تشبيهاته غير مقيدة ببيئة معينة، فلم تنحصر في عصر دون عصر، ولم تقتصر على مكان دون مكان، إنما هي تشبيهات عامة تستمد من الطبيعة عناصرها، وتأخذ من الكون أجزاءها، فليست لفئة خاصة ولا لقوم بأعيانهم، فمشهد الماء الذي ينزل من المساء، فتحيا به الأرض، ومشهد الزرع الذي ينبت فيكون له شطؤه الذي يحيط به، والسراب في الفلاة، والظلمات في البحر، والموج والأمواج المتلاطمة، والرماد الذي تبدده الرياح في يوم عاصف، والفراش المبثوث، والعهن المنفوش، والجبال، والخُشُب المسنّدة، والجنة بالروضة المرتفعة. كل هذه العناصر وغيرها مما لا يختص به زمان معين، أو مكان معين، أو جنس معين. ومع كونها كذلك، إلا أننا إذا أعدنا النظر مرة أخرى نجد أن لها ميزة ثانية، وهي أنها لا غناء عنها في حياة الإنسان، مُتَمَدِّيناً وغير مُتَمَدِّين، وذلك مما يزيدها تأثيراً في النفس، ونفوذاً في الفؤاد، هذه واحدة.

**ثانياً:** إن هذه التشبيهات جاءت متسقة مع الغرض الذي سيقت من أجله، فقد نجد الشيء الواحد شبه به أكثر من أمر، وذلك لأن هذا الشيء لوحظت فيه صفات متعددة، فروعي كل جانب ليتناسب ويتطابق مع المشبه الذي قصد القرآن الحديث عنه.

ثالثاً: الدقة في اختيار الألفاظ، وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته التي تحدث عنها، فألفاظ القرآن - كما تعلم - جميعها مختارة منتقاة، فإنك لن تجد أي لفظة يمكنك أن تستبدل بها غيرها، أو تستغني بها عن غيرها، ولو أنك أدرت اللغة كلها، وأردت أن تأتي بكلمة مكان كلمة ما استطعت.

رابعاً: وتشبيهات القرآن بعد ذلك كله، كانت بعيدة عن ترف الخيال، ورعونة العاطفة، وسرف القول وفضوله، فهي - إذن - عناصر أساسية في الموضوع، وأجزاء رئيسة في الجملة.

خامساً: ولما كان القرآن كتاب هداية للأحياء ما دامت الحياة، فإن تشبيهاته جميعاً كانت كلها تدور حول هذا الإنسان، تشبهه تارة وتشبه له تارة أخرى، تشبهه بما يناسب وضعه، وتشبه له بما يحيط به من هذا الكون مما لا غناء عنه في حياته ووجوده.

هذه بعض خصائص التشبيه في القرآن، ولكي نتصور ذلك تصوراً عملياً فلا بد أن ننعم ونُنعِم النظر بالوقوف مع بعض هذه الآيات الكريمة:

أ- هذا القمر الذي تغزّل فيه الشعراء شبهوه تارة، وشبهوا به أخرى، والذي امتنّ الله علينا بأن جعله نوراً. يشبهه القرآن الكريم، وقد اضمحل نوره بالعرجون القديم ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩]، وفي هذه الكلمة من الدلالة على الضآلة والضعف ما فيها، «فهذا القمر بهجة السماء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنساً، يصبح بعد هذا كله دقيقاً، نحيلاً محدودباً، لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له ولا عناية بأمره، ترى في كلمة العرجون، ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً»[1].

---

(١) من بلاغة القرآن، ص١٩٢.

ب- واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الرحمن:٢٤]. حيث شبهت السفن في البحر بضخامتها وعظمها بالأعلام - الجبال الرواسي الشامخات - وإنما اختير لفظ الأعلام دون الجبال، لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر، ولقد ذكرت الجبال في قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:٤٢]، لأن ذكر الجبال ألصق بالسياق الذي جاءت من أجله، فهي تتحدث عن الطوفان، يوم أن فجرت الأرض عيوناً، وفتحت السماء بماء منهمر.

وكما شبه الموج بالجبال، فإننا نجده يشبه بالظلل. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢]، وإنما اختيرت كلمة الظلل هنا، لأن الحديث عن أولئك الذين يتعرفون على الله في الشدة دون الرخاء، وكلمة الظلل توحي بالرهبة، كأن هذا الموج ارتفع إلى رؤوسهم، مما يجعل هلاكهم غير مرتاب فيه، على أن الجبل قد شبّه بالظلّة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف:١٧١]، ذلك لأن الآية هنا جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وكيف رفع الجبل فوق رؤوسهم تخويفاً لهم، ووعيداً علهم يرجعون عن ضلالاتهم.

وهكذا تجد التشبيه في كتاب الله ينسجم انسجاماً تاماً مع السياق الذي جاء من أجله، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧]، ثم فكّر لماذا أوثرت كلمة اللباس هنا؟، وقل لي بربك هل تجد شيئاً أكثر ما تكون له النفس حاجة، وأشد ما يكون لها وقاية، أكثر من اللباس؟ ومع كونه كذلك، فهو ينشر في أجواء النفس البهجة والسرور، وهو بعد ذلك كله زينة وكمال. أعرفت سر اختيار الكلمة إذن؟

ج- وإليك مثالاً آخر: آكل الربا يستبيح جهد الناس وعرقهم، فيحرمهم لذة الاستقرار النفسي، وربما ينتج عن ذلك كثير من الآلام والأمراض النفسية أو الجسدية، فما هو التشبيه الذي اختير له في كتاب الله. اقرأ قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ

يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، هذا الذي يتخبطه الشيطان من المس بعيد عن كل استقرار نفسي، وراحة في الجسم، وسلامة في العقل، وهل الجزاء إلا من جنس العمل؟.

د- وعلى العكس من هذا انظر إلى المؤمن الذي ملأ نور الإيمان قلبه، حتى إن الله تبارك وتعالى مثل هذا النور بقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥].

فانظر إلى نور الله في قلب المؤمن، وانظر إلى هذه العناصر التي اختيرت لهذا التشبيه:

١- المشكاة حتى لا يتوزع هذا النور ويتفرق.

٢- المصباح.

٣- الزجاجة.

٤- الزيت الذي يوقد منه هذا المصباح.

٥- الزيتونة لا هي بالشرقية التي تحرم ضوء الشمس حين غروبها ولا هي بالغربية التي تحرم ضوء الشمس حين إشراقها، إنما ترتشف من الشمس في كل وقت.

# الفصل الثاني

## المجـاز

**تمهيد:**

نتحدث فيه عن المجاز: تعريفه، الفرق بينه وبين الحقيقة، أنواعه، المجاز بين مثبتيه ونفاته.

**أولاً: تعريفه:**

مما ينبغي أن نبادرك به القول هنا، أن الحديث في هذا الباب عن المجاز، وأنواعه، وأقسامه. والقوم يذكرون مع المجاز الحقيقة، بل إن بعض الكاتبين يجعلها في عنوان الباب وصلبه، فيقول: الحقيقة والمجاز، وذِكْر الحقيقة؛ لا لأنها من مباحث هذا الباب، بل لأنها مقابلة للمجاز، فلكي نعرف المجاز ونتصوره لا بد أن نعرف الحقيقة، إذ بضدها تتمايز الأشياء.

**معناهما اللغوي:**

وقبل أن نحدثك عن الحقيقة والمجاز بمعناهما الاصطلاحي يجدر أن نحدثك عن المعنى اللغوي لكل من هذين اللفظين فإن معرفة المعنى اللغوي تعين وتقرب من فهم المعنى الاصطلاحي.

أما الحقيقة، فأنت تجد مادة لهذين الحرفين، - الحاء والقاف - أعني كلمة حق، والحق هو الشيء الثابت. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ [غافر:٦] وقال: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ [يس:٧] أي: ثبت، فالحقيقة إذن: هي الشيء الثابت

إذا جعلناها اسم فاعل، أو الشيء المُثبَت إذا جعلناها اسم مفعول، وكلاهما صحيح: لأن صيغة فعيل في اللغة تصلح أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول كما فُصِّل في موضعه، والتاء فيها ليست تاء التأنيث كالتاء في (جميلة)، و(نظيفة) و(كريمة)، إنما التاء في كلمة (حقيقة) جاءت للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في (نطيحة)؛ وبيان هذا أنك إذا قلت: (نظيفة) و(جميلة) فأنت تعني وصفاً لمؤنث (كغرفة نظيفة) و(زهرة جميلة). أما إذا قلت (حقيقة) فلا تعني بهذه الكلمة وصفاً لمؤنث، ألا تراك تقول: «هذا اللفظ حقيقة»، ولو كان وصفاً كان ينبغي أن تقول: «هذا اللفظ حقيق».

فنحن نقلناها إذن من كونها وصفاً إلى كونها اسماً غير وصف، التاء تاء النقل كما في (ذبيحة) و(نطيحة) فإنهما يطلقان على الذكر والمؤنث، وإن أردت مزيداً وكنت ممن يتوقون إلى معرفة هذه القضايا اللغوية فنرشدك إلى علم الصرف فتسجد فيه ضالتك المنشودة إن شاء الله.

أما المجاز فهو مصدر ميمي من جاز الشيء جوازاً إذ تعدّاه، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المكان من قولهم: «جاز الطريق مجازاً» أي: سلكه. الحقيقة في اللغة إذن الشيء الثابت، والمجاز في اللغة (تعدّي الشيء)، ولعلك تشتَمُّ رائحة التضاد بين هاتين الكلمتين، لأن الذي يجوز المكان يتعداه ولا يثبت فيه.

**معناهما الاصطلاحي:**

ومن المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي لكل منهما، فالحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وُضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له لعلاقة مع قرينه تمنع إيراد المعنى الحقيقي: ولا بد أن نقف مع هذا التعريف لنشرحه ونوضحه:

من نافلة القول أن اللغة ضرورة ملحة تدعو إليها الحاجة ليتفاهم الناس فيما بينهم، فالكلمات والألفاظ قوالب للمعاني التي يعبّر عنها الناس، فهم يعبرون عما في نفوسهم بالكلمات، فالمعنى مُعبَّر عنه، واللفظ معبّر به، ومن هنا كان لا بد لكل معنىً من لفظ يدل عليه حتى لا يختلط الأمر، ومن أجل أن يكون لكل لفظ مدلوله الذي يدل عليه.

ولقد كانت هذه الألفاظ بادئ بدء تساير حاجات الناس؛ معنى ذلك أنهم يحتاجون الألفاظ للأمور التي تدور بينهم، وتُلح عليهم، ولا ريب أن أي قوم من الأقوام يتصفون بالبدائية في أول نشأتهم، ثم تبدأ مراحل التطور والنمو، وإذا كان هذا شأن الأقوام والأمم فهو شأن اللغات التي يتحدث بها الأقوام كذلك. وبرهان هذا أنك لو أخذت كثيراً من كلمات اللغة العربية التي تدل اليوم على أشياء معنوية لوجدت أنها وضعت أول ما وضعت لأشياء محسوسة، ولكن مع تطور القوم أصبح لهذه الألفاظ مدلولات غير تلك التي وضعت لها أولاً.

كلمة (كتاب) مثلاً: التي تعني اليوم وسيلة المعرفة والثقافة والعلم، حينما ننظر في المعنى الذي وُضعت له أولاً نجد أنها وُضعت لما كانت تدعو إليه حاجة القوم في نشأتهم الأولى، فكلمة (كَتَب) معناها ضمُّ الخيوط بعضها إلى بعض للنسج والخياطة، وهذا الذي يحتاج إليه القوم في نشأتهم الأولى ثم وضعت بعد ذلك «لكتيبة من الجيش)، ثم وضعت بعد ذلك (لضم الحروف بعضها إلى بعض)[1].

وهكذا أكثر الكلمات العربية كما قلت لك من قبل، وهذه الكلمة على الرغم من تطور مدلولاتها مدلولاتها، إلا أن العرب هم الذين وضعوها لكل معنى من هذه المعاني المختلفة.

فمعنى الوضع - إذن - أن يصطلح القوم على أن يضعوا لكل معنىً كلمةً تدل عليه وهذا الوضع هو الذي يسمى حقيقة؛ فأنت تدرك الآن ما قلناه في تعريفها، بأنها اللفظ الذي استعمل فيما وضع له، فاستعمال الكتاب في جمع الحروف بعضها إلى بعض حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لتدل على هذا المعنى، واستعمال الأسد للحيوان المفترس حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لهذا النوع الخاص من الحيوانات، ودلالة كلمة البحر على القسم المائي من الأرض حقيقة لغوية، كذلك دلالة الشمس على هذا الجرم المضيء، ودلالة السحاب

---

(١) راجع هذا الموضوع مفصلاً في الجزء الأول من هذا الكتاب عند الحديث عن الفصاحة والبلاغة، ص١٠-١١.

على هذا النوع من الغمام، ودلالة القمر على ذلك الكوكب المنير، كل أولئك حقائق لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمات لتدل على هذه الأشياء كلها.

استعمال اللفظ فيما وضع له حقيقة – إذن – ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن هذه الكلمات: وهي كلمة (شمس)، و(بحر)، و(أسد)، و(قمر)، تستعمل في غير هذه المعاني التي وضعت لها، فقد تستعمل كلمة الشمس للحسناء، وتستعمل كلمة أسد في الرجال الشجاع، وتستعمل كلمة السحاب والبحر في الرجل الكريم، كذلك كلمة قمر لذي الطلعة البهيّة، هذه الكلمات – إذن – نجد أنه استُعملت في معنيين مختلفين: فتارة استعملت في معناها الذي وُضعت له، وتارة استعملت في معانٍ أخرى، هناك – إذن – كلمة واحدة ومعنيان:

**المعنى الأول:** الذي وضعت له الكلمة أساساً.

**المعنى الثاني:** الذي استُعملت فيه.

ولكن ترى كيف تتم عملية النقل؟ أيمكننا أن ننقل كل كلمة من المعنى الذي وُضعت له لنستعملها في أي معنىً آخر؟ أظنك تأبى ذلك بفكرتك وفطرتك لأن هذا ستكون نتيجته الخلل، والاضطراب، وستعم الفوضى، فتُنقل كلمة الكذب لمعنى الصدق، وكلمة الخير لمعنى الشر، وكلمة المدح لمعنى الذم، وسيعود الناس إلى مجتمع السفسطائية الذين لم تكن الكلمة فيه عندهم تعني مدلولاً معيناً، ومن هنا كان لا بد من صلة وقرب بين المعنيين: أعني المعنى الذي وُضعت له الكلمة أولاً والمعنى الذي ستستعمل فيه ثانياً.

خذ كلمة (الشمس) مثلاً، المعنى الذي وُضعت له أولاً هذا الجرم المضيء، والمعنى الذي استُعملت فيه ثانياً هو الوجه المتلألئ، وخذ كلمة (سحاب)، المعنى الذي وُضعت له أولاً هو هذا الغمام الممطر، والمعنى الذي استُعملت فيه ثانياً هو الرجل الجواد، وكلمة (أسد) المعنى الذي وُضعت له أولاً هذا الحيوان المفترس المعروف بشجاعته، والمعنى الذي استُعملت فيه ثانياً هو الرجل الشجاع، ألا ترى إلى هذه الصلة بين المعنيين؟ أعني (الجرم المضيء والوجه المتلألئ)، و(الغمامة الحاملة

للماء والرجل الجواد)، و(الحيوان المفترس والرجل الشجاع)، تدرك بعد هذا أننا لن نستطيع أن ننقل أي كلمة من معناه الأساسي إلى أي معنى نشاء فلابد من صلة وثيقة بين المعنيين، وهذا ما يعبرون عنه بالعلاقة، وهو ما ذكرناه في تعريف المجاز، بأنه الكلمة التي استُعملت في غير ما وُضعت له لعلاقة.

بقي عنصر هام ضروري في تعريف المجاز، هذا العنصر لا بد منه حتى لا يختلط الأمر على المتكلم والسامع على السواء. إذا قلت: «رأيت بحراً» فإن المتبادر من هذه العبارة أنه البحر الحقيقي، ولا أستطيع أن أدّعي أنني أعني به الرجل الجواد ولكنني إذا قلت: «رأيت بحراً يسير في القافلة» فإن هذه العبارة «يسير في القافلة» تمنع من إرادة البحر الحقيقي، وكذلك إذا قلت: «رأيت شمساً بيدها كتاب» و«رأيت أسداً يكرّ بسيفه» فإن قولنا: «بيدها كتاب» «ويكر بسيفه» يمنع إرادة المعنى الحقيقي للشمس والأسد، وهذا الذي يعبر عنه بالقرينة.

أرجو أن تكون بعد هذا قد استوعبت تعريف المجاز استيعاباً تاماً من أنه اللفظ الذي استُعمل في غير ما وُضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. ومما تقدم لك تدرك أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور:

١- **الكلمة.**

٢، ٣- **معنيان:** المعنى الحقيقي الذي وضعت له الكلمة والمعنى المجازي الذي استُعملت فيه الكلمة ثانياً.

٤- **العلاقة:** وهي الصلة بين المعنيين ولولاها ما استطعنا أن ننقل الكلمة من معناها الأول الذي وضعت له إلى معناها الثاني الذي استعملت فيه.

٥- **القرينة** التي تبين لنا أن المعنى الحقيقي غير مراد وأن المعنى المجازي هو المقصود.

**أمر لا بد منه:**

القضية التي ينبغي أن توجه لها عنايتك بعد هذا كله هي كيف تستطيع أن تفرق بين المعنى الذي وُضعت له الكلمة وبين المعنى الذي استُعملت فيه؟؟ لئن استطعت

أن تعرف هذا في بعض الكلمات التي كثر دورانها على الألسنة فكيف يمكنك أن تعرف هذا في الكلمات الكثيرة؟ ، والعربية – كما تعلم – غنية بثروتها وألفاظها لذا فإنني أنصح لك إذا أردت أن تتذوق الكلام البليغ وتبدع في قولك أن تعدّ نفسك إعداداً لغوياً، فتستطيع عند ذلك أن تفرق بين الحقيقة والمجاز، فإذا تلوت قول الله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] وقوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١]، وقوله: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ [الكهف:٩٩]، وقوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس:٣٧]، فكيف تدرك أن في كل آية كريمة مجازاً لطيفاً واستعارة بديعة؟؟ إن ذلك يتطلب منك ويحتم عليك معرفة المعاني التي وضعت لها هذه الكلمات، فإذا عرفت أن كلمة (الصراط) مثلاً وضعها العرب للطريق، واستعملها القرآن لتدل على الدّين، وكلمة (الصدع) وضعها العرب لشق الأشياء الصُّلبة واستعملها القرآن في التبليغ والجهر، وكلمة (الطغيان) وضعها العرب لتجاوز الإنسان الحدّ فيما ينبغي له واستعملها القرآن في ارتفاع الماء، وكلمة (الموج) وضعها لحركة الماء واستعملها القرآن في حركة يأجوج ومأجوج، وكلمة (السلخ) وضعها العرب في كشط الجلد واستعملها القرآن في شأن الليل والنهار. إذا عرفت هذا تذوقت وأدركت مواقع المجاز في الكلام.

**ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين:**

كانت قضية المجاز قديماً وحديثاً مثار نزاع مع أن المثبتين له أكثر من النافين، ولا يعنينا الآن أن نفصّل القول في هذه القضية ونكتفي بأن نذكر لك طرفاً منها:

لم ينازع أحد من علماء البيان في إثبات المجاز، ولكن ذهب بعض اللغويين إلى أنه لا ينبغي التغالي في هذا المجاز، ولقد ردّ على هؤلاء ابن قتيبة، أما الذين أنكروا المجاز فهم بعض الفقهاء المتكلمين وتتلخص الأدلة التي استندوا إليها فيما يلي:

١- إن المجاز نوع من الكذب.

٢- إنه يدل على عجز المتكلم فهو إنما لجأ إلى المجاز لعدم استطاعته أن يعبر بالحقيقة عن مراده، وهذا مستحيل أن يكون في كتاب الله؛ لأن الكذب والعجز محالان.

ولكننا لا نسلم لهم هذا القول، فأولاً: إن هناك فرقاً بين المجاز والكذب من جهتين اثنتين.

فالمجاز مبني على التأويل - كما عرفت - والكذب ليس كذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المجاز له قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي والكذب ليس كذلك.

وثانياً: لا نسلم أن المجاز دليل على العجز، وإنما يؤتى به لمقتضيات بلاغية كما يؤتى به في التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل.

٣- أما الدليل الثالث الذي استندوا إليه في إنكار المجاز ولعله أقوى أدلتهم فهو: من أين عرفتم أن هذه الكلمة وُضعت أول ما وضعت لهذا المعنى ثم استُعملت بعد ذلك في معنى آخر؟ فلم لا تكون كلمة أسد، مثلاً قد وُضعت للرجل الشجاع قبل أن توضع للحيوان المفترس؟. أو أنها وُضعت للمعنيين في وقت واحد. وأنت تعلم أن تلك قضية بحاجة إلى دراسة واستقصاء ولكننا مع ذلك يمكن أن نردها بما يلي:

أولاً: إن هناك كلمات يمكننا أن نحدد الزمن الذي استُعملت فيه استعمالاً مجازياً، فهناك أقوال مأثورة للرسول ﷺ أجمعوا على أنه لم ينطق بها أحد قبله عليه وآله الصلاة والسلام، كما أن هناك كلمات استُعملت استعمالاً مجازياً وكان الذين استعملوها أول مرة من شعراء الجاهلية وهذا يدلنا على أن بعض الألفاظ كان استعمالها المجازي متأخراً عن استعمالها الحقيقي وما يصدق على بعضه، يصدق على بعضه الآخر.

ثانياً: يمكن أن نرد هذا القول كذلك بأن هناك فرقاً كبيراً بين استعمال الكلمة فيما وضعت له وبين استعمالها في غير ما وضعت له فأنت إذا استعملت كلمة (الشمس) وكلمة (البحر) وكلمة (الأسد) وكلمة (السيف)، فيما وضعت له كل من هذه الكلمات فإنها لا تزيدنا شيئاً جديداً، ولا تحتاج إلى قرينة، ولكنك حينما

تستعملها في غير ما وُضعت له فإنها تضفي عليها شيئاً جديداً مع احتياجها للقرينة، إن استعمال كلمة (الشمس) في الجرم المعلوم ليس فيها أي جديد، ولكن استعمالها في (المرأة) تدل على حسنها ووضاءتها، وعلى كل حال فنحن نعذر أولئك الذين أنكروا المجاز، فإنما كان قصدهم أن يردوا كثيراً من التأويلات المنحرفة عن كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وتلك غاية نبيلة وقصد مأجور إن شاء الله[1].

**ثالثاً: تعدد الوضع:**

وما دمنا قد تحدثنا عن الوضع، فحريّ بنا قبل أن نغادر هذا الموضوع أن نلمّ ببعض القضايا لصلتها بما نحن بصدده، عرفت أن الوضع المعتبر في المجاز هو الوضع اللغوي، فالكلمات التي استُعملت فيما وُضعت له سميناها (حقيقة)، والتي استعملت في غير ما وُضعت له سميناها (مجازاً)، وكان حديثنا عن الوضع اللغوي، ولذا سمي هذا النوع من المجاز لغوياً، ولكن هناك جهات أخرى غير اللغة يمكن أن تتدخل في قضية الوضع، على معنى أن اللغة وحدها ليست هي التي تملك شأن الوضع وتتخصص فيه، صحيح هي الأساس في ذلك ولكن هناك جهات أخرى يمكن أن يكون لها الحق في الوضع كذلك.

**أولاً**: وأول هذه الجهات الشرع، فهناك أشياء وضع الشرع لها أسماءً خاصة بها، خذ كلمة (الصلاة) مثلاً وضعتها اللغة للدعاء، وفي اصطلاح الشرع: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وهكذا كثيرٌ من الكلمات التي وضعها الشرع لمعانٍ خاصة بها.

ثانياً: العرف الخاص: بعد تعدد العلوم والمعارف أصبح لكل علم مصطلحاته الخاصة به، ففي علوم الحديث مثلاً نجد هذه الكلمات: الصحيح، الضعيف، الحسن، التدليس، وفي علوم البلاغة نجد هذه المصطلحات: الفصل والوصل، القصر،

---

(١) راجع في هذا الموضوع: عبدالعظيم المطعني، المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه.

الاستعارة، وفي علم النحو نجد: الإعراب، البناء، الاشتغال، التمييز، وفي علم الصرف نجد: الإعلال، الإبدال، التصغير، النسب. وفي علم النفس نجد: الدافع، الشعور، الربط، الانتباه، وهكذا كل نوع من أنواع المعارف نجد له مصطلحاته الخاصة.

**ثالثاً**: العُرف العام: ونعني ما لم يكن لفئة خاصة، فالدابة مثلاً وضعها العُرف العام لذات القوائم الأربع، والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا تعارضت هذه الجهات مع اللغة وهي متعارضة يقيناً - فهل نعدّ هذه المصطلحات جميعاً من أبواب المجاز؟ هل نعد استعمال الشرع للصلاة في الأقوال والأفعال مجازاً؟ وهل نعدّ تعريف الصحيح عند علماء الحديث مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعدّ تعريف الفصل عند علماء البلاغة مجازاً لأن تعريفه يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعد تعريف العرف العام للدابة بأنها ذات القوائم الأربع مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة فإن اللغة وضعت الدابة لكل ما يدب على الأرض؟ وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا من شأنه أن يعسُر على كثير من الناس وللإجابة عن هذا السؤال نقول:

إن كل جهة وضعت لمصطلحاتها الخاصة كلمات تدل عليها، فإن هذه الكلمات الموضوعة تصبح حقائق لا ينازع فيها أحد، فالصلاة التي وضعت للأقوال والأفعال هي حقيقة شرعية، وكذلك الصيام الذي وُضع للإمساك المخصوص حقيقة شرعية، كذلك المصطلحات في أنواع العلوم والمعارف، فتعريف الفصل في علوم البلاغة أنه (ترك العطف بين الجملتين) حقيقة اصطلاحية لا نزاع فيها، كذلك تعريف الدابة بأنها التي لها أربع قوائم حقيقة عرفية. خلاصة القول أن بعض المجازات اللغوية قد تصبح حقائق شرعية أو عرفية كاستعمال كلمة (الصلاة) في الأقوال والأفعال، والعرب لم تضعها لهذا بل وضعتها للدعاء، لكن استعمال الشرع لها جعلها حقيقةً شرعية، مع أنها في أصلها مجاز لغوي، وحتى لا نكثر المجاز في الكلام لا نقول: إن الصلاة التي بينتها الشريعة مجاز لغوي؛ بل نقول: إنها حقيقة شرعية، كذلك الفاعل في تعريف النحويين والحالُ والتمييزُ، والفصلُ والوصول عند البلاغيين، والقياسُ عند الأصوليين، وكذا الغريزةُ والدافع عند علماء النفس، والمربع والمثلث عند علماء الرياضيات، كل

أولئك وغيرها لا نطلق عليها أنها مجاز لغوي بل صارت حقائق خاصة؛ فهي حقائق شرعية عند الشرعيين وحقائق عرفية في مصطلحات العلوم المتعددة.

بقي أمر لا بد أن ننبهك عليه، وقد تأتي له زيادةُ إيضاح فيما بعد - إن شاء الله تعالى - فتنبه له، لأنني وضعت هذا الكتاب - كما قلت في مقدمته - نتيجة معاناتي طالباً ومدرساً، فقد ظن بعض الناس أن أمر المجاز والحقيقة يرجع إلى كثرة الاستعمال وقلّته، فإذا كثر استعمال كلمة في معنى من المعاني في عصر ما، كان هذا الاستعمال حقيقة، وإذا قلّ هذا الاستعمال في عصر آخر، صار هذا الاستعمال مجازياً، وهذا لم يقله أحد من العلماء، ورحم الله الشيخ عبدالقاهر، حيث نبّه على أن المجاز أو الكناية لا يزيد القضية من حيث الكم، فقولك: «رأيت أسداً أو بحراً» ، ليس معنى هذا أن هذه العبارة تدل على كثرة الشجاعة والجود أكثر من قولك: «فلان شجاع جواد» إنما تزيد الأسلوب حُسْناً كما ستعرفه، وأزيدك على ما قاله الشيخ - رحمه الله - أن كثرة الاستعمال وقلّته لا تحوّل الحقيقة إلى مجاز، فالصلاة التي كانت تستعمل كثيراً في الدعاء ولكنها الآن قلّ استعمالها في هذا المعنى، لم تتحول من الحقيقة إلى المجاز، فالصلاة وضعتها اللغة للدعاء ، وستبقى كذلك حقيقة لغوية كثر استعمالها أم قل. قلة الاستعمال إذن لا تحول استعمال الصلاة في الدعاء إلى مجاز، نبّهتُك على هذا لأنني عرفت أن بعض المدرسين قد ذكر هذا لطلابه.

**رابعاً: أنواع المجاز:**

آخر ما نحدثك عنه في هذا التمهيد أنواع المجاز، عرفت أن المجاز الذي حدثناك عنه هو المجاز اللغوي، ذلك لأن الفيصل فيه اللغة، وهناك مجاز آخر لا يرجع في مفهومه إلى اللغة. خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤] قف مع قوله سبحانه: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ وتأمل هذه الجملة الكريمة جيداً فإنك تجد أن الكلمات استعملت فيما وضعتها لها

اللغة؛ فكلمتا التذبيح والاستحياء استعملتا استعمالاً حقيقياً، ولكنك إذا أنعمت النظر فإنك تجد أن إسناد التذبيح والاستحياء لفرعون ليس إسناداً حقيقياً، لأن فرعون ليس هو الذي ذبّح الأبناء واستحيا النساء، إنما الذين فعلوا ذلك جندُه، كل ما في الأمر أنه كان السبب والآمر بذلك العمل.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر:٣٦] إن كلمة البناء هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً ولكن هامان ليس هو الذي سيبني الصرح وإنما سيأمر العملة بذلك. وتجد الغيث ينزل من السماء فتقول: «سال الوادي» فكلمة السيل هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً فيما وُضعت له؛ ولكن إسناد السيل إلى الوادي ليس حقيقاً، لأن الماء في الوادي هو الذي يسيل، وتقول: (فاض الكأس) والحقيقة أن الماء هو الذي فاض من الكأس.

هذه الكلمات كلها كما ترى ليس فيها مجاز لغوي، ولكن المجاز جاء في الإسناد، إسناد التذبيح إلى فرعون، والبناء إلى هامان، والسيل إلى الوادي والفيضان إلى الكأس، المجاز هنا إذن ليس لغوياً وإنما هو مجاز في الإسناد ويسمى مجازاً (عقلياً)؛ لأن العقل هو الذي حكم بمثل هذه القضايا وليست اللغة.

المجاز - إذن - نوعان: لغوي، وعقلي؛ فاللغوي ما كان مرجعه إلى اللغة لأن الكلمة استُعملت في غير ما وُضعت له؛ أي في غير ما وُضعت له من حيث اللغة، والمجاز العقلي ويسمى مجازاً (حُكْمِيًا) ذلك لأن التغير فيه ليس لغوياً إنما هو إسناد الشيء لغير ما هو له.

بقيت قضية ذات شأن في المجاز اللغوي، ولقد عرفت من قبل أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور: كلمة ومعنيان وعلاقة وقرينة، ونودّ الآن أن نقف مع العلاقة لنفكر فيها جيداً.

**العلاقة:**

ارجع إلى الأمثلة التي ذكرناها لك هناك، فلقد عرفت هناك أن الصلة بين المعنى الذي وُضعت له (الشمس) والمعنى الذي استُعملت فيه وهو (الحسناء) هي (الوضاءة)،

وأن الصلة بين المعنى الذي وُضعت له كلمة (أسد) وبين المعنى الذي استُعملت فيه وهو (الرجل) هي (الشجاعة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وُضعت له كلمة (سحاب) والمعنى الذي استُعملت فيه هو (العطاء والخير)، إذا نظرت إلى هذه العلاقات تجد أنها تصلح أن تكون وجه شبه كما مرّ معك في التشبيه، ولهذا سميت هذه العلاقة (المشابهة) فإننا نستطيع أن نشبه الرجل الشجاع بالأسد، والحسناء بالشمس، والجواد بالسحاب، ووجه الشبه: (الشجاعة)، و(الوضاءة)، و(العطاء).

ولكن هناك مجازاً لغوياً ليست العلاقة فيه من هذا النوع، أي: لا تصلح أن تكون العلاقة فيه وجه شبه؛ خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾ [نوح:٧] فإنهم في الحقيقة يجعلون أناملهم في آذانهم، ولكن القرآن أطلق الإصبع وأراد الأنملة، واللغة لم تضع الإصبع للأنملة كلمة الإصبع إذن استُعملت في غير ما وُضعت له.

وخذ مثلاً قول الله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [المزمل:٢] فإن المقصود بالقيام الصلاة، واللغة لم تضع القيام لتدل على الصلاة فاستعمال القيام في الصلاة استعمال الكلمة في غير ما وُضعت له، ولكنك إذا بحثت عن العلاقة بين الأنامل والأصابع، وبين القيام والصلاة، فستجدها بديهة تختلف عما مرت معك من علاقات.

لا يستطيع أحد أن يدعي أن العلاقة بين الأَنْمُلَة والإصبع المشابهة، ولا بين القيام والصلاة كذلك؛ إنما العلاقة أن إحدى الكلمتين جزء من الأخرى، ففي الآية الأولى الأنامل جزء من الإصبع فقد استُعمل الكل وأريد الجزء وفي الآية الثانية؛ القيام جزء من الصلاة، فلقد استُعمل الجزء وأريد الكل، ولذلك سمّوا هذه العلاقة (غير المشابهة).

نخلص من كل ما تقدم إلى أن المجاز اللغوي إما أن تكون علاقته (المشابهة) أي: تصلح أن تكون وجه شبه بين المعنى الأصلي الذي وُضعت له الكلمة وبين المعنى الثاني الذي استُعملت فيه بحيث يمكن أن يكون تشبيهاً.

وقد تكون العلاقة غير المشابهة فلا يمكننا أن نكوّن تشبيهاً بين المعنيين، والأول يسمى استعارة، والثاني يسمى مجازاً مرسلاً، فاستعارة – إذن – مجاز لغوي علاقته

المشابهة، والمجاز المرسل مجاز لغوي علاقته غير المشابهة، وهذا ما استقرت عليه كلمة البيانيين.

ومما تقدم تدرك أن المجاز ينقسم إلى قسمين:

١- المجاز العقلي.

٢- المجاز اللغوي وينقسم إلى:

أ- مجاز مرسل.

ب- استعارة.

وسنحدثك بعد هذا التمهيد إن شاء الله عن كل قسم على حدة.

المبحث الأول

# المجاز العقلي

اعتاد كثير من الكاتبين أن يذكروا المجاز العقلي في علم المعاني، كما فعل الشيخ عبدالقاهر في (دلائل الإعجاز) وصاحب التلخيص (القزويني)؛ لأنه قسم من الإسناد، والإسناد وما يتصل به من مباحث علم المعاني، وبعض الكاتبين يذكره في علم البيان؛ لأن المجاز من مباحث علم البيان، وهذا ما اخترته لك أيها القارئ الكريم.

عرفت أن المجاز العقلي لا يكون في الكلمة نفسها، فالكلمة لم تخرج فيه عن وضعها اللغوي، إنما يكون في الإسناد فهو (إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له)، ولا بد قبل أن نسترسل معك في الحديث عن المجاز العقلي أن نقف عند العبارة المتقدمة، ووقوفنا عندها في موضعين اثنين:

الموضع الأول: عند قولنا: «إسناد الفعل أو ما في معناه» ونقصد بـ (ما في معنى الفعل)؛ اسم الفاعل، اسم المفعول، وما يشبههما، ألا ترى أن هذه تعمل عمل الفعل؟ فترفع الفاعل وتنصب المفعول، فإذا قلت: «أضارب زيدٌ عَمْراً؟»، «أحاضرٌ أخوك؟» «أمفهوم الدرسُ؟»، «حبُك الأعداءَ خيانةٌ» فإن (ضارب) في المثال الأول رفع الفاعل ونصبت المفعول، وكذلك (حاضر) في المثال الثاني، أما كلمة (مفهوم) في المثال الثالث، فهي اسم مفعول ورفعت بها كلمة الدرس، لأنها نائب فاعل، وفي الماثل الرابع نصبت كلمة (الأعداء) لأنها مفعول به للمصدر (حُب).

الموضع الثاني: قولنا: (لغير ما هو له)، وتوضيحاً لهذه الجملة نقول: إذا قلت: «سال الماء في الوادي»، «فاض الماء من الكأس»، «فاطمة صائمة هذا اليوم»، «محمد قائم ليلته»، «نحمي أرضنا بإيماننا وشجاعتنا»، «نَبتَ البقل في فصل الربيع» .

قف أمام هذه الجمل واحدة واحدة، تجد أن الإسناد في كل منها إسناد حقيقي؛ فهو إسناد الفعل أو ما يشبهه لما هو له، ألا ترى أن إسناد (سال وفاض) إلى الماء إسناد حقيقي؟ وإسناد الصوم والقيام إلى فاطمة ومحمد إسناد حقيقي، وإسناد الفعل نحمي إلى ضمير المتكلم إسناد حقيقي كذلك؟ وإسناد النبت إلى البقل في الربيع كذلك. نستطيع أن نقول إذن: إننا في هذه الجمل جميعاً أسندنا الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له.

ولكن سعة اللغة وفن التعبير يكسبان الكلام زهواً وبهاءً حيث يمكننا أن نغير العبارات السابقة فنقول: «فاض الكأس»، «سال الوادي»، «نهارها صائم» و«ليلُهُ قائم»، «يحمي بلادَنا وعرضِنا ضربُ السيوف»، «أنبت الربيعُ البقل»، «أشابَتْنا الهمومُ»، في هذه العبارات جميعاً نجد أننا أسندنا الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، فإن الكأس والوادي لم يسيلا، ولكن سال الماء الذي فيهما، ومن هنا كان المجاز والعلاقة التي جعلتنا نقدم على مثل هذا هو ما بين الماء وكل من النهر والكأس من صلة وقرب؛ إذ هما مكان الماء، كذلك الجملتان «نهارها صائم»، و «ليله قائم» الإسناد فيهما مجازي لأن النهار لم يصم، ولأن الليل لم يقم، ومن هنا كان المجاز.

والذي حسّن هذا التجوز هو ما بين الصيام والقيام والنهار والليل من صلة، فكل منهما زمان للآخر، الليل زمان القيام والنهار زمان الصوم، كذلك إسناد الحماية للضرب إسناد غير حقيقي لأن الذي يحمي هم أصحاب السيوف أي: الناس، والذي سوّغ هذا التجوز هو أن هذا الضرب سبب لهذه الحماية.

لعلك الآن أدركت أن المجاز العقلي وإن اختلف عن المجاز اللغوي – لأن ذاك في الكلمة وهذا في الإسناد – إلا أنه يشبهه من حيث حاجتُه إلى العلاقة والقرينة، فإذا قلت: «سال النهر» فالقرينة هنا معنوية، لأن النهر لا يمكن أن يسيل أما العلاقة فهي المكانية لأن النهر مكان الماء، وكذلك قولك: «فاض الكأس»، أما العلاقة في قولنا: «نهارُهُ صائم»، و«ليلُهُ قائم» فهي الزمانية؛ لأن النهار والليل زمان الصيام والقيام، وأما العلاقة في قولنا: «أشابَتْنا الهموم» فهي السببية؛ لأن الهم سبب للشيب، وهناك علاقات أخر للمجاز العقلي: وهي المصدرية كقولك: «جدَّ الجدُّ» ، قال أبو فراس[(١)]:

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ص١٢١، قصيدة (أراك عصي الدمع).

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ    وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

ومنه قول أبي سفيان: «لقد أمِر أمرُ ابن أبي كَبْشَة».

ومن علاقاته المفعولية: وذلك حينما نأتي باسم الفاعل ونريد المفعول كقوله سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٥-٦]، أي: مدفوق، و«بَيتٌ عامِر» أي: معمور و«سُمٌّ ناقع»، أي: منقوع، ومنه قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ﴾ [القصص:٥٧]، أي: مأموناً، ومنه قوله سبحانه: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٤٣]، أي: معصوم، فأنت ترى هنا أنه قد ذكر اسم الفاعل ولكن المراد اسم المفعول، فالعلاقة المفعولية كما عرفت ومن هذا قول الحطيئة[1]:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا    وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

فقد عبر باسم الفاعل هنا ولكنه يريد أنت (المطعوم المكسو) بدليل قوله: «دع المكارم لا ترحل لبغيتها»، إذ لا يعقل أن يجرده من المكارم ثم يصفه بأنه يطعم الناس ويكسوهم، والبيت قاله الحطيئة في الزبرقان بن بدر ﷺ فرفع الزبرقان أمر الحطيئة لسيدنا عمر ﷺ فعزره وأدبه، ومنه قولنا «نهاره صائم» و«ليله قائم» أي: مصومٌ فيه ومقومٌ فيه، وقد تقدم لك أن علاقة هذا الزمانية، لكن قد تختلف العلاقات باختلاف المعنى كما تختلف الأعاريب باختلاف المعاني، وسيأتي لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله.

وقد تكون العلاقة الفاعلية وذلك إذا ذكر اسم المفعول وأريد اسم الفاعل، ومنه قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم:٦١] فـ (مأتي) اسم مفعول، ولكن المراد اسم الفاعل أي: إن وعده آت، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٤]، ومن هذا قولهم: «سيل مُفعم» بصيغة اسم المفعول،

(١) ديوان الحطيئة، ص٢٨٤.

والمراد اسم الفاعل، وذلك من قولهم: «أفعَم السيلُ الواديَ» إذا ملأه، فالسيل مفعِم وليس مُفعَم، ولكي تتضح لك صورة هذا المجاز نذكر لك مزيداً من الأمثلة:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦].

٢- قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص:٤].

وإسناد البناء إلى هامان، والتذبيح والاستحياء إلى فرعون، إسناد مجازي علاقته السببية، لأن هامان سبب في البناء وهو المشرف عليه، ولأن فرعون هو السبب في التذبيح والاستحياء، والباني في الحقيقة العملة والمبذّح والمستحيي هم الجنود.

٣- قال المتنبي يصف ملك الروم بعد أن هزمه سيف الدولة[1]:

وَيَمْشي بِهِ العُكّازُ في الدَّيْرِ تائِباً ... وَما كانَ يَرْضى مَشْيَ أشْقَرَ أجْرَدا

٤- وقال الفرزدق[2]:

يَحْمي إذا اخْتُرِطَ السُّيوفُ نِساءَنا ... ضَرْبٌ تُطيرُ لَهُ السَّواعِدُ أرْعَلُ

وإسناد المشي إلى العكاز مجاز عقلي علاقته السببية، وإسناد الحماية إلى الضرب مجاز عقلي علاقته السببية كذلك.

٥- وهذا مثل قولك: «بنى الإسلام لنا دولة لا تغيبُ عنها الشمس» فإن إسناد البناء للإسلام مجاز عقلي علاقته السببية.

---

(١) ديوانه، ٦/٢. يقول: وصار يمشي في دير الرهبان على العكاز تائباً من الحرب بعد أن كان لا يرضى مشي الخيل السراع - لأن الجواد الأشقر عند العرب أسرع الخيل - بعد أن يئس ونال منه الهم، والأجرد: القصير الشعر.

(٢) ديوانه، ص٤٩٠. اخترط السيوف: أي: استُلَّت، الأرعل: الذي يقطع اللحم فيدليه، المعنى: يشير إلى منعة قومه وقوتهم من خلال تصوير ضرباتهم العنيفة التي تقطع سواعد المعتدين، مما يعني حصانة نساء قومه المطلقة، فيا ليت لأمتنا مثل هذه الحمية.

٦- وقال آخر:

إنـا لَمِـنْ مَعْـشَرٍ أفْنَـى أوائِلَهُـمْ قِيلُ الكُمَـاةِ ألاَ أيْـنَ المُحامُونـا[(١)]

٧- وقال المتنبي[(٢)]:

والهَـمُّ يَخْتَـرِمُ الجَـسِيمَ نَحافَـةً وَيُـشِيبُ ناصِـيَةَ الـصَّبِيِّ وَيُهْـرِمُ

وإسناد الإفناء إلى القول إسناد مجازي علاقته السببية كذلك؛ لأن القول سبب في الإفناء. وإسناد الاخترام والشيب والإهرام إلى الهم من المجاز العقلي وعلاقته السببية لأن الهمّ سبب في هذه الأمور.

٨- قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ [الأنعام:٦] إسناد الجري إلى الأنهار إسناد مجازي، لأن الأنهار لا تجري إنما يجري الماء الذي في الأنهار، إسناد الجري إلى الأنهار - إذن - مجاز عقلي علاقته المكانية.

٩- قال تعالى: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبا:٣٣]، إسناد المكر إلى الليل والنهار مجاز عقلي علاقته الزمانية لأنهما زمان المكر.

١٠- قال تعالى: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٢١]، العيشة لا ترضَى - كما تعلم - وإنما يرضاها الناس، فوصفُ العيشة بأنها راضية مجاز عقلي علاقته المفعولية لأنها عيشة مرضية.

١١- تقول: «ذهبنا إلى حديقة غنّاء وروضة فيحاء» الحقيقة أن الحديقة مكان للصوت الجميل، والرائحة الطيبة فهو مجاز عقلي علاقته المكانية.

---

(١) الكماة: جمع كمي، وهو الشجاع المتكمي بسلاحه، أي: المستور به، أي: أنهم ما إن يسمعوا صيحة مستغيث حتى يجيبوه وقد فني أجدادهم في هذا الأمر.

(٢) ديوانه، ٤/٢٥١. يخترم: يقطع ويستأصل، الجسيم: العظيم الجسم، النحافة: الهزال، الناصية: مقدم الرأس، يقول: إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه الهزال، ويشيب الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز.

١٢- قال الشاعر:

قَدْ عَزَّ عِزُّ الأُلى لا يَبخلُونَ على ... أوْطانِهِمْ بالدَّمِ الغالي إذا طُلِبا

وأنت ترى هنا أنه قد أسند الفعل إلى المصدر، وهذا مجاز عقلي علاقته المصدرية، وإنما كان مجازاً؛ لأن العِزّ لا يَعِزُّ وإنما يُعَزُّ به كما تقول: «يخاف الخوفُ».

١٣- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]، ومن شأن الحجاب أن يكون ساتراً فهو مجاز عقلي علاقته الفاعلية.

تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر[١]:

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ ... فإنَّما هِيَ إقْبالٌ وإدْبارُ

أسندت (العَجُول) التي في البيت الذي قبل هذا:

فَما عَجُولٌ عَلى بَوٍّ تُطيفُ بهِ ... لَها حَنينانِ إصْغارٌ وإكْبارُ[٢]

أسندتها إلى المصدر (إقبال وإدبار) وإنما أرادت أنها مقبلة مدبرة فهو مجاز عقليّ علاقته الفاعلية.

إن للمجاز العقلي في الكلام لشأناً عظيماً؛ ولذا فأنت تراه مرتكزاً في طبائع الناس يعبرون به وإن لم يعرفوا اسمه، ألا تسمعهم يقولون: «فلان أصلحه الزواج وغيّره المال» و«أنت نَجَّتْك أمانتُك» و«فلان نفعَتْه تقوى والديه» و«هذا رفعه العلم»

---

(١) ديوانها، ص٤٨. تصف الناقة حيث تمثل حزنها على أخيها بحزن هذه الناقة التي فقدت وليدها، فإنما هي إقبالٌ وإدبار: لا تنفك تقبل وتُدبر فهما - أي الإقبال والإدبار - سجيةٌ لها وديدن.

(٢) العَجول: بفتح العين: الثكلى من النساء والإبل التي فقدت ولدها وسميت بذلك لعجلتها في ذهابها وإيابها جزعاً، البوّ: أن يُنحر ولد الناقة ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه، وفي الديوان: (فإنما هي إعلانٌ وإسرار).

و«ذاك قتله طمعه» و«هذه أشقاها جمالها» و«تلك سما بها خُلقها» و«علَّمَنا الاستعمار دروساً لا ننساها» و«هذا بيت مضيء»، ويقول بعضهم لبعض: «منزل عامر»، و«سفرة دائمة» إلى غير ذلك من العبارات الكثيرة وكلها من المجاز العقلي كما ترى.

ولقد أشار الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - إلى هذا اللون من المجاز مبيناً ما له من فضيلة في القول، وقد سماه (المجاز الحكمي)، ومن الخير أن ننقل لك شيئاً مما كتبه في كتابه «الدلائل» لنختم به الحديث، ولا يفوتنا قبل ذلك أن ننبهك على أن المجاز العقلي قد جرت عادة المؤلفين القدامى أن يذكروه في علم المعاني لا في علم البيان، كما يفعل المحدثون اليوم، وذلك عندما يتحدثون عن الإسناد الخبري، وهو الباب الأول من أبواب علم المعاني، يقسمونه إلى إسناد حقيقي، وإسناد مجازي، وهو إسناد الفعل أو ما في معناه لغير ما هو له، وهو المجاز العقلي. ثم يقسمونه بعد ذلك إلى أربعة أقسام لأن كل مجاز عقلي - كما رأيت من قبل - لا بد له من طرفين: مسند، ومسند إليه، وهذان الطرفان يمكنك أن تجدهما في كل مثال مما سبق كإسناد البناء إلى الإسلام في قولنا: «بنَى الإسلامُ لنا دولة»، وإسناد الصوم إلى النهار، فالطرفان إما أن يكونا:

١- حقيقيَّين نحو «أنبت الربيعُ البقلَ» .

٢- أو مجازيَّين نحو «أحيا الأرضَ شبابُ الزمان» .

٣- أو مختلفين نحو «أحيا الأرضَ الربيعُ»، و «أنبت البقلَ شبابُ الزمان» ، ولا نرى في ذلك كثير فائدة في هذا الموضوع.

وحتى لا تتشعب بك السبل نذكر لك ما وعدناك به من كلام الشيخ - رحمه الله تعالى - . يقول: «اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبلُ، أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها، ولكن تريد معنى ما هو رِدْفٌ له أو شبيه، فتجوَّزت بذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه، وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوُّز في حكم يُجرَى على الكلمة فقط، وتكون الكلمةُ متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير

تورية ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: «نهارك صائم»، و«ليلك قائم» و«نام ليلي» و«تجلّى همّي»: وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة:١٦] وقول الفرزدق[١]:

سَقَتْها خُروقٌ في المَسامِعِ لَمْ تكُنْ عِلاطاً ولا مَخْبوطَةً في المَلاغِمِ

أنت ترى مجازاً في هذا كلّه، ولكن لا في ذوات الكلم وأنفُس الألفاظ، ولكن في أحكامٍ أجريت عليها، أفلا ترى أنك لم تتجوَّز في قولك: «نهارُك صائم»، و«ليلُك قائم»، في نفس «صائم» و«قائم» ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار والليل. وكذلك ليس المجاز في الآية لفظة (ربحت) نفسها ولكن في إسنادها إلى التجارة، وهكذا الحكم في قوله: (سقتها خروق): ليس التجوز في نفس (سقتها) ولكن في أن أسندها إلى الخروق.

أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أُريد به معناه الذي وُضع له على وجهه وحقيقته؟ فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام، ولا ربحت غير الربح، ولا بسقَت غير السقي، كما لم يرد بسالت غير السيل في قوله:

وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك، من أن من شأنه أن يَفخُمَ عليه المعنى، وتحدُث فيه النباهة، قائمٌ لك مثلُه ههنا، فليس يشتبه على عاقل أن ليس حالُ المعنى وموقعُه في قوله:

فنام ليلي وتجلّى همّي

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٩٧. والبيت ليس في ديوان الفرزدق، خروق في المسامع، أي: ثقوبٌ في آذان الإبل وهي سمةٌ لها، العلاط: سمة في عنق الإبل، مخبوطة: معلمة وموسومة، الملاغم: الفم والأنف والأشداق، ذكر إبل قومٍ من السادة ضلت، فعرف الناس، من علاطتها أصحابَها وعنوا بها. والمعنى: لم تكن هذه سمات إبله بل سماتها خروقٌ في آذانها، ولما رآها الذائدون عن الحوض سقوها لعزة أصحابها فكأنما الخروق هي التي سقتها الماء لأنها دلت عليها فأوردتها الماء، وأبعدت الذائدين عنها.

كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: «فنمْتُ في ليلي وتجلّى همي»، كما لم يكن الحال في قولك: «رأيت أسداً» كالحال في: «رأيت رجلاً كالأسد» ومن الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المزيّة، وصورةُ الفرقان بين قوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ وبين أن يقال: «فما ربحوا في تجارتهم»، وإن أردت أن تزداد للأمر تبيناً فانظر إلى بيت الفرزدق:

يَحْمِي إذا اختُرِطَ السُّيُوفُ نِساءَنَا ... ضَرْبٌ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أرْعَلُ

وإلى رونقه ومائه وإلى ما عليه من الطّلاوة. ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة وقل: «نحمي إذا اختُرِط السيوف نساءنا بضربٍ تطير له السواعد أرعل»، ثم اسبُر حالك؟ هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟ وهذا الضرب من المجاز على حِدَته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلِق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيدَ المرام، قريباً من الأفهام، ولا يغرنّك من أمره أنك ترى الرجل يقول: «أتى بي الشوق إلى لقائك» و«سار بي الحنين إلى رؤيتك»، و«أقدمني بلدك حقٌ لي على إنسان»، وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يُشكِل أمرها، فليس هو كذلك أبداً بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تأنق لها».

ثم ينبه الشيخ إلى قضية دقيقة لابد أن نشير إليها يقول:

«واعلم أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عُدْتَ به إلى الحقيقة، مثل أنك تقول في «ربحت تجارتهم» ربحوا في تجارتهم وفي «يحمي نساءنا ضربٌ» «نحمي نساءنا بضرب»، فإن ذلك لا يتأتى في كل شيء، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك: «أقدمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان»: فاعلاً سوى الحق؟؟ وكذلك لا تستطيع في قول محمد اليزيدي[(١)]:

---

(١) معاهد التنصيص، ١/٨٢. المعنى: أي: صيرني الله بهواك وحالي هذه – وهي أن يضرب بي المثل – أي: أهلكني الله ابتلاءً بسبب هواك.

وَصَيَّرني هَواكِ وَبي ... لِحَيْني يُضْرَبُ المَثَلُ

وقول أبي نواس[1]:

يَزيدُكَ وَجْهُهُ حُسناً ... إذا ما زِدْتَهُ نَظَرا

أن تزعم أن لـ (صيّرني) فاعلاً قد نُقل عنه الفعل فجُعل للهوى كما فعل ذلك في «ربحت تجارتهم» و«يحمي نساءنا ضرب»، ولا تستطيع كذلك أن تقدر للفعل (يزيد) في قوله: «يزيدك وجه» فاعلاً غير الوجه، فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته.

معنى ذلك أن «القدوم» في قولك: «اقدمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان»، موجود على الحقيقة، وكذلك الصيرورة في قوله: «وصيّرني هواك»، والزيادة في قوله: «يزيدك وجهه» موجودتان على الحقيقة، وإذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسِه، وإذا لم يكن المجاز في نفسِ اللفظ، كان لا محالة في الحكم، فاعرف هذه الجملة، وأحسِنْ ضبطها، حتى تكون على بصيرة من الأمر»[2].

نقلت لك هذا النص من كلام الشيخ لكي تدرك ما أعطيه من دقّة فهم، وقوة إدراك ينفذ منها إلى المعاني بصفاء قريحة، ولتدرك موقف الذين كانوا عالةً عليه من عبارته هذه فلقد كان موقف الناقد المعترض، ولا بد أن نشرح لك كلمة الشيخ أولاً:

يقول: إن المجاز العقلي نوعان، نوعٌ يسهل فيه تقدير الفاعل، وجاء لذلك بمثالين اثنين قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة:١٦] فإسناد الربح إلى التجارة مجاز عقلي لأن التجارة لا تربح، إنما تكون سبباً في الربح، فالتقدير إذن (ما ربحوا في تجارتهم) فهو مجاز عقلي علاقته السببية. المثال الثاني قول الفرزدق: «يحمي نساءَنا ضربٌ» فإن الضرب سبب في الحماية وقد تقدم لك هذا من قبل.

---

(١) معاهد التنصيص، ١/ ٧٨.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٢٢٧-٢٣٠.

النوع الثاني من المجاز العقلي: ما لا يسهل فيه تقدير الفاعل، بل يحتاج إلى تأمل وروية وفكر، ومثّل لذلك بقوله: «اقدمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان»، و«صيَّرني هواك»، وقوله: «يزيدك وجهُه حسناً إذا ما زدته نظراً»، فإن في هذه الأمثلة جميعاً مجازاً عقلياً، ففي المثال الأول: الذي أقدمه البلد حقٌّ له على فلان، إذن قدومه للبلد بسبب الحق الذي له، وكذلك صيّرني هواك فإن الهوى كان سبباً في تصييره ليُضرب به المثل، وكذلك المثال الثالث كان الوجه سبباً في زيادته حسناً.

## المبحث الثاني

# المجاز اللغوي

**المجاز المرسل :**

المجاز المرسل مجاز لغوي - كما عرف من قبل - علاقته غير المشابهة، وسمي مرسلاً، لأن الإرسال هو الإطلاق، فهو مطلق في علاقاته، أي: ليس له علاقة معينة كما هو الشأن في الاستعارة، فالاستعارة علاقتها المشابهة كما عرفت، وللمجاز المرسل علاقات كثيرة، ولكن بعضها لا يخلو من تكلف وسنذكر لك أكثر هذه العلاقة دوراناً في الكلام البليغ.

١- السببية: وذاك إذا كانت الكلمة المذكورة التي استعملت في غير ما وضعت له سبباً في المعنى المراد من القول، خذ مثلاً قولهم: «رعينا الغيث» فإن المراد من هذا القول أنهم رعوا النبات، فكلمة (الغيث) استُعملت في غير ما وُضعت له، ولكن هذا الغيث سبب في النبات، وهذا ما سوّغ المجاز في هذه الكلمة.

ومن المجاز المرسل: إطلاق اليد على النعمة لأنها سببها، تقولك «لفلان يد عندي»، ومنه إطلاق اليد على القدرة، ومن المجاز المرسل قولهم لراعي الإبل: «إن له عليها لأصبعاً»، ذلك لما لحركة الأصبع من حُسْن التدبير والتسيير، ولعل من المفيد أن ننبهك هنا على أمر قد يلتبس عليك.

عندما حدثناك عن المجاز العقلي ذكرنا أن من علاقاته السببية، وقد تتساءل: ما الفرق بين السببية في المجاز العقلي والسببية في المجاز المرسل؟ والحقيقة أن الفرق بينهما كبير وإن كانت التسمية واحدة، فالسببية في المجاز العقلي لم تخرج بالكلمات عما وُضعت له في اللغة، فقوله سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة:١٦] استُعملت فيه كلتا الكلمتين أعني (الربح) و(التجارة) في المعنى الذي وضعته اللغة لكل منهما، أما

في قولنا: «رعينا الغيث» و«جلّت يد فلان عندي» فإن كلمتي (الغيث) و(اليد) استُعملت كل منهما في غير ما وُضعت له، فقد استُعمل الغيث في النبات، واليد في النعمة.

٢- المُسبَّبية بفتح الباء الأولى: وذلك حينما يكون اللفظ المذكور مُسبَّباً عن المعنى المراد، ويكون المعنى المراد سبباً في اللفظ المذكور، استمع إلى قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ [غافر:١٣] وأنت خبير بأن الله يكرم عباده بإنزال الماء من السماء، وهذا الماء يكون سبباً في الرزق، فالرزق مُسبَّب عن الماء.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف:٢٦] فإن اللباس إنما هو من بعض النباتات المسببة عن الماء. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر:٦] ولعلك تدرك أنه قد يكون في هذا النوع أكثر من سبب واحد وأكثر من وساطة واحدة كما في الآيتين السابقتين(١).

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦] فإن المعنى: (إذا أردتم القيام إلى الصلاة)، لأنه لا يعقل أن يقوموا إلى الصلاة غير متوضئين، فالغسل مسبب عن الإرادة، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨] أي: (إذا أردت قراءة القرآن)، لأن الاستعاذة قبل القراءة وليست بعدها فالإرادة سبب والاستعاذة مسبب، وقوله سبحانه: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤]، فإن مجيء البأس لا يترتب على الإهلاك

---

(١) فاللباس المذكور في الآية الكريمة منسوج من القطن أو الصوف أو الكتان، والصوف أخذ من الماشية أو من بعض الأنعام، والنبات سبب فيه، والماء سبب للنبات، فكلمة اللباس التي امتن الله علينا بإنزالها من السماء مرت في أكثر من مرحلة، وكان لها أكثر من سبب، لأن الله نزل لنا الماء، واللباس مسبب عنه، ولكن بينهما وسائط متعددة، وكذلك تقول في: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر:٦].

لأنه هو الإهلاك نفسه، بل يترتب على الإرادة، والمعنى - والله أعلم - (أردنا هلاكها فجاءها بأسنا) فإرادة الإهلاك سبب، ومجيء البأس مسبب عنه.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النساء:١٠] فالنار مسببة عما أكلوه ظلماً وعدواناً.

٣- **الجزئية**: تكون علاقة المجاز المرسل الجزئية إذا كان اللفظ المستعمل جزءاً من المعنى المراد وذلك كقوله سبحانه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ [التوبة:١٠٨] والحديث عن مسجد الضرار، والمراد من القيام الصلاة، ولما كان القيام جزءاً من الصلاة، حَسُنَ أن يستعمل فيها ويدل عليها، ومثل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١-٢] ومنه قوله ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»[1].

ومن المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية قوله سبحانه: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء:٩٢] ولا شك أن المقصود تحرير الإنسان المؤمن، والرقبة جزء منه، ومن هذا إطلاق العين على الجاسوس، تقول: «ما أجدر أمتنا أن تبث العيون لتتّقي مكر عدوِّها».

وإذا رجعت إلى الأمثلة السابقة تدرك أن العلاقة الجزئية في المجاز لكي تؤدي غرضاً بيانياً لا بد لها من شروط فليس كل جزء يمكن أن يعبّر به عن الكل، ألا ترى أن الرقبة التي عبّر بها عن الإنسان، هي من الأمور التي لا حياة بدونها؟؟ إذ لا يمكن أن نتصور إنساناً يعيش وقد انتزعت رقبته، ثم انظر إلى العين التي استعملت وأريد بها الجاسوس، ألا ترى أنها أكثر الأجزاء وأخطرها شأناً لمن أراد مراقبة الأعداء؟؟ ثم انظر إلى القيام الذي استعمل وأريد منه الصلاة، ألا ترى أنه من أشرف أركانها وأعظمها؟؟.

---

(١) رواه مسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح)، ١/ ٥٢٣.

الجزء الذي عبر به عن الكل في المجاز المرسل، لا بد له من أحد هذه الشروط التي ذكرناها لك في الأمثلة السابقة وهي:

أ- أن يكون انتفاء الجزء يستدعي انتفاء الكل كما في الرقبة.

ب- أن يكون الجزء هو المعوَّل عليه أكثر من غيره من الأجزاء، كالعين التي أريد بها الجاسوس.

ج- أن يكون الجزء ذا أهمية كالقيام بالنسبة للصلاة.

فإذا أردت أن تعبر عن فصاحة فلان من الناس تعبيراً مجازياً - تقول: «إنه لساننا الناطق»، لأن اللسان هو السبب المباشر في الكلام، وهكذا لا يجوز أن تعبر باللسان عن الجاسوس، ولا بالعين عن الخطابة، ولا باليد عن التفكير. فاليد في الأصل هي الجارحة، وقد منّ الله بها على بعض مخلوقاته، فللإنسان يدان وجمعها أيدي، وقد تطلق اليد ويُعبَّر بها عن القوة أو العطاء أو النعمة، فإن أريد بها هذا المعنى الأخير جمعت على (أيادي) وهذا من دقة العربية وإحكامها ولا عجب، ألم يجعلها الله تعالى قوالب لكلامه سبحانه: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر:٢٨].

وأنبهك هنا على شيء آخر وهو أن العبارة تستعمل فيها الكلمة فتكون من أسلوب المجاز المرسل حيناً والاستعارة حيناً والكناية حيناً آخر، كما أن هذا الاستعمال قد يكون استعمالاً حقيقياً، وإليك البيان:

- يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة:٦] وهذا لا شك استعمال حقيقي لليد.

- ويقول الرسول ﷺ لأمهات المؤمنين - عليهن رضوان الله -: «أسرعكُنّ بي لحوقاً أطولُكُن يداً» [1]. فهذا مجاز مرسل لأنه عبر بطول اليد عن العطاء، وهي سبب فيه، فهو مجاز مرسل علاقته السببية.

(١) أخرجه مسلم، كتاب (فضائل الصحابة)، باب (١٧) من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها حديث رقم (٢٤٥٢).

- وقد يكون إطلاق اليد من باب الاستعارة، استمع في ذلك إلى قول سيدنا رسول الله ﷺ - ويا ليت المسلمين والعالم يفقهون هذا القول العظيم - : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»(١).

- وقد يكون إطلاق اليد من باب الكناية، ومنه قوله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٢) - كما سيمر معك في باب الكناية، فانظر إلى فخامة اللغة ولغة الفخامة واعلم أن هذا مما لا تختص به هذه اللفظة وحدها (اليد) فهو في اللغة كثير.

٤- **الكُلّية**: وذلك حينما نستعمل الكل ونريد الجزء، قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة:١٩] وأنت تعلم أن الإصبع لا يمكن أن يُجعل كله في الأذن، ولكن لما كان الغرض التمثيل لحال المنافقين بحال ذوي الصيِّب الذين تزعجهم أصوات الرعد، فلو استطاعوا أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم لفعلوا ذلك، عبَّر بالإصبع وأراد الأنملة، فالعلاقة بين الإصبع، والأنملة، علاقة الجزء بالكل، وهذا ما سوّغ المجاز وحسّنه، ومن هذا القبيل قولك: (شربت ماء الفرات). وأنت إنما شربت جزءاً منه.

٥- **اعتبار ما كان**: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما كان عليه من قبل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٢]: حيث سمّى البالغين الذين آنسنا منهم رشداً (يتامى). وأنت تعلم أن اليتيم لا يجوز أن يعطى مالاً، ولكن الذي سوّغ المجاز هنا، أنهم كانوا كذلك في الماضي، ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤] وأنت تعلم أنه إنما كان مجرماً في

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب (الجهاد) باب (في السرية تُرد على أهل العسكر) حديث رقم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، ١/١٣، ومسلم، كتاب الإيمان باب (تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل)، (١/٦٥).

الدنيا، ومن هذا القبيل قولك: «أكلت قمحاً» ، و«شربت بُنّاً» وأنت قد أكلت الخبز، وشربت قهوة البنّ.

٦- اعتبار ما يكون: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما يؤول إليه في المستقبل قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١] وفي آية أخرى ﴿ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر:٥٣]، ولا شك أن العلم، والحلم سيؤول إليهما الأمر في المستقبل، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧]، وأنت تعلم أن المولود عند ولادته لا يكون كذلك وإنما يؤول إليهما فيما بعد. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠] ومن مات لا يخاطب. وقال تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف:٣٦] والمعصور إنما هو العنب الذي سيؤول إلى الخمر.

٧- الحالية: وهي أن يكون اللفظ المستعمل حالاً في المعنى المراد، فنطلق اسم الحال ونريد المحل، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٧] فالمراد من الآية الكريمة أنهم خالدون في الجنة، ولكن لما كانت الجنة محلاً للرحمة، والرحمة حالةٌ في الجنة، حَسُن أن يحلّ أحد المعنيين محل الآخر، أو إحدى الكلمتين محل الأخرى، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣] وأنت تعلم أن الجنة محل للنعيم، وهو حالٌ فيها.

ومنه قوله سبحانه: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف:٣١] والمراد اللباس، ولما كان اللباس محلاً للزينة، والزينة حالّة فيها، استعمل أحد المعنيين وأريد الآخر، ومثله قولك: «نزلت ببني فلان» وأنت تريد أرضهم ودارهم، ولما كانت الديار محلاً لهم، وهم حالون فيها أطلقنا إحدى الكلمتين على الأخرى.

٨- المحلية: وهو أن يكون اللفظ المستعمل محلاً والمعنى المراد حالاً فيه، قال تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ [العلق:١٧] والمراد أهل النادي الذي يحلون فيه، وقوله

سبحانه: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢] والمراد أهلها. وتقول: «قرر المجلس كذا» والمراد المجتمعون، و«ذهبت الجامعة في رحلة علمية» والمراد من فيها، و«ملأت الكأس من الإبريق» وأنت تريد من الماء الذي فيه.

٩- **الآلية**: وهو أن تكون الكلمة المستعملة آلة لما هو مراد. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم:٤] والمراد (بلغتهم)، واللسان – كما نعلم – آلة للغة، وقال تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٤]، وذلك إذا كان معنى الآية (اجعل لي ذكراً حسناً) لأن اللسان آلة له، ويمكن أن يكون سبباً فيه فتكون العلاقة سببية، وقد تفسر الآية تفسيراً آخر: وهو أن يراد بلسان الصدق الرسول ﷺ لأن الآية الكريمة وردت على لسان أبينا إبراهيم ﷺ، ومن دعائه كما جاء في كتاب الله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [البقرة:١٢٩] وعلى هذا التفسير يكون في الآية مجاز مرسل وعلاقته الجزئية لأن اللسان جزء من الإنسان، وصح استعمال الجزء هنا لأن عليه المعوّل فيما ذكر من أجله وهو تبليغ الدعوة[١].

١٠- **المجاورة**: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما يجاوره كإطلاق اسم الراوية على المزادة، والراوية هي الدابة التي تحمل المزادة، والمزادة: القِرَب التي يوضع فيها الماء، فيقولون: «خلت الراوية من الماء» ويريدون المزادة.

وقد ذكروا علاقات كثيرة للمجاز المرسل، وأمثلةً كثيرةً لكل علاقة، يظهر منها التصنع والتكلف[٢]، ومما سبق تدرك أنك إن أردت أن تعرف علاقة المجاز المرسل فانظر إلى الكلمة المستعملة، فإن كانت سبباً والمعنى المراد مسبباً فالعلاقة سببية، وإن

---

(١) وتدرك من هذه الآية الكريمة أن علاقة المجاز تختلف باختلاف المعنى المراد من الكلام وسيأتيك مزيد تفصيل لهذا الكلام إن شاء الله.

(٢) راجع الإتقان للسيوطي رحمه الله، والفوائد المشوق لابن النقيب الحنفي والذي كان يُنسب لابن القيم.

كان مسبباً والمعنى المراد سبباً فالعلاقة المسببية، وإن كانت كلاً والمعنى المراد جزءاً فالعلاقة كلية، وإن كانت جزءاً والمعنى المراد كلاً فالعلاقة الجزئية، ولنذكر لك الآن بعض الأمثلة على المجاز المرسل من الشعر.

**أمثلة على المجاز المرسل من الشعر :**

١- قال المتنبي[١]:

لَـــهُ أيـــادٍ عَلــــيَّ ســـــابقَةٌ      أعُـــــدُّ مِنهـــــا ولا أعَـــــدِّدُها

فاليد هي التي تمنح النعم فهي سبب فيها، فالعلاقة هنا السببية.

٢- ومنه قول جرير بن عطية[٢]:

إذا سَـقَطَ الـسَّماءُ بـأرْضِ قَـوْمٍ      رَعَيْنـــاهُ وإنْ كـــانُوا غِـــضابا

ومن البدهي أن السماء لا تُرعى، وتلك قرينة المجاز، فالذي يُرعى هو النبات، ولما كان السماء سبباً فيه حسنت هذه الكلمة في موضعها.

٣- وقال عنترة[٣]:

فَـشككْتُ بـالرُّمحِ الأصَمِّ ثِيابَـهُ      لـيسَ الكَـريمُ عَلَـى القَنـا بمُحَـرَّمِ

أي: شككت بالرمح جسمه، وإنما عبّر بالثياب لمجاورتها للقلب، فالمجاز مرسل علاقته المجاورة.

٤- قال ابن الزيّات:

الا مَـنْ رَأى الطِّفْـلَ المُفـارِقَ أمَّـهُ      بُعَيْـدَ الكَـرى عَيْنَـاهُ تَنْـسَكِبانِ

---

(١) ديوانه، ٢٨/٤.

(٢) العمدة، ٢٦٦/٢.

(٣) ديوانه، ص٢١٠، والبيت من معلقته.

يريد بالعينين دمعهما، لأن الدمع هو الذي يسيل فالعين محل للدموع، أطلق المحل وأراد الحالّ، فالمجاز مرسل علاقته المحلية[١].

٥- وقال الشاعر:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولا لِقَبْرِهِ    سَقَتْكَ الغَوادِي مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعا[٢]

أي: ألما على قبر معن، فأطلق الحالّ في القبر وهو معن وأراد المحل، فالمجاز مرسل علاقته الحاليّة.

٦- وقال معن بن أوس المزني في ابن أخته[٣]:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ    فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوافِي    فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

عبر الشاعر في البيت الثاني عن القصيدة بالقافية، والقافية جزء من القصيدة، فأطلق هنا الجزء وهو القافية وأراد الكل وهو القصيدة، فالمجاز مرسل علاقته الجزئية[٤]:

٧- وقال الشاعر يصف غيثاً:

أَقْبَلَ فِي المُسْتَنِّ مِنْ رَبابِهِ    أَسْنِمَةُ الآبالِ فِي سَحَابِهِ[٥]

أسنمة: جمع سنام وهو ما علا من ظهر البعير، وأراد به الشاعر الغيث لأن الأسنمة لا تتنزل من السماء إنما هي مسببة عن الغيث فعبر عنه - الغيث - بأسنمة

---

(١) ذكر صاحبا البلاغة الواضحة - رحمهما الله - أن هذا مجاز مرسل، والذي يبدو لنا أنه مجاز عقلي، إذ يقال فيه ما قيل في (سال الوادي) و(فاض الكاس)، ص٣٧٧، ولكل وجهه.

(٢) الغوادي: جمع غادية: وهي السحابة تمطر غدوةً، المربع: الموضع يقام فيه زمن الربيع.

(٣) ديوانه، ص٧٢.

(٤) وإنما صح استعمال الجزء هنا لأن القافية هي من أخطر أجزاء القصيدة.

(٥) الرباب: السحاب الأبيض، المستن: يقال استنت العين، أي: سال دمعها، والمقصود هنا نزول الغيث من السحاب.

الآبال لأنها مسببة عن النبات وهذا النبات مسبب عن الغيث فالمجاز مرسل علاقته السببية.

٨- وقال السموأل[١]:

تَسيلُ عَلَى حَدِّ الظُّباتِ نفوسُنا وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ الظُّباتِ تَسيلُ

يريد بالنفوس الدماء لأنها التي تسيل، ووجود النفس في الجسم سبب في وجود الدم فيه فالعلاقة السببية[٢].

٩- ويقول المتنبي في ذم كافور[٣]:

إنـّي نزَلْتُ بكَذّابينَ ضَيفُهُمُ عَنِ القِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ

يريد أنه نزل ببلد كذابين، لأن الكذابين لا يُنزل بهم وإنما بمكانهم، فالمجاز مرسل علاقته الحالية.

١٠- وقال الشاعر:

لا أركَبُ البَحْرَ إنّي أخافُ مِنْهُ المَعاطِبْ[٤]

طِينٌ أنا وَهْوَ ماءٌ والطِّينُ في الماءِ ذائِبْ

يريد بالبحر السفن التي تسير فيه، فأطلق المحل وأراد الحال، فالمجاز مُرسل وعلاقته المحلّية، وفي البيت الثاني: قوله: «طين أنا» فهو مجاز مُرسل علاقته اعتبار ما كان.

---

(١) ديوانه، ص٥٥. الظبات: جمع ظُبَة وهي حد السيف.

(٢) وإن أردنا بالنفس الإنسان والدم جزء منه، كان مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية.

(٣) ديوان المتنبي، ٢/١٤٢. يقول: هم كذابون، فلا هم يقرونه ولا هم يتركونه يرحل عنهم، محدود: ممنوع.

(٤) المعاطب: جمع معطب وهو مكان العطب، أي: الهلاك.

## المبحث الثالث
# الاستعـــارة

الاستعارة في اللغة من العاريّة، وهي نقل الشيء من شخص إلى شخص، وفيها معنى الرفع والتحويل، يقال: استعار فلان من كنانته سهماً، إذا رفعه وحوله منها إلى يده، وهذا ما يرشد إليه الرسول ﷺ في الحديث الشريف: «مثلُ المنافق كالشاة العائرة بين غنمين»(١)، بمعنى أنها تنتقل وتتحول لا تستقر على أمر، وهذا المعنى أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]، ولقد عرفنا من قبل أن هناك صلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، ومن هنا كانت الاستعارة في الاصطلاح ناتجة عن هذا المعنى اللغوي ومنبثقة عنه. ومع كثرة التعريفات التي قيلت في الاستعارة إلا أنها تلتقي جميعاً حول معنى واحد: وهو أن الاستعارة نقل اللفظ من معناه الذي عرف به ووضع له إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل.

وإذا كانت الاستعارة بين الناس لا تكون إلا بين فئة يعرف بعضها بعضاً فليس للمستعير أن يستعير إلا ممن يعرفه وله به صلة، وإذا كانت هذه العارِيَّة تصبح من اختصاص المستعار له ولكنها لا تخرج عن ملك صاحبها، وإذا كان الشيء المستعار لا بد من أن يكون مناسباً للمستعار له، إذا كان كل ذلك صحيحاً مقبولاً فإننا نجد ذلك كله في الاستعارة الاصطلاحية. إن الذي يستعير ثوباً من غيره، لا بد أن يكون هذا الثوب مناسباً للمستعار له، فإن كان ضيقاً أو متسعاً فالاستعارة لا تفيد ولا تجدي، والاستعارة في الاصطلاح كذلك لا بد فيها من صلة بين المستعار منه والمستعار له، إذ لا يصح أن نستعير لفظاً من معنى لمعنى آخر لا صلة له به.

---

(١) رواه مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ١٧.

**قيمة الاستعارة:**

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاستعارة هي من أدق أساليب البيان تعبيراً، وأرقها تأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى، ولا غروَ فهي منبثقة عن التشبيه الذي حدثناك عنه من قبل، وهل هي في الأصل إلا تشبيه؟! ولكنه تشبيه مضمر في النفس، ومعنى هذا أننا لم نأت بتشبيه ما لنجعل منه استعارة، ولكننا نضمر تشبيهاً ما في أنفسنا، ونحذف أحد طرفيه فندّعي أن أحد الطرفين هو عين الآخر، فالاستعارة تشبيه حُذف أحد طرفيه، فبيئة الاستعارة الأولى التي ولدت فيها ومقوماتها الأساسية هي النفس، وهذه قضية لا بد أن تتنبه لها.

**أركان الاستعارة:**

لا بد لكل استعارة من أن تشتمل على أركان ثلاثة:

١- المستعار.
٢- المستعار له.
٣- المستعار منه.

ونود أن تكون على ذكر مما قررناه لك عند تعريف المجاز وعناصره الخمسة لأن ذلك يعينك على معرفة ما نريده هنا، ولكن كيف نفهم هذه الأركان الثلاثة في الاستعارة، المستعار والمستعار له والمستعار منه، لنُنعم النظر في الآية الكريمة: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، في هذه الآية الكريمة استعارات ثلاث، الظلمات، النور، الصراط، ولكل من هذه أركانها الثلاثة، وإليك البيان:

في الاستعارة الأولى؛ المستعار: كلمة (الظلمات)، والمستعار له: (الكفر) ولا بد أن تتساءل هنا: فأين المستعار منه؟ وأذكرك بما قلته لك عند تعريف المجاز، بأنه لا بد فيه من كلمة ومعنيين؛ المعنى الذي وُضعت له الكلمة أولاً، والمعنى الذي استُعملت فيه ثانياً، والمستعار هنا كلمة (الظلمات)، وهل يستعار الشيء إلا من صاحبه

ومالكه؟ إذن لفظة (الظلمات) لا بد أن نستعيرها من معناها الذي وُضعت له، فمعنى الظلمة إذن هو المستعار منه.

وقل هذا في الاستعارة الثانية، فالمستعار: (النور)، والمستعار له: (الإيمان)، أما المستعار منه فهو المعنى الذي وُضعت له كلمة (النور)، أما الاستعارة الثالثة ففي كلمة (صراط) فالمستعار كلمة (الصراط)، والمستعار له (الإسلام)، والمستعار منه المعنى الذي وضعته العرب لكلمة (الصراط).

وعلى ضوء ما سبق يمكنك أن تستنتج أركان الاستعارة في قولنا: «عجبت من شمس تحمل بيمينها قمراً» و«رأيت أسداً يضيء المصحفُ قلبَه» ، و«عرفت بحراً يعطي بكلتا يديه»، فالمستعار في هذه الاستعارات الثلاث كلمات: (الشمس)، (الأسد)، (البحر)، أما المستعار له (فالحسناء)، و(الرجل الشجاع)، و(الجواد)، والمستعار منه هو: المعنى الذي وضعته العرب لكلمة (الشمس) وهو ذلك الجرم المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (أسد) وهو ذلك السبع المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (بحر) وهي تلك البقعة المائية من الأرض.

ويمكنك بعد هذا أن تدرك هذه القاعدة وهي أن المستعار له دائماً هو المشبه، وأن المستعار منه هو معنى المشبه به، وأن المستعار – وهو الكلمة – لفظ المشبه به، ويمكنك أن تستنتج قاعدة أخرى وهي أهمية المشبه به في المستعارة، إذ إنه الأساس لركنين من أركانها المستعار والمستعار منه، أما المشبه فليس إلا ركناً واحداً فقط، وهو المستعار له، واحرص على هذه القاعدة لاحتياجنا لها فيما بعد.

**الاستعارة مجاز لغوي أم عقلي:**

حدثناك من قبل أن الاستعارة مجاز لغوي، وهذا ما يرتئيه جمهور البيانيين، ذلك لأن الاستعارة نُقل فيها المستعار من المعنى اللغوي الذي وضعته اللغة إلى معنى آخر، ويدعي بعضهم أن الاستعارة مجاز عقلي، لأننا حينما أطلقنا كلمة الأسد على الإنسان فإن العقل كان له شأن وتدخل في هذا الإطلاق، ويحتجون لقولهم هذا بأن الاستعارة لو لم تكن مجازاً عقلياً لما كان فيها ما يدعو إلى العجب، ومعنى هذا: لو

كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعرف أننا نقلنا كلمة من معناها اللغوي لمعنى آخر، فحينما نقول: «كلّمت شمساً» ، ونريد حسناء فليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعلم أن كلمة (الشمس) استُعملت استعمالاً غير حقيقي، وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب - كما قلنا من قبل - لكننا وجدناهم يعجبون من مثل هذه الاستعارة، وليس هذا العجب إلا لأنها مجاز عقلي كان للعقل الأثر كل الأثر فيه.

واستمع إلى قول الشاعر:

قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نفْسٌ أَحَبُّ إليَّ مِنَ نَفْسِي
قَامَتْ تُظَلِّلُنِي ومِنْ عَجَبٍ شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

وقول الآخر:

لا تَعْجَبُوا مِنَ بِلَى غِلالَتِهِ قَدْ زرَّ أزْرارَهُ عَلى القَمَرِ

فالشاعر الأول يعجب من أن شمساً تظلله من الشمس، ولو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لعرف أن الذي يظلله إنسان بهي الطلعة، ولا داعي حين ذلك للعجب لأن من الأمور الطبيعية أن يظلل إنسان إنساناً آخر من الشمس. أما الشاعر الثاني فإنه يبين لمن يخاطبهم أن لا يعجبوا من بلى غلالته، والغلالة ثوب ضيق يلي جسم الإنسان، يقول: لا تعجبوا من بلى ثوبه فإن هذا الممدوح قد زرّ أزراره على القمر، ولو كان القمر استعارة لغوية، أي: إنسان بهي الطلعة ما كان ليبلى الثوب الذي يلبسه لأول مرة، إنما يبلى الكتان - كما يقولون - إذا لامس القمر الحقيقي. أما عند ملامسة جسم الإنسان فلا، وأنت خبير بأن قضية التعجب التي استدل بها هؤلاء لا يتم لهم بها دليل، ذلك لأن المقصود المبالغة، وتزيين الصورة بما يجلب الانتباه ويثير المشاعر وهذا لا يتنافى مع كون الاستعارة مجازاً لغوياً.

وكلام الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - في «دلائل الإعجاز» يُفهم منه هذا الرأي، إلا أن استقر في كتاب «أسرار البلاغة» على أنها مجاز لغوي. وهو ما نرجحه ونميل إليه.

**قرينة الاستعارة:**

والاستعارة كأي نوع من أنواع المجاز لا بد لها من قرينة وهذه القرينة قد تكون أمراً لفظياً، وذلك كالقول السابق:

شمــــس تظللـــــني مـــن الـــشمس

وقد تكون أمراً معنوياً يُفهم من السياق، وسيمر بك كثير من الأمثلة لكلا النوعين.

**الجامع في الاستعارة:**

لا ريب أنك تذكر وجه الشبه أحد أركان التشبيه، ولما كان الشأن في الاستعارة تشبيهاً مضمراً في النفس حذف أحد طرفيه كما عرفت، لا بد أن يكون بينها وبين التشبيه نوع مماثلة، ووجه الشبه في التشبيه هو المعنى الذي أُلحق من أجله المشبه بالمشبه به، ولكنا في الاستعارة نسميه اسماً آخر، نسميه (جامعاً) وهو ما أطلقنا عليه اسم (علاقة) حينما تحدثنا عن المجاز وأقسامه.

بعد هذا تتبين أن الاستعارة لا بد فيها من الأمور التالية:

١- المستعار والمستعار له والمستعار منه وهذه أركان الاستعارة.
٢- القرينة: لفظية كانت أم معنوية ملفوظاً بها أم مدركة من السياق.
٣- الجامع: وهو الجهة التي يشترك فيها المستعار منه والمستعار له.

**الاستعارة التصريحية والمكنية:**

**١- الاستعارة التصريحية:**

عرفت من قبل أن الاستعارة تشبيه حُذف أحد طرفيه، وقد عرفت أن طرفي التشبيه هم المشبه والمشبه به، فالطرف المحذوف إذن تارة يكون المشبه وتارة يكون المشبه به. خذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] والصراط هو الطريق – كما عرفت من قبل – قد شُبِّه الدِّين بالصراط بجامع التوصيل إلى الهدف في

كل منهما، وحُذف المشبه وهو الإسلام وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١] فقد شُبِّه الكفر بالظلمات. والإيمان بالنور وحُذف المشبه، وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قول المتنبي[(١)]:

تَعَرَّضَ لِي السَّحابُ وَقَدْ قَفَلْنا ... فَقُلْتُ إِلَيْكَ إِنَّ مَعِيْ السَّحابا

فقد ذكرت كلمة السحاب مرتين: المرة الأولى في الشطر الأول ويعني به السحاب الحقيقي، والمرة الثانية في الشطر الثاني ويعني به الممدوح الكريم والقرينة التي تدل على ذلك كلمة (معي)، لأنه لا يعقل أن يكون معه السحاب الحقيقي، واستمع إلى قول المتنبي[(٢)]:

ولَمْ أرَ مِثْلِي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ ... ولا رَجُلاً قامَتْ تُعانِقُهُ الأُسْدُ

فكل من كلمتي (البدر) و(الأسد) مشبه به في الأصل وقد حُذف المشبه، وقرينة ذلك كلمة (مشى) في الشطر الأول، و(تعانقه) في الشطر الثاني لأن البدر لا يمشي، ولأن الأُسْد لا تعانق.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ ﴾ [النساء:٢٥] وأصل العنت: كسرُ العظم، وأريد به في الآية الكريمة المشقة التي يجدها الإنسان في مكابدة شهوته، كما يدل عليه سياق الآية بجامع الإيلام في كل منهما، فقد شبهت المشقة بكسر العظم، وحُذف المشبه، واستمع إلى قول الشاعر[(٣)]:

فَأَمْطَرَت لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْداً وَعَضَّتْ على العُنابِ بالبَرَدِ

---

(١) ديوان المتنبي، ج١، ص٢٧٣. قفلنا: رجعنا، وإليك: بمعنى اكفف، يأمر السحاب بأن ينظر إلى الأمير يرجو مطره، كما ترجو الناس من السحاب. مبالغة في جود الأمير حتى صار السحاب مفتقراً إلى سقياه.

(٢) ديوانه، ج٢، ص٩٧.

(٣) وهو الوأواء الدمشقي.

ففي البيت خمس استعارات: فقد شبه الدمع باللؤلؤ، والعيون بالنرجس، والخدود بالورد، والأصابع بالعناب، والأسنان بالبرد.

ومن بديع الاستعارة قول امرئ القيس(1):

وَقَـدْ أغْتَـدِي والطَّيْـرُ في وُكُناتِهـا     بِمُنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوابـدِ هَيْكَـلِ

لما كان فرسه سريعاً يمنع الصيد من الفرار وصفه بأنه قيد، والقيد هو ما يوضع في الرِّجْل من الحديد؛ فيمنع المقيد من الحركة، ومن هنا كان لطف الاستعارة، فالفرس في الحقيقة مانع للصيد من الفرار، ولكن امرأ القيس تناسى كلمة مانع وعبّر بالقيد لأن القيد أقوى من المنع لأنه يحول بين المقيّد وبين الحركة.

في الأمثلة المتقدمة جميعها استعارات حُذف منها أحد طرفي التشبيه، وقد رأيت أن الطرف المحذوف هو المشبه والمذكور هو المشبه به. كل استعارة منُ هذا القبيل حُذف منها المشبه، وذكر المشبه به تسمى تصريحية؛ لأنه صرّح فيها بلفظ المشبه به.

**٢- الاستعارة المكنية:**

ولعلك تتوق نفسك إلى معرفة الاستعارة المكنية وهي التي حُذف منها المشبه به وذكر المشبه، ونبدؤك بقول الله تبارك وتعالى يوصي الإنسان خيراً بوالديه: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] وبقوله سبحانه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل:٩١] ولنقف مع هاتين الآيتين.

---

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٩، ٤٦. الوكنات: أعشاش الطير، المنجرد: الفرس القصير الشعر، ويقال: إنه المنسلخ الماضي عند السباق، الأوابد: الوحش، الهيكل: الفرس الضخم، والمعنى أنه يخرج مبكراً – قبل خروج الطير من أعشاشها – بفرسه السريع الضخم الذي يمنع الصيد من الفرار.

كلمة (النقض) استُعملت مرتين؛ مرة بجانب الغزل وهو ما يغزل من الصوف أو ما يشبهه، ومرة بجانب الأيْمان، وأنت تعلم أن النقض يُستعمل حقيقة للأشياء المادية فهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ استعمل فيما وضع له، لأنه وضع في تفريق الأشياء المادية، ولكن استعمالها في الآية الأولى ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ استعمال مجازي لأن الأيمان ليست شيئاً مادياً - كما تعلم - ولكن: أين الاستعارة في الآية الكريمة؟.

إننا ونحن ننعم النظر في الآية الكريمة نجد أن الأيْمان قد شُبهت بالحبال بجامع (الربط) في كل منهما، ثم حُذف المشبه به وهو (الحبال) وبقي المشبه وهو (الأيْمان)، وقد رمزنا له بشيء من لوازمه أي أبقينا له صفة تدل عليه، وهي النقض لأن النقض في الحقيقة من لوازم الحبال فهي التي تنقض.

أما الآية الأولى فقد أمر الله الأبناء أن يذِلوا للآباء، وقد شبّه الذل بالطائر وحُذف المشبه به ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الجناح، وهناك وجه آخر في الآية الكريمة وهو أن يشبه الجانب بالجناح فتكون الاستعارة تصريحية، وسنزيدك حديثاً عنها فيما بعد إن شاء الله.

واستمع إلى قول النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»[1] ولعلك تدرك بلا عناء ولا صعوبة أن هذه استعارة، فقد شُبِّه الإسلام بالبيت فكما أن للبيت أركاناً ودعائم يقوم عليها، فكذلك الإسلام، ولكن حُذف المشبه به وهو البيت، وأبقينا له شيئاً من صفاته الجوهرية، أي: رمزنا له بشيء من لوازمه وهو البناء؛ لأن البناء من لوازم البيت. واستمع كذلك إلى قول النبي ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[2] والشعبة شيء مادي كشعاب الجبال وشعاب الشجر، ففي الحديث الشريف تشبيه الإيمان وقد

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

تعددت أصوله وقضاياه بالشجرة ذات الشعاب والفروع الكثيرة وحُذف المشبه به وهو الشجرة، ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الشعبة.

واستمع إلى قول الشاعر[1]:

وإذا المَنِيَّـــةُ أنْـــشبَتْ أظْفارَهَـــا ... ألْفَيْـــتَ كُـــلَّ تَميمَـــةٍ لا تَنْفَـــعُ

وأظنك تدرك الآن على ضوء ما تقدم لك من الآيات والأحاديث السابقة أن الشاعر أراد تشبيه المنيّة بالسَّبُع الذي لا يفرق عند افتراسه بين الناس، وكذلك المنية، وقد حُذف المشبه به وهو السبع ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأظفار. واستمع إلى قول ابن المعتز[2]:

قَـــدِ انْقَـــضَتْ دَوْلَـــةُ الـــصِّيَامِ ... وَقَـــدْ بَـــشَّرَ سُـــقْمُ الهِـــلالِ بالعيـــدِ[3]

يَتْلُـــو الثُّرَيَّـــا كَفَـــاغِرٍ شَـــرِهٍ ... يَفْـــتَحُ فَـــاهُ لأكْـــلِ عُنْقُـــودِ

فقد أضاف الدولة للصيام، والدولة في الحقيقة تكون لذوي السلطان من الناس، فقد شُبِّه الصيام بصاحب الدولة بجامع النفوذ في كل وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الدولة.

ويقيني - بعد ذلك - أنك تتساءل عن سرّ الفرق بين النوعين، فالاستعارة التصريحية ذكر فيها المشبه به ولم يشر إلى المشبه بشيء. أما المكنية فقد حُذف منها المشبه به ولكنه رمز له بشيء من لوازمه، ولكي يسهل الجواب عليك وييسر لك أمره، فإني أذكرك بما قررته لك من قبل عندما حدثتك عن أركان الاستعارة، فلقد بينت لك أن

---

(١) وهو أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ١/ ٨٠.

(٢) ديوانه، ٣/ ٨٧، الصناعتين، ١٩٤.

(٣) وفي البيت مجاز آخر في قوله: (سقم الهلال) وقد حدثناك من قبل أنه مجاز مرسل علاقته السببية ولا مانع من أن تجعله استعارة مكنية كذلك فتشبه الهلال بالإنسان وتحذف المشبه به وترمز له بشيء من لوازمه وهو السقم.

للاستعارة أركاناً ثلاثة: المستعار له وهو المشبه، والمستعار والمستعار منه وهما لفظ المشبه به ومعناه.

المشبه به يشتمل على ركنين من أركان الاستعارة، إذن هو العنصر الرئيس، للك لا بد من فرق بينهما؛ لأن طبيعة كل منهما تختلف عن الآخر في الاستعارة، حذف المشبه يذهب بركن واحدٍ من أركانها فقط، وحذف المشبه به يذهب بركنين اثنين، كان لا بد إذن من أن نرمز بشيء من لوازمه وإلا فُقدت الاستعارة من الكلام، فلو حذفها كلمة (جناح) وكلمة (نقض) من الآيتين الكريمتين، وكلمتي (بُني) و(شُعْبَة) من الحديثين الشريفين وكلمة (دولة) وكلمة (أظفار) من البيتين السابقين، لزالت الاستعارة ولأصبح الكلام من أسلوب آخر غير أسلوب الاستعارة فلو قيل: «كن ذليلاً لوالديك». و«الإيمان بضع وستون قولاً وعملاً»، و«لا تحنثوا في أيمانكم» و«ذهب أثر الصيام»، و«الموت لا يفرق بين الناس». لم يكن ذلك من الاستعارة في شيء ولكن هذا الأثر الذي أبقيناه للمشبه به هو الذي دلّنا عليه.

بقيت في الاستعارة المكنية قضية خطيرة ذات شأن وأثر، وهي أن هذا الرمز للمشبه به، قد أضفناه أو أسندناه إلى المشبه، فالنقض الذي هو من لوازم الحبال أسندناه للأيمان مع أن الأيمان لا توصف على الحقيقة بالنقض، والأظفار التي هي من لوازم السّباع أسندناها للمنية، والمنية لا أظفار لها – كما تعلم – والجناح الذي هو من جوهريات الطير أضفناه للذل ومن البدهي أن الذل لا أجنحة له، والدولة التي هي من لوازم ذي السلطان أضفناها للصيام وهو معنىً من المعاني، والشعبة التي أسندناها للإيمان هي شيء مادي والإيمان ليس كذلك، البناء الذي أسندناه للإسلام من لوازم البيت، لأنه شيء مادي وليس الإسلام كذلك.

هذه العملية الفنية الرائعة، وهي إضافة أو إسناد أحد لوازم المشبه به إلى المشبه تسمى استعارة تخييلية، فلقد تخيلنا أن للمنية أظفاراً، وأن للإيمان شعباً، وأن للأيمان نقضاً، وهكذا الأمثلة جميعها.

نستطيع أن ندرك بعد هذا أن كل استعارة مكنية لا بد أن تشتمل على استعارة تخييلية مكنية، هي مكنية لأنها حذف منها المشبه به، وهي تخييلية لأننا أضفنا أو أسندنا

ما هو من لوازم المشبه به إلى المشبه – ففي قول النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»[(١)] استعارتان:

١- مكنية وهي تشبيه الإسلام بالبيت، وحَذفُ المشبه به والرمزُ له بشيء من لوازمه وهو البناء.

٢- وفي إسناد البناء للإسلام استعارة تخييلية، وهكذا الأمثلة السابقة جميعاً.

ومن هنا كانت الاستعارة المكنية أبلغ، وأكثر تأثيراً في النفس، وأجمل تصويراً، ذلك لأن العمل الإبداعي فيها أدقّ منه في الاستعارة التصريحية، ألا ترى أنها تبعث الحياة فيما ليس بحي؟ وتثير الحركة، وتنمي الخيال، فتضفي جمالاً وهي تضيف إلى الأشياء صفات تزينها وتجملها.

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧]. «النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين. ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: «يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها، فنخشى إن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك» وهذا من أسرار البلاغة، ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانته. ونحو قولك: «شجاع يفترس أقرانه»، «وعالم يغترف منه الناس»، «وإذا تزوجت امرأة فاستوثرها»، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالِم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش»[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الكشاف، ١/١١٩. روادفه، أي: لوازمه، فاستوثرها: الوثيرة: الكثيرة اللحم.

وخذ مثلاً قول أبي تمام[1]:

دِيْمَـةٌ سَـمْحَةُ القِيَـادِ سَـكُوبُ　　　مُـسْتَغِيْثٌ بهـا الثَّـرَى المَكْـرُوبُ

فانظر كيف صور الديمة بأنها سمحة القياد، ثم انظر إلى التصوير الرائع كيف صور لك هذا الجماد وهو هذا التراب هذه الصورة الحية المتحركة؟ كيف صوّره بصورة من يستغيث ويستجدي؟ وإذا سألت عن سر ذلك وجماله لم تجد سبباً لذلك إلا هذا الأسلوب الاستعاري، الاستعارة المكنية، فلقد شبه الثرى برجل مسّه الكرب، وأحاطت به اللأواء، وتملكته البأساء والضراء، ولقد أضمر الشاعر كل ذلك ورمز له بكلمة واحدة هي كلمة (مستغيث)، ثم أسند هذه الاستغاثة إلى الثرى، فكأنك وأنت تراها تحس بهذه الاستغاثة، وانظر إلى البيت الحماسي:

قَوْمٌ إذا الـشَّرُّ أَبْدَى ناجِذَيْـهِ لَهُـمْ　　　طَـارُوا إِلَيْـهِ زُرَافـاتٍ وَوُحْـدَانا

ألا تراه كيف صور الشر بمفترس كشَّر عن أنيابه؟ ، وهل تظن أن جمال ذلك يعود لغير الاستعارة المكنية التخييلية؟! المكنية لأنه شبه الشر بمفترس، والتخييلية لأنه جعل للشر ناجذين يبديهما. واستمع إلى قول الفرزدق[2]:

والشَّيْبُ يَنْهَضُ في الـشَّبَابِ كَأَنَّـهُ　　　لَيْـلٌ يَـصِيحُ بجانِبَيْـهِ نهـارُ

فهو يشبه الشيب وهو يلاحق الشباب ليزيله ويمحو آثاره، يشبه هذه الصورة بصورة الليل الذي يلاحقه النهار ليذهب أثره وليحل محلّه، هذا تشبيه تمثيل - كما رأيت - فهو تشبيه صورة بصورة، صورة سواد الشعر ليحل الشيب محله، بصورة سواد الليل الذي يطارده النهار، صورة شيء أسود يطارده شيء أبيض، ولكن الذي يعنينا الآن ما نحن بصدده، وهو ما في البيت من تصوير بالاستعارة المكنية التخييلية، ففي البيت استعارتان ألا ترى كيف أثار الحركة والحياة في الشيب وهو ينهض

(١) ديوانه، ١/ ٢٩١. وقصيدة ٢٣، والبيت مطلع قصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة.
(٢) ديوان الفرزدق، ص٩٠.

بالشباب؟ والنهوض من صفات الأحياء - كما تعلم - فقد شبه الشيب بذي بحياةٍ وقدرةٍ على النهوض وهذه المكنية وقد أسند النهوض إلى الشيب وتلك تخييلية.

أما الاستعارة الثانية فهي في الشطر الثاني فقد شبه النهار بذي الحاجة الذي يصيح لبلوغ حاجته وحذف المشبه به ورمز له بكلمة (يصيح) ثم أسندها إلى النهار وهذه التخييلية - كما عرفت -.

وما أبدع قول المتنبي[(١)]:

وَتُحْيِي لَـهُ المَـالَ الـصَّوارِمُ وَالقَنَـا      ويَقْتُـلُ مَـا تُحْيِـي التَّبَـسُّمُ وَالجِـدَا

ففيه استعارتان مكنيتان، الأولى: وهي في الشطر الأول، حيث شبه المال وقد جُمع بعد تفرق، وكَثُر بعد قلة، بالميت أعيدت له الحياة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحياة. كما شبه تفريق المال بعد جمعه بالحي، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (القتل)، وإسناد الحياة والقتل إلى المال تخييل.

وقبل أن أنتقل بك إلى تقسيم آخر، لا بد أن تعلم أن فضل الاستعارة المكنية يكمن في أنها تبعث الحياة والحركة في الأشياء كلها، فهي يقظة تخاطبك وتكلمك، ألا رأيت إلى التراب كيف يستغيث، وإلى الربيع كيف جاءك مختالاً ضاحكاً، ولكن حذار أن تظنّ أن في هذا القول انتقاصاً من الاستعارة التصريحية، فكل لها صورتها الجميلة. وإذا كانت الاستعارة المكنية تبعث الحياة في الأشياء؛ فإن في الاستعارة التصريحية صوراً للمعاني الذهنية الفكرية المجردة، تجسدت فكانت توجيهاتٍ حيةً في مجالات الحياة جميعها، كما بينته لك من قبل، وكما سأبينه لك فيما بعد - إن شاء الله - في قوله سبحانه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤] وقوله: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾ [الأنبياء:١٨]، كلٌّ من الأسلوبين إذن - أسلوب التصريحية وأسلوب المكنية - له مسوغاته وسياقه وعناصره المؤثرة الجميلة.

---

(١) ديوان المتنبي، ٢/ ٤.

**إجراء الاستعارة:**

وقبل أن نواصل حديثنا عن أقسام الاستعارة، نرى لزاماً علينا أن نقف وقفة ميدانية، نحدثك فيها عن إجراء الاستعارة ونبادرك القول بأن إجراء الاستعارة لا نعني به إلا أن تروز نفسك، وتختبر إدراكك اختباراً عملياً، بعد أن عرفت نظرياً بعض الجوانب في أسلوب الاستعارة. ونمثل لك هذا الإجراء بقضية الإعراب في النحو، وتقطيع الشعر في العروض، والميزان في الصرف، فمن أحاط بقواعد النحو وعرف مسائله، واستجمع أصوله وفصوله، فإنك لا تطمئن لمعرفته إلا عندما تجده بارعاً في إعراب الجمل، مبيناً مواقع أجزائها من الإعراب، فإن لم يستطع ذلك فإن معرفته للقواعد وإلمامه بالفصول لا تجديه شيئاً، كذلك الذي يدرس فن العروض، فإنك لا تعدّه حاذقاً إلا إذا كان يستطيع تقطيع البيت من الشعر، وبيان ما فيه من علل، وما يجوز وما لا يجوز، كذلك الذي يدرس علم الصرف، لا بد لكي يكون ذا مهارة وخبرة أن يزن الكلمات التي تمر به، ويدرك مواطن الإعلال والإبدال، والقلب ومواطن التصغير وكيفيته، وأحوال النسب.

إجراء الاستعارة – إذن – هو الثمرة العملية التي يختبر بها دارس البيات. ولنذكر لك بعض الأمثلة لتقيس عليها غيرها، فإجراء الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، تقول فيه: شبّه التبليغ بالصدع بجامع المشقة في كلّ، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من الصدع فعل الأمر (اصْدَعْ) بمعنى (بَلِّغْ) على سبيل الاستعارة التبعية، التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله. وتقول في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [آل عمران:١٠٣] شبه العهد بالحبل بجامع النجاة في كلّ، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

وتقول في قول سبحانه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ ﴾ [الحديد:١٧] شُبِّهت الأرض الهامدة، وقد أنبتت واهتزت وربت، بالميت نُفخت فيه الروح، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإحياء على سبيل الاستعارة المكنية، وإسناد

الإحياء إلى الأرض استعارة تخييلية. ولك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول: شبه التزيين بالإحياء بجامع الفائدة في كلٍّ، واشتق من الإحياء (يحيي) بمعنى (يُزيِّن) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وسيأتي لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله.

وتقول في قوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، شُبِّهت الولاية والمودة بين المؤمنين وغيرهم بباطن الثوب الذي يلي الجسم، بجامع القرب في كلٍّ، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وتقول في قول ابن المعتز[(١)]:

جُمِعَ الحَقُّ لنا في إمامٍ　　قَتَلَ البُخْلَ وَأَحْيَا السَّمَاحَا

شبه البخل برجل مقتول، وشبه السماحة برجل بُعثت فيه الحياة بعد القتل، وحذف المشبه به في الموضعين ورمز له بشيء من لوازمه وهو (قتَلَ) و(أحيا)، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية.

وإذا أردت أن تجري الاستعارة في قولك: «يفتك بنا عدونا بسلاحه، ونحن نقتله بالتصريحات» شبه ما نتوهمه مما يؤذي العدو بالقتل، على سبيل الاستعارة التصريحية التهكمية. وتقول في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك: ١٥] شبهت الأرض وقد سخرها الله لنا، بالحيوان المذلل، وحذف المشبه به – وهو الحيوان – ورمز له بشيء من لوازمه وهي المناكب على سبيل الاستعارة المكنية، وإضافة المناكب إلى الأرض استعارة تخييلية. وتجري الاستعارة في قول ابن المعتز[(٢)]:

سَالَتْ عَلَيْهِ وُجُوهُ الحَيِّ حِينَ دَعَا　　أَنْصَارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

---

(١) ديوانه، ص١٣٣.

(٢) دلائل الإعجاز، ص١١٨. بوجوه كالدنانير، أي: مشرقة متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم والزهو بزعيمهم.

فالسيل – كما تعلم – للماء وأسندها لوجوه الحي، شبه سرعة الناس في إجابة دعوته – الممدوح – بالماء في سرعة سيله وتدفقه، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية. وأسند السيل الذي هو من لوازم المشبه به – الماء – إلى المشبه على سبيل الاستعارة التخييلية.

أما قوله سبحانه: ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [الملك:٧]، وقوله: ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴾ [الفرقان:١٢] فلك أن تقول في الآية الأولى: شبه جهنم بصاحب الصوت البشع، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الشهيق، على سبيل الاستعارة المكنية والتخييلية، ولك أن تجري الاستعارة هكذا: شبه ما يُسمع من غليان جنهم بالشهيق. بجامع الاستبشاع في كلٍّ، وحذف المشبه، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. تقول في الآية الثانية: شبهت جهنم بمن يرقب عدوه ويتحفز للإيقاع به، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (رأى) على سبيل الاستعارة المكنية، وأسندت الرؤية لجهنم على سبيل الاستعارة التخييلية.

**الاستعارة الأصلية والتبعية:**

كانت التقسيمات السابقة للاستعارة – كما رأيت – باعتبارات مختلفة، فتارة من حيث المحسوس والمعقول أي من حيث ما يدرك بالحواس أوْ لا، ومن حيث اجتماع ركنيها أو عدم اجتماعهما، ومن حيث وجود المشبه أو المشبه به، ومن حيث تحقق المستعار له أو عدم تحققه، ونقسمها الآن من حيثية أخرى وهي لفظ المستعار، ففي هذا التقسيم ننظر إلى لفظ المستعار، من أي فئة هو، من فئات الكلمة المعروفة: الاسم، والفعل والحرف؟، ولنرى كذلك أي الفصائل التي ينتسب إليها؛ أينسب إلى فصيلة المشتقات أم إلى فصيلة الجوامد؟ وأنت تعلم أنهم قد قسموا الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، وقسموا الاسم إلى جامدٍ ومشتق، ويعنون بالمشتق ما أخذ عن غيره. أما الجامد فقد يكون اسم جنس: كالأسد، والإنسان، وقد يكون اسم معنى: كالقتل، والطغيان، والصدع، وأظن الفرق بينهما واضحاً لا يحتاج إلى شرح، فاسم الجنس له

وجوده في الخارج، أما اسم المعنى فليس من هذا القبيل إنما يقوم بغيره، ألا ترى أنه ليس هناك شيء اسمه القتل له وجوده في الخارج إنما هو معنىً يقوم بغيره كالقاتل الذي حدث منه القتل، والمقتول الذي وقع عليه، وكذلك الطغيان، والصدع، والعدل، والإيمان.

إذا عرفت هذه المقدمات فاعلم أنهم قد نظروا في هذا التقسيم للفظ المستعار فوجوده تارةً جامداً، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وكقول المتنبي السابق:

وَلَمْ أَرَ قَبْلي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ    وَلا رَجُلاً قَامَتْ تُعانِقُهُ الأُسْدُ

وتارة وجدوه مشتقاً، ومن المشتقات: الفعل واسم الفاعل، واسم المفعول، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، فإذا كان المستعار اسماً جامداً سميت الاستعارة أصلية، وإذا كان المستعار مشتقاً سميت الاستعارة تبعية، ومن الاستعارة التبعية – كذلك – أن تكون الاستعارة في الحرف أو اسم الإشارة، وتدرك من هذا أن الأعلام الشخصية لا تجري فيها الاستعارات، إلا إذا اشتُهر العَلَمُ بصفة من الصفات فأصبح صالحاً لأن يكون مشبهاً به، فقد اشتُهر حاتم بالكرم، وسحبان بالخطابة، وباقل بالفهاهة[١]، فأصبحت هذه الأعلام صالحة لأن يشبه بها لا من حيث هي أعلام شخصية، ولكن من حيث ما اشتُهرت به من صفات، وعلى هذا فإن أبا بكر ﵁ اشتُهر بحروب الردة لما كان له من فضل قمعها، فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن يقف مثل هذا الموقف، وكذلك اشتُهر عمر ﵁ بالعدل فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن عُرف بالعدل في سيرته وحكمه، ومثل هذا (المتنبي) في الشعر، و(أبو رِغال)[٢] في

---

(١) أي التلعثم بالنطق وعدم القدرة على الإفصاح.

(٢) هو قسيّ بن منبه من بني إياد، صاحب القبر الذي يرجَمُ إلى اليوم بين مكة والطائف، يضربُ مثلاً للخيانة لأنه كان دليل الحبشة لما غزوا الكعبة وهلك معهم.

الخيانة، و(صلاح الدين) في التحرير، و(بطرس الناسك)[1] في الحقد على الإسلام، والاستعارة في هذه جميعاً استعارة أصلية.

يمكنك أن تمثل للاستعارة الأصلية إذن بقولك: «لا بد لهذا الليل من آخر»، و«لا بد أن يحمل المشعل صلاح الدين»، و«سيلاقي أبو رغال مصيره»، و«ما أحوج الردة التي نحياها اليوم إلى أبي بكر».

أما الاستعارة التبعية فيمكن أن نمثل لها بقوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [البقرة:١٦]، وبقوله: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وبقوله سبحانه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]، وبقوله: ﴿ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ ﴾ [الكهف:٩٩]، وبقوله: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١]، هذه الاستعارات جميعها – كما ترى – أفعال بعضها ماضٍ، وبعضها مضارع، وبعضها أمر، ففي الآية الأولى الاستعارة في قوله سبحانه: (اشتروا)، وفي الآية الثانية في قوله: (سكت)، وفي الآية الثالثة في قوله سبحانه: (اصدع). وهكذا فِعْلا (يموج) و(طغى) في الآيتين الرابعة والخامسة، وقبل أن نبين لك الاستعارات في هذه الآيات لا بد من الإشارة إلى علة التسمية. فتسميه الاستعارة بالأصلية لأنها لم تُبنَ على غيرها. أما التبعية فلأنها مبنية على استعارة أخرى فهي تابعة لها في إجرائها، بيان ذلك:

إن قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ المقصود به (استبدلوا الضلالة بالهدى)، لأن الضلالة لا تُشترى كما نعلم، ولكنها يمكن أن تُستبدل بغيرها، ولكننا عند إجراء الاستعارة، لا نقول: شبه (استبدلوا) بـ (اشتروا)، إنما نقول: شبه الاستبدال بالشراء وحذف الاستبدال. أو نقول إذا أردنا أن نتناسى التشبيه ألبتة:

---

(١) أحد قادة الحروب الصليبية كان فصيحاً شديد التأثير في تحريض الأوروبيين على الحروب الصليبية.

استعير الشراء للاستبدال ثم اشتق منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وفي الآية الثانية يقال: استعير السكوت للزوال لأن الغضب لا يسكت وإنما يزول، واشتق من السكوت (سكت) بمعنى (زال)، ويقال في الآية الثالثة: استعير الصدع للتبليغ واشتق منه (إصْدَعْ) بمعنى (بلّغ)، أما الآية الرابعة فيقال فيها: استعير الموج للحركة أو الاضطراب واشتق منه (يموج) بمعنى (يضطرب)، وهكذا في الآية الخامسة تقول: شُبه ارتفاع الماء الخارج عن حدّ الاعتدال بالطغيان واشتق من الطغيان (طغى) بمعنى (ارتفع).

وهكذا تقول في قول ابن المعتز:

جُمِعَ الحَقُّ لَنَا في إِمَامٍ ... قَتَلَ البُخْلَ وأَحْيَا السَّمَاحَا

استعير القتل لانتفاء البخل واشتق منه (قَتَلَ) بمعنى (أذهَبَ) واستعير الإحياء للوجود واشتق منه (أحيا) بمعنى (أوْجَدَ وأبقى).

**الاستعارة التبعية في الفعل:**

والاستعارة في الفعل يمكن أن ندركها من الفاعل، كالأمثلة السابقة في قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [الأعراف:١٥٤]، و«نطق الحال بكذا»، وقد ندركها من المفعول كما في قوله سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ ﴾ [الحديد:١٧]، وقول ابن المعتز: (قتل البخل وأحيا السماحا)، ألا ترى أنه لولا المفعول به هنا لم يكن في الكلام استعارة؟ لأن إسناد الإحياء إلى الله حقيقة، وإسناد القتل كذلك إلى الإمام حقيقة، وقد تكون هناك استعارة في الفعل ولكننا لا ندركها من الفاعل ولا من المفعول به الأول وإنما ندركها من المفعول الثاني. خذ مثلاً قولنا: «نقري عدونا» ألا ترى أن هذه الجملة لا تحتمل استعارة لأن (نقري) معناه (نكرم) ويمكن أن يكون ذلك على سبيل الحقيقة لكنك إذا قلت: «نقري عدونا سهاماً

مسمومة» فإنك لا تشك أن في الكلام استعارة ولكنك أدركتها من المفعول الثاني وهو قولك: (سهاماً) لأن السهام لا تصلح للقرى، وعلى هذا جاء قول القطامي[(١)]:

لَمْ تَلْقَ قَوماً هُمُ شَرٌّ لإخوَتِهِمْ مِنّا عَشِيَّةَ يَجْرِي بالدَّمِ الوَادِي
نُقْرِيهِمُ لَهْذَمِيّاتٍ نَقُدُّ بهَا مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ[(٢)]

وكل الذي عرفته عن الاستعارة في الفعل إنما هي باعتبار مدلوله ومعناه. وقد ذكروا أن هناك استعارة أخرى في الفعل لا من حيث معناه ومادته وإنما من حيث هيئته وصيغته، وأنت تعرف أن الفعل قد يكون ماضياً، أو مضارعاً، فإذا استعملت صيغةً مكانَ صيغة كأن تستعمل صيغة الماضي مكان صيغة المضارع، فإنهم عدّوا ذلك من الاستعارة، ذلك لأن صيغة الماضي استعملت في غير موضعها. مثّلوا لذلك بقوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ومعنى هذا أن أمر الله سيأتي بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقالوا في إجراء الاستعارة: إنه شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان في الماضي بجامع التحقق في كل، لأن وعد الله لا يتخلّف، واستعار لفظ المشبه به للمشبه ثم اشتق من الإتيان (أتى) بمعنى (يأتي) على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية والقرينة لفظية وهي قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف:٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠]، فهذه الأفعال الماضية أريد منها المستقبل؛ لأنها حديث عن يوم القيامة، ولكننا شبهنا المستقبل بالماضي بجامع التحقق والوجود في كلٍّ، ثم

---

(١) ديوان القطامي عمير بن شييم التغلبي، ٢/ ٦٣. أسرار البلاغة تحقيق هـ. ريتر، ص٥١.
(٢) نقريهم من قريت الضيف، واللهذم من الأسنة: القاطعة، واللهذميات منسوبة إليها، والقدُّ: القطع، وشمّنَ (خاط) معنى (قدّ) فعدّاه بـ(على)، وزرَدَ الدُّروعَ وسَرَدَها: نسجَها.

اشتق من النداء (نادى) بمعنى (ينادي)، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة معنوية، لأن الحديث عن يوم القيامة، وقال الشاعر:

وأعْلَمُ أنــنِّي سَـأكُونُ رَمْـساً ... إذا سَـارَ النَّـواعِجُ لا يَـسِيرُ
فَقَـالَ الـسَّائِلُونَ لِمَـنْ حَفَـرْتُمْ ... فَقَـالَ المُخْـبِرُونَ لَهُـمْ وَزِيـرُ(١)

فقد عبّر بالماضي في قوله: «فقال المخبرون» وأراد المضارع.

واعْلَمْ أنني ذكرت هذا مجاراةً للقوم فقد أوردوا هذا في كتبهم فكرهت مخالفتهم، فالقرآن الكريم كثيراً ما يستعمل الماضي في مكان المضارع، أو المضارع في مكان الماضي، وذلك لاستحضار الصورة لتكون أكثر تأثيراً في النفس، فهو حينما يذكر يوم القيامة – مثلاً – يذكر لنا مشاهده التي تحدث فيه بصيغة الماضي لأنه جسد لنا هذا اليوم كأننا نعيشه، وكثيراً ما يذكر لنا أشياء مضت بصيغة المضارع لتكون مستحضرةً أمامنا.

**إجراء آخر للاستعارة:**

إذا تأملت الاستعارات السابقة جميعاً وجدت أن كل استعارة تبعية تجيء قرينتها استعارة مكنية، ولكي نبين لك الأمر جلياً نذكرك بما عرفته من قبل، بأن كل استعارة وكل مجاز لا بد له من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي.

خذ مثلاً الآية السابقة ﴿ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ وهي استعارة تبعية كما عرفت وابحث عن قرينتها ستجد أن هذه القرينة هي الضلالة. وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ ﴾ وقد عرفت أن الاستعارة في قوله (سكت). وإذا بحثت عن قرينتها وجدتها في كلمة الغضب وهكذا الاستعارات الباقية.

وعلى هذا يمكنك إجراء الاستعارة إجراءً آخر غير الذي عرفته من قبل، عرفت من قبل أننا شبهنا الاستبدال بالاشتراء واشتققنا منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والوجه الآخر الذي يمكننا أن نجري عليه

---

(١) تفسير الطبري، ١/ ٧٠. الرمس: القبر، النواعج: جمع ناعجة وهي الناقة السريعة.

الاستعارة أن نقول: شبهت الضلالة بالسلعة، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (اشتروا) على سبيل الاستعارة المكنية، ونقول فيقوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ شُبِّه الغضبُ بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت على سبيل الاستعارة المكنية. ونقول في قول ابن المعتز:

قتـــل البخـــل وأحيـــا الـــسَّماحا

شبه كُلاً من البخل والسماحة بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو القتل والإحياء.

كل استعارة تصريحية تبعية – كما رأيت إذن – يمكن أن نجريها استعارة مكنية، ولكن حذار أن تجري الاستعارتين معاً فتعدّها تصريحية مكنية في وقتٍ واحد، فلا بدّ أن تلزم الاستعارة حالة واحدة، وأنت مخيّر في أيهما شئت، ولكن تبقى قضية الذوق الفيصل فيما ينبغي أن ترجحه من هذين الوجهين، خذ مثلاً قول المتنبي في وصف أسد[1]:

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيْــرَةَ شَــارِباً وَرَدَ الفُــرَاتَ زَئِــيرُهُ والنِّــيلا

والزئير كما تعلم هو صوت الأسد وليس من شأنه أن يرد وإنما من شأنه أن يصل، فيقال: (وصل صوته إلى كذا) ولا يقال: (ورد)، إذن لا بد من استعارة في قوله (ورد) فقد شبه وصول صوت الأسد إلى الفرات بورود الماء بجامع انتهاء كلٍّ إلى غايته، ثم استعير لفظ الورود وهو المشبه به إلى الوصول وهو المشبه، واشتق من (الورود)، بمعنى (الوصول) (ورد) بمعنى (وصل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، أما أنها تصريحية فلأنها ذكرت فيها لفظ المشبه به وهو الورود الذي اشتقت منه (ورد)، وأما أنه تبعية فلأنها جرت في المشتق وهو (ورد)، ويمكنك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول شبه الزئير بحيوان ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء

(١) ديوانه، ٣/ ٣٥٤.

من لوازمه وهو (ورد). ويقيننا أنه وإن جاز ذلك من الناحية الصناعية إلا أننا لا نرجحه من حيث فنّ الذوق. وهذا ما حرصت أن أنبهك عليه، إلاّ أنك في إجراء الاستعارة لا ينبغي أن تطغى عليك الناحية الصناعية بل عليك أن تحكّم الذوق فيما تختاره وترتئيه، وإليك مثلاً آخر:

قدمت لك قول أبي تمّام عند الاستعارة المكنية:

دِيْمَـــةٌ سَــمْحَةُ القِيَــادِ سَــكُوبُ　　مُــسْتَغِيثٌ بهَــا الثَّــرَى المَكْـرُوبُ

وقد عرفت أن المشبه به محذوف وأن هنا استعارتين مكنية وتخييلية، ولكن يمكنك أن تجري الاستعارة إجراءً آخر فتقول: شبهت حاجة التراب إلى الماء بالاستغاثة، فاستعير المشبه به للمشبه واشتق من الاستغاثة (مستغيث) بمعنى محتاج على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لأن (مستغيث) اسم فاعل، والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي (الثرى) لأنه ليس من شأنه أن يستغيث.

قل لي بربك وأنت توازن بين هذا الطريق في إجراء الاستعارة وبين ما قبله، أترتابُ في أن الذوق والفن والجمال الذي يحرك جوانب النفس ويثير مكامن الشعور، إنما هو في الطريق الأول الذي أجريت فيه الاستعارة على أنها مكنية. وخذ مثلاً قول ابن المعتز الذي قدمته لك من قبل (تروم الثريا) حيث أجرينا الاستعارة فذكرنا أنها مكنية تخييلية، وعلى القاعدة التي عرفت يمكنك أن تجري الاستعارة بطريق آخر تجعلها تصريحية تبعية بأن تشبه سير الثريا بالروم وتستعير المشبه به للمشبه، وتشتق من الروم (يروم) بمعنى (يسير)، ولكن هل تجد الحركة والحياة والشباب الذي وجدته هناك؟ اللهم لا! .

وتلك قضية أثرت أن أنبهك عليها لأني لم أجد أحداً من الفضلاء والكاتبين أشار إليها، مع أنها تستحق الإشارة - كما رأيت -.

**الاستعارة التبعية في غير الفعل:**

وكما تكون الاستعارة التبعية في الفعل تأتي كذلك في غيره من المشتقات، فمن مجيئها في اسم الفاعل، قولك لأحد التلاميذ: «هذا قاتِلُك عاقَبْتُهُ عقاباً شديداً»، والقتل إزالة الحياة، ولكنك تقصد الضرب المؤلم، فقد شبهت الضرب الشديد بالقتل

بجامع الإيلام في كل، وبعد أن استعرت القتل للضربِ اشتققت منه (قاتل) بمعنى ضارب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة الخطاب لأن المقتول لا يخاطب. ومن مجيئها اسمَ مفعول قولك، «هذا مقتول فلان» أي مضروبه، وتقول - وقد سُئلتَ عن كتاب لأحد المستغربين المتسبين لهذه الأمة بأسمائهم - : «إنه مخزون الشر» وتُسأل عن تصريحات لأحد الساسة فتقول: «إنها مجتمع الهزائم»، أو تصف إذاعة الأعداء فتقول: «إنها مرتكز الكذب» فكل من (مرتكز) و(مجتمع) [(١)] و(مخزون) اسم مفعول.

ومن مجيئها اسمَ تفضيل قولك: «هذا أقْتَلُ من فلان» أي أشد ضرباً. ومن مجيئها في اسم الآلة قولك لمن أراد أمراً من إنسانٍ ما «مفتاحُه فلان» تعني صديقاً له أو موظفاً معه، فقد شبهت الصداقة بالفتح بجامع الوصول للغاية في كل، ثم استعير من الفتح (مفتاح) وهو اسم آلة. وقول الرجل لزوجه: «أنت منشار جيبي ومطرقة رأسي» فلقد استعار النشر لفراغ الجيب، والطرق لتعب الرأس واشتق منهما اسمي آلة وهما (منشار) و(مطرقة)، وأن تتحدث عن رجل بأنه (مقراض الأعداء) أو عن أحد اللاهين بأنه (مزمار الحيّ).

ومن مجيئها اسم مكان قوله سبحانه: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢]، فلقد حدثناك من قبل عن الاستعارة في الآية الكريمة من أنها استعارة معقول لمعقول، حيث شبه الموت بالرقاد وكلاهما معقول، وإنما جاز هذا التشبيه لأن الرقاد أمر طبعي فيهم، فهم ينامون ويستيقظون، ثم حذف المشبه، فالاستعارة تصريحية، وهي أصلية - كذلك - لأن مرقد مصدر ميمي بمعنى الرقاد. ولكننا الآن نجري لك الاستعارة في الآية الكريمة على وجه آخر، وإياك أن تجد حرجاً في هذا فمن الممكن أن يكون للمثال الواحد أكثر من جهة: فتارة

---

(١) وقد تكون كل من (مجتمع) و(مرتكز) اسم مكان.

نجعله استعارة، وتارة مجازاً مرسلاً، كما رأينا في مثل قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٧].

والذي يعنينا هنا أن كلمة (مرقد) في الآية الكريمة يمكن أن تفسر بمكان الرقود وهو القبر ويقال في إجراء الاستعارة شبه الموت بالرقاد واستعير لفظ المشبه به للمشبه واشتق منه مرقد بمعنى القبر على سبيل الاستعارة التبعية.

ويمكن أن تمثل للاستعارة في اسم الزمان بقولك: ((يا للأسف ما بال أمتنا تعيش في مغرب صباها، حبذا لو نشهد مطلَع شمسها)) فإن المغرب والمطلع اسما زمان – كما تعلم – وأنت تقصد زمان الضعف والقوة، فاستعرت المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ومثل هذا قولك: ((متى نرى مغرب شمس العدوّ ومرقدَه)) فهنا استعارتان تبعيتان إحداهما في اسم الزمان والأخرى في اسم المكان.

**الاستعارة في الحرف:**

بقي أن نحدثك عن الاستعارة التبعية في الحرف ولعلك تتساءل: أليس الحرف جامداً والاستعارة التبعية إنما تكون في المشتقات؟ ثم كيف تكون الاستعارة في الحرف والحرف لا يدل على معنى في نفسه؟ إنما يدل على معنى في غيره؟ فكيف تكون الاستعارة في الحرف أولاً؟ ولماذا سميت تبعية مع أن الحرف ليس من المشتقات ثانياً؟ وهي قضية جديرة بالتجلية والبيان.

قسّم النحويون الكلمة إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنىً، فالاسم ما دل على معنى في نفسه غيرَ مقترن بزمان، والفعل ما دلّ على معنى في نفسه مقترناً بزمان والحرف ما دل على معنى في غيره، ألا ترى أن (هل) لا يفهم معناها إلا إذا اقترنت بغيرها، كذلك (مِنْ) و(على) و(في)، وبحسب وجود الحرف في الجملة يكون معناه، فإذا قلت: ((جئت من البيت إلى المسجد))، ((الطلاب في الحجرة))، ((صعد على المنصة))، فإننا ندرك أن (مِنْ) للابتداء، و(إلى) للانتهاء و(في) للظرفية، و(على) للاستعلاء.

إذا عرفت هذا كله، فاعلم أنهم حينما جعلوا الاستعارة في الحرف فإنهم لم ينظروا إلى الحرف نفسه، وإنما نظروا إلى متعلق معنى الحرف، ومتعلق معنى الحرف من المشتقات ولكي نتصور ذلك لا بد من أن نمر بمراحل ثلاث:

أولاً: الحرف.

ثانياً: معنى الحرف.

ثالثاً: متعلق هذا المعنى.

وسنمثل لك بما يسهل لك هذه القضية إن شاء الله. مثلاً قوله سبحانه يحدثنا عن حقد فرعون وغيظه وهو يقول للسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وأنت تعلم أن (في) للظرفية، وتعلم كذلك أن التصليب يكون على جذوع النخل – ولا يغرنك ما يقال من أن (في) بمعنى (على) فحروف الجر لا تتناوب كما يرى المحققون – لا بد من معرفة السبب الذي اختيرت من أجله كلمة (في)، وهذا ما سنعرفه عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن. إن ما يعنينا الآن إجراء هذه الاستعارة، ولا بأس أن نذكرك قبل هذا الإجراء بالأمور الثلاثة التي حدثناك عنها: الحرف، ومعناه، ومتعلق المعنى. فالحرف (على)، ومعناه الاستعلاء ومتعلق هذا المعنى هؤلاء المستعلون المصلبون على جذوع النخل. والحرف الثاني (في)، ومعناه الظرفية، ومتعلق الظرفية، هؤلاء المظروفون في جذوع النخل.

ففي الآية الكريمة: شبه متعلق معنى (على) بمتعلق معنى (في)، ومعنى (على) الاستعلاء ومعنى (في) الظرفية، فشبه متعلق الاستعلاء بمتعلق الظرفية، أي شبه المستعلي على الشيء بمن هو حالٌّ فيه بجامع الثبوت، فشبه المصلوبين وهم على جذوع النخل بمن هو في هذه الجذوع نفسها، هذه الاستعارة التبعية في الحرف. وإليك مثالاً آخر:

يقول الأب عن ابنه العاق «عَلَّمْتُهُ لِيُؤْذِيَنِي» الا ترى أن الأب لم يعلم الابن ليؤذيه؟ وإنما علمه ليكرمه، وهذه اللام تسمى لام التعليل، فمن أسباب تعليم الأب

لابنه أن يبرّه ويوقره، ولكن العاقبة كانت شيئاً آخر، فاستعيرت اللام التي هي للعلة للدلالة على العاقبة، بجامع ترتب كل منهما على ما قبله.

ومثل هذا قولنا «ضَحَّيْنَا فَخُضْنَا أكثرَ من حربٍ مع عدونا لنُهزَم ولنتنازلَ عن الأرضِ والمقدسات» ونحن لم ندخل الحرب من أجل هذا إنما دخلناها لنرضي الله ونرفع راية الدين، ونحرر الأرض، ونحمي العرض، لكن عاقبة الحروب كانت – كما نراه الآن – واللام للتعليل – كما عرفت – فشبه متعلق معنا التعليل بما آل إليه الأمر من العاقبة التي رأيت لَترتبِ كلٍ منهما على ما قبله، فإن كلاً من الانتصار، وتحرير الأرض، والتفريط فيها، مترتب على ما قبله وهو دخول الحرب، فالانتصار لا بد له من حرب والنتيجة المخزية تترتب على الحرب كذلك.

وأظنك تدرك الآن الاستعارة التبعية في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨]، وهم لم يلتقطوه لهذا، إنما علة الالتقاط أن يكون لهم قرة عين، ولكن لأن كلاً من هذين الأمرين: أعني كونه عدواً وحزناً، وكونه قُرَّةَ عين مترتب على الالتقاط، شبهت العلة بالعاقبة واستعير معنى اللام الدالة على التعليل للدلالة على العاقبة على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية.

أما الاستعارة في اسم الإشارة فكقولك: «هذا حقٌّ» وأنت تعلم أن الإشارة للمحسوس، ولكنا استعرنا اسم الإشارة من المحسوس للمعقول بجامع تحقق الوجود في كل منهما على سبيل الاستعارة التبعية.

أرجو أن يكون قد استبان لك أمر هذه الاستعارة ولنواصل الحديث عن أقسامها. ولنصل الحديث عن أقسام الاستعارة بعضه ببعض.

**الاستعارة التمثيلية:**

ما أظنك إلا أنك تذكر تشبيه التمثيل ولا زالت صورُه الخلاّبة البديعة تحتل من نفسك محلّها، وتبعث فيك الإعجاب، والحق أنَ بين الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي نسباً وصلة، فالتشبيه التمثيلي – كما رأيت – هو تشبيه مركب، وجه الشبه

فيه صورة منتزعة من متعدد، ليس إذن تشبيهاً مفرداً، كذلك الاستعارة التمثيلية، فأنواع الاستعارات التي مرت بك من قبل هي استعارات مفردة، ولذا فهي تسمى مجازاً مفرداً، ولذا يطلق بعضهم على الاستعارة التمثيلية اسم المجاز المركب.

الاستعارة التمثيلية إذن أن تشبه صورة بصورة لما بينهما من صلة من حيث المعنى ثم تحذف الصورة الأولى – المشبه – ويبقى المشبه به، خذ مثلاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة:١٨٩]، هدف الآية الكريمة – والله أعلم بمراده – توجيه للمسلمين أن لا ينشغلوا بغير ما يعود عليهم بالخير والفائدة، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم سيدنا رسول الله ﷺ عن الهلال ما باله يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ، فأرشدهم الله تبارك وتعالى إلى أنه من الأحرى بهم أن يسألهم عما يجديهم، وأن يعيشوا مع واقعهم، وأن تكون للأمور أولوياتها، فقال سبحانه: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ فقد شبهت حالة الذي يعني بغير ما يجديه، وينشغل بغير واقعه، ويعطي الأولوية في البحث لما من شأنه التأخير، ويترك ما من شأنه أن يُبحث، - كما هو شأن أمتنا اليوم - شُبِّه حال هذا بحال الذي يأتي البيت من ظهره، فهو مضطر أن ينقب ويخرب ليستطيع دخول البيت، وكان من حقه أن يلج البيت من بابه فهو أيسر من جهة، وليس فيه الضرر والخراب من جهة أخرى. فأنت ترى أنه قد ذكر المشبه به وهو من يأتي البيت من ظهره ولا يأتيه من بابه وهو صورة مركبة، ألا ما أحوج أمتنا إلى أن تعمل بهذا التوجيه الرباني؛ حتى تستطيع أن تدرك غايتها وتلحق بالركب قبل أن يفوت الأوان، وتصلح من شأنها قبل أن يتسع الخرق على الراقع، ليتها تنبذ هذه الخلافات الجانبية التي لا أقول: إنها لا تجديها شيئاً؛ بل إنها – ويعلم الله – تمزق ذاتها، وتُطمع فيها عدوّها فتهون عليه بعد أن تهون على الله تعالى.

ومن الاستعارة التمثيلية قول النبي ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين»[1]. وقد قاله ﷺ لأبي عَزّة الشاعر، وقد كان يهجو الرسول ﷺ والمسلمين، فلما أسر أظهر الندم، فمنّ عليه النبي ﷺ، ولكنه عاد بعد ذلك إلى سيرته الأولى، فلما أُسر المرة الثانية، رغب أن يُمَنَّ عليه، فقال له الرسول ﷺ هذا القول العظيم، الذي صار مثلاً يُضرب.

تلك هي الاستعارة التمثيلية وهي ما اشتُهر على ألسنة الناس حتى أولئك الذين لم يدرسوا البلاغة أو الاستعارة أو المجاز، ألا تسمعهم يقولون لمن يزاول أمراً يمكن أن يكون فيه خطر عليه وإضرار به: «فلان يلعب بالنار»، ويقولون فيمن لا يسير على سنن أبيه في الصفات الطيبة: «النار تخلف رماداً»، ويقولون في عكس هذا: «من الشوك يُجنى الورد»، وفيمن يعمل عملاً لا طائل تحته: «هو يحرث في البحر»، ويقولون في الخطأ يكون سببه كبير القوم: «إن التِلْم الأعوج من الثور الكبير» يعنون الاعوجاج في حرث الأرض جاء من الثور الكبير، لأنهم يحرثون على ثورين، ويقولون لمن باشر العمل بعد انتهائه: «يحج والناس راجعون»، ويقولون لمن لا يسد غيره مسدَّه: «إذا حضر الماء بطل التيمم».

والاستعارة التمثيلية يعدّونها من أكثر الاستعارات بلاغة وتأثيراً، وإذا اشتهرت صارت مثلاً، وحينئذ لا ينبغي أن يغيّر فيه شيء، والمثل هو ما شُبِّه مَضرِبُه بموردِه، أي: تشبه الحالة التي ضرب لها بالحالة التي قيل فيها أول مرة، فإذا لم يحسن إنسان عمله ولقي من جرّاء ذلك ضرراً، قيل له: «يداك أَوْكَتا وفُوك نفخ» والوكاء: الربط، وهذه الجملة قيلت أول مرة لرجل ملأ قربته من الماء، وبعد أن نفخها وربطها لم يحسن ربطها فلما رفعها حَلّ رباطُها، وسقطت من يده، فابتغى المساعدة من بعض الناس فقيل له: «يداك أوكتا وفوك نفخ» أي: يداك ربطتا القربة وفمك نفخها، فأصبح مثلاً يضرب لكل من تشبه حالته حالة ذلك الشخص.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، ٥/ ٢٢٧١. ومسلم، كتاب (الزهد)، باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، ٤/ ٢٩.

وهذا مثل آخر يضرب لمن فوت فرصة وضيع شيئاً كان ضمن إمكاناته: «الصيف ضيَّعت اللبن» وقد قيل أول مرة لامرأة تركت زوجها وأبت أن ترجع إليه، ولكنها فيما بعد أدركت ندمها وطلبت الرجوع، فقال لها: (الصيفُ ضيَّعتِ اللبن» فأصبح يُضرب مثلاً لكل من تشبه حالته حالة هذه المرأة، فإذا قيل لرجل أو رجال فإنه يقال كما ورد (بكسر التاء). ويقال لمن يظلم ظلماً مزدوجاً، ويحيف على الناس في أكثر من جهة «أَحَشَفاً وسُوء كَيْلَة» وسببه أن بعضهم اشترى تمراً فأعطاه البائع تمراً رديئاً من جهة، وبخسه الكيل من جهة ثانية، فقال له «أحشفاً وسوء كيلة» والحشف: التمر الرديء، فيضرب لكل من أشبهت حالته حالة ذلك الشخص.

ومن الاستعارات التمثيلية قولهم: «فلان يرقم على الماء» ، و«ينفخ في غير فحم» ، و«يضرب في حديد بارد» ، لمن يعمل العمل لا طائل تحته. ولا يُرجى منه خير.

ومنه قول الشاعر صالح بن عبدالقدوس:

إذا وَتَـرْتَ امْـرأً فَاحْـذَرْ عَدَوَاتَـهُ  مَنْ يَزْرَعِ الشَوْكَ لاَ يَحْصُدْ بـهِ عِنَبـا

ومن الاستعارة التمثيلية قول الإمام الشافعي ﵁ (١):

أَأَنْـثُرُ دُرّاً بَـيْنَ سَـارِحَةِ الغَـنَمْ  وأُنْـشِدُ مَنْظُومـاً لِرَاعِيَـةِ الـنَّعَمْ

فقد شبه حال الذي يلقي الحكم في غير أهلها، والعلم لمن لا يعرف قدره بمن ينثر الدر أمام الماشية، ومن الاستعارة التمثيلية ما يقال للحكيم يضع الأمور في نصابها «أصاب المِحزّ، وطبّق المفصل» ، و«وضع الهناء مواضع النّقب»، فقولهم: «أصاب المحز وطبق المفصل» يقال للجزار الذي يضرب بالسكين فيصيب بها المفصل الذي يسهل فيه الحزّ، وقولهم: «وضع الهناء مواضع النقب» والهناء: القطران والنقب: جمع نقبة وهي محل الجرب في الإبل وهو داء يصيب الأنعام.

---

(١) ديوان الشافعي، ص١١١.

# الفصل الثالث

## الكنايـة

**تعريفها وأركانها:**

والكناية لغة أن نتكلم بالشيء ونريد غيره، وهي مصدر كالعناية والرماية والهداية، يقال: هدى هداية، ورعى رعاية ورمى رماية وكنى كناية، والظاهر أن فعلها من ذوات الياء، كنى يكني مثل هدى يهدي ورمى يرمي، وحكى بعضهم فيه لغة أخرى وهي أنه واوي واستشهدوا له بما أنشده الجوهري[(١)]:

وإنــي لأكْنُــو عَــنْ قَــدُورٍ بغَيْرِهــا وَأَعْــرِبُ أحْيانــاً بهــا وأُصَــارحُ

و(قَدُر) بفتح القاف وضم الدال: اسم امرأة. والأول أفصح؛ لأنهم يقولون في المصدر: (كناية) ولم يقولوا: (كناوة).

ومعرفة المعنى اللغوي تمهد لنا للمعنى الاصطلاحي، ومن هنا فقد عرفوا الكناية في الاصطلاح (بأن تريد المعنى وتعبر عنه بغير لفظه) كأن تريد إثبات الكرم لإنسان ما، ولكنك تعبر عنه بغير اللفظ الموضوع له، فتقول مثلاً: (كثير الرماد) ولا شك أن كثرة الرماد لم توضع لمعنى الكرم، وهذا الذي اختاره الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله -، وقريب منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية وهو (أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينه لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي).

وهذا التعريف نستطيع ونحن نلقي الضوء عليه أن نفرق بين الكناية وبين المجاز، فلقد عرفت أن المجاز لابد فيه من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، أما القرينة في

---

(١) الصحاح، ٢/ ٤١٥.

الكناية فلا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، بل يجوز إرادته كذلك، وإنما قلنا: يجوز إرادته لأن بعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي للفظ، ومع ذلك فإن هذا لا يدخلها في المجاز، فالمعول في الكناية إذن أن تعبر عن المعنى بغير لفظه.

ومما سبق تدرك أن الكناية لا بد لها من أركان ثلاثة:

١- اللفظ المكنى به.

٢- المعنى المكنى عنه.

٣- القرينة التي تجعل المعنى الحقيقي غير مراد سواء كانت هذه الإرادة ممكنة أم غير ممكنة.

**وإليك أمثلة توضح ذلك كله:**

إذا أردت أن تعبر عن ترف امرأة من النساء وعزها وغناها، يمكنك أن تعبر عن ذلك بقولك: «فلانة نؤوم الضحى» فنؤوم الضحى هو اللفظ الذي كنيت به، والترف والدلال هو المعنى الذي كنيت عنه، والقرينة معنوية يدل عليها السياق ولا ريب أن بإمكانك أن تريد المعنى الحقيقي كذلك، أي: أنها كثيرة النوم تظل نائمة إلى هذا الوقت، وكذلك إذا قلت: «فلان كثير الرماد» فإنك تكني به عن كرمه، فالركن الأول: اللفظ الذي كنيت به، وهو «كثير الرماد» والركن الثاني: المعنى الذي كنيت عنه، وهو (الكرم) والركن الثالث: القرينة التي فُهمت من تضاعيف الكلام وسياقه.

وهذا اللفظ قد لا يكون له وجود، فكثرة الرماد مثلاً لا وجود لها اليوم لأن أكثر الناس لا يستعملون الحطب، ومع هذا فتظل هذه الكناية باقية صحيحة الاستعمال بينة في أسلوبها وقد نكني عن طول فلان بأنه (طويل النجاد) وهي حمائل السيف، وأنت تعلم أنه لا سيف اليوم ولا سكين ولكن هذه الكناية باقية وقد تعبر عن كرم شخص وعزه بقولك: «المجد بين ثوبيه» كناية عن عزه وسؤدده، وأنت خبير بأن هذا التعبير لا يجوز أن نحمله على الحقيقة لأن المجد ليس شيئاً محسوساً حتى يلقى بين الثوبين.

بعد هذا تدرك أن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي يتسابق فيها البلغاء وتتفاوت فيها أقدامهم ومنازلهم لأنه يحتاج إلى اللمحة الذكية والغوص على المعنى، والمجيء باللفظ الذي يمكن أن يدل عليه دون تكلف أو تصنع، فنحن في الكناية ننطق باللفظ وبالجملة من القول، لكننا نريد بها معنى آخر ولا نريد يقيناً معناها الحقيقي، ولا يضيرنا بعد ذلك أكان المعنى الحقيقي ممكناً كقولك: «نؤوم الضحى» و«كثير الرماد» أم غير ممكن كقولنا: «المد بين برديه» وسواء كان لهذا اللفظ وجود، أم لم يكن له وجود كقولنا: «كثير الرماد» و«طويل النجاد» فقد لا يكون رماد ولا نجاد ولكن تبقى للفظ قيمته التعبيرية وأسلوبه البياني.

**أقسام الكناية:**

ولقد أطبق العلماء على تقسيم الكناية إلى أقسام ثلاثة، ذلك لأنهم بعد البحث والاستقصاء وجدوا أن المعنى المكنى عنه إما أن يكون صفة كقولهم: «كثير الرماد» فإنه كناية عن الكرم، والكرم صفة – كما تعلم – لأنهم يقصدون بالصفة الصفة المعنوية وليس النعت عند النحويين، وإما أن يكون موصوفاً وذلك كقول أمير الشعراء[1]:

وَلِـي بَـيْنَ الـضُّلوعِ دَمٌ وَلَحْـمٌ    هُمَـا الـوَاهِي الـذي ثَـكِلَ الـشَّبَابَا

فقد كنى بقوله هذا عن القلب، وإما أن يكون نسبة والنسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، وذلك كالمثال المتقدم «الكرم بين برديه» والمراد إثبات الكرم للمدوح، وسنحاول توضيح كل من هذه الأقسام الثلاثة ومن الله العون.

**أولاً: الكناية عن الصفة:**

ولكي يسهل عليك معرفة هذا القسم نبادرك القول بعلاماته ومميزاته، فضابط هذا القسم أن تذكر الموصوف وتنسب له صفة، ولكنك لا تريد هذه الصفة وإنما تريد لازمها ففي قولك: «فلان كثير الرماد» ذكر للموصوف وهو فلان، وذكر لصفته وهي كثرة الرماد ولكنك لم ترد هذه الصفة نفسها، بل أردت صفة لازمة لها وهي الكرم؛

---

(١) الشوقيات، ١/ ٦٧.

لأن كثرة الرماد تنشأ عن كثرة النار، وهذه تنشأ عن كثرة الحطب وهي تنشأ عن كثرة الطبخ، وذلك نتيجة كثرة الضيفان، والكرم لازم لذلك كله، وفي قولك: «خديجة نؤوم الضحى» ذكر للموصوف (خديجة) وذكر لصفتها (نؤوم الضحى) ولكنك لم ترد الصفة نفسها وإنما أردت لازم هذه الصفة وهو الترف، لأن (نوم الضحى) ناتج عنه.

وفي قولك: «فلان طويل النجاد» ذكر للموصوف وذكر لصفته ولكنك تريد غيرها (طول القامة) ذلك لأن السبب في طول النجاد طول القامة، وقولك: «نحن أمة لا نملك قلم الرصاص» كناية عن حرية التعبير، و«نحن أمة لا تملك سكيناً» كناية عن الضعف، فلقد ذكرت الموصوف، ولكن الصفات التي ذكرتها ليست هي المقصودة بالذات، إنما قصدت ما تنشأ عنه هذه الصفات، وقولك: «ما أضيع الذين يطأطئون الجباه لغير الله» فلقد ذكرت الموصوف وذكرت له صفة وأردت لازمها وهو الذل.

ومن هذا قولهم: «فلان جبان الكلب مهزول الفصيل» كناية عن الكرم، فإن (جبان الكلب) هو من اعتاد كلبه رؤية الزائرين، ومن عادة الكلب أن ينبح كلما رأى غريباً في البيت، لكن كثرة الزائرين جعلت الكلب يترك نباحه، وكثرة الزائرين تدل على الكرم كما تعلم، ومن هذا قول الشاعر[1]:

وَمَـا يَـكُ فِـيَّ مِـنْ عَيْـبٍ فَإنـِّي ... جَبَـانُ الكَلْـبِ مَهْـزُولُ الفَـصِيلِ

وأبدع من هذا قول نصيب[2]:

لِعَبْـدِ العَزِيـزِ علـى قَوْمِـهِ ... وَغَيْـرِهِمُ مِـنَنٌ ظَـاهِرَةْ

فَبَابُـكَ أَسْـهَلُ أَبْـوابهِمْ ... وَدَارُكَ مَأْهُولَـةٌ عَـامِرَةْ

وكَلْبُـكَ آنَـسُ بِـالزَّائِرينَ ... مِـنَ الأمِّ بابْنَتِهـا الزَّائِـرَةْ

وأبدع منه قول الآخر[3]:

---

(١) هذا البيت لابن هرمة، الصناعتين، ص٢٤٢.

(٢) القصيدة في مدح عبدالعزيز بن مروان، ديوان نصيب بن رباح، ص٩٩.

(٣) هذا البيت لابن هرمة، الحماسة، ٢/٢٤٨.

يَكـادُ إذا مـا أَبْـصَرَ الـضَّيفَ مُقْبلاً ... يُكَلِّمُـهُ مِـنْ حُبِّـهِ وَهُـوَ أعْجَـمُ

فانظر إلى هذه المبالغة في الكناية كيف جعل الكلب يكاد يكلم الضيفان، ويرحب بهم مع أنه لا يستطيع النطق، وأما قولهم: مهزول الفصيل، فهو كناية عن الكرم كذلك، فالفصيل ابن الناقة، إلا أن كثرة الضيوف وما يشربونه من لبن النياق، تجعل الفصيل مهزولاً لأنه لا يشبع من لبن أمه، ومنه قول الشاعر وقد تقدم من قبل:

لاَ أُمْتِـعُ العُـوْذَ بالفِـصالِ وَلاَ ... أَبْتَـاعُ إلاَّ قَرِيبَـةَ الأَجَـلِ

فهو كناية عن الكرم لأنه لا يمتع النوق بأبنائها وفصلانها، فإنه ينحرها، كما أنه لا يبتاع إلا قريبة الأجل، فهي لا تمكث في بيته بل تنحر عند دخولها بيته.

ومن هذا النوع من الكنايات قول الشاعر:

لاَ يَرْفَـعُ الـضَّيْفُ عَيْناً في مَنَازِلَنـا ... إلاَّ إلى ضَـاحِك مِنَّـا وَمُبْتَـسِمِ

وهذه كناية بديعة أخرى عن الكرم، إذ يلزم من الضحك والابتسام في وجه الضيف الحفاوة به، وهذا يستلزم الكرم، وهو من (الإيماء) الذي سيمر بك بعد قليل.

وأبدع منه قول المتنبي في رثاء أحدهم[1]:

أَلَسْتَ مِنَ القَـوْمِ الأُلى مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نـداهُمْ ومِـنْ قَـتْلاهُمُ مُهْجَـةُ البُخْـلِ

فانظر كيف استعار للبخل مهجةً، ثم للكرم رماحاً طعنت هذه المهجة، فهذه كناية عن كرمهم وإفنائهم للبخل بجودهم.

ومنه قول الخنساء في أخيها صخر[2]:

---

(١) القصيدة في رثاء أبي الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة. الألى: بمعنى الذين، نداهم: كرمهم، يقول: - مخاطباً الميت - : أنت من القوم الذين كرمهم من سلاحهم، والبخل من قتلاهم، أي: أنهم أفنوا البخل بجودهم.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوانها.

طَويـــلُ النِّجَـــادِ رَفيـــعُ العِمَـــادِ كَـــثيرُ الرَّمَـــادِ إذا مـــا شَـــتَا

وهذه ثلاث كنايا عن ثلاث صفات، الأولى: كناية عن الطول وهي: (طويل النجاد).

والثانية: عن السؤدد والرياسة وهي: (رفيع العماد) والثالثة: عن الكرم وهي (كثير الرماد).

ومنه قول المتنبي[(١)]:

فَمَـــسَّاهُمْ وبُـــسْطُهُمُ حَريـــرٌ وَصَـــبَّحَهُمْ وَبُـــسْطُهُمُ تُـــرَابُ

يعني أنهم كانوا في المساء يتصفون بالعز والأمن، ولكن أصبحوا يتصفون بالذل، وهما كنايتان بديعتان (فبسطهم حرير) كناية عن عزهم وغناهم و(بسطهم تراب) كناية عن ذلهم وفقرهم، ومنه قول المتنبي[(٢)]:

تَشْتَكي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ إلَيْهَـــا وَالـــشَّوْقُ حَيْـــثُ النُّحُـــولُ

وهي كناية بديعة كذلك كنى بها عن صفة، وهي كذب محبوبته يقول: إنها تشتكي مر الفراق، كما اشتكيه، ولكنها كاذبة في شكواها وفيما تدعيه من شوق، فإن الشوق الصادق يبرح بصاحبه فيجعله نحيل الجسم، وهذا ما أصابني بالفعل، أما هي فليست كذلك، ومنه قوله يصف فرسه[(٣)]:

وَأَصـــرَعُ أَيَّ الـــوَحْشِ قَفَّيْتُـــهُ بِـــهِ وأَنْـــزِلُ عَنْـــهُ مِثْلَـــهُ حِـــينَ أَرْكَـــبُ

---

(١) ديوان المتنبي، ١/ ٢١٣.

(٢) ديوان المتنبي، ٣/ ٢٦٧.

(٣) ديوان المتنبي، ١/ ٢٠٤.

يقول: إن فرسه سريع أياً كان الوحش الذي يتبع هذا الفرس، ولكنه حين ينزل عنه لا يجد له تعباً ولا نصباً ولا سآمة، فكلتا حالتيه سواء، حينما يركبه وحينما ينزل عنه، فهو فرس كريم عتيق، ومنه قوله في مديح سيف الدولة(١):

إلى كَمْ تَـرُدُّ الرُّسْـلَ عَمَّـا أتَـوْ لَـهُ　　كأنـــهُمْ فيمـــا وَهَبْـتَ مَـلامُ

ومعنى البيت: أنك ترد رسل ملك الروم الذين جاؤوا يطلبون الهدنة، غير مبال ولا متردد، وهذا الرد المنبعث من الثقة والقوة والجرأة والشجاعة، وما أشبه ردك لهؤلاء بردك الملامة عن نفسك بما وهبت من عطايا السائلين، فكلمة (ملام) متعلقة بـ (ما وهبت) فهنا صفتان: الشجاعة والجود، وقد كنى عنهما كما رأيت.

ومنه بيت الحماسة(٢):

لا يَـسْألُونَ أخـاهُمْ حـينَ يَنْـدُبُهُمْ　　في النائبـات علـى مـا قـال بُرْهانـا

والمقصود بهذا القول أن يبين شجاعتهم وإسراعهم في إجابة الداعي، وقال النابغة يصف نساءً وهن في الأسر(٣):

يُخَطِّـطـنَ بالعيـدانِ في كُـلِّ مَنْـزِلِ　　ويُخْبِـئْنَ رُمَّـانَ الثُّـديِّ النَّواهِـدِ

وشبيه بهذا قول ذي الرمة(٤):

عَـشِيَّةَ مَـالي حِيلَـةٌ غَيْـرَ أنـنّي　　بلَقْطِ الحَصَى والخَطُّ في الأرضِ مُولَعُ
أخُـطُّ وأمْحُـو الخَـطَّ ثـمَّ أُعيـدُهُ　　بكَفِّـيَّ والغِرْبـانُ في الـدَّارِ وُقَّـعُ

والتخطيط بالعيدان كناية عن الهم والحزن. (والغربان في الدار) كناية عن خلوها من الناس.

---

(١) ديوان المتنبي، ٣/ ١١٠.

(٢) شرح ديوان الحماسة، ١/ ٢٣.

(٣) ديوان النابغة ص٩٧، العمدة ١/ ٢٠٦.

(٤) ديوان ذي الرمة، ص٢٧٤.. (والغربان في الدار وقع) أي: الدار الخالية والغربان فيها.

ومنه قول طرفة بن العبد[1]:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفونَهُ … خَشاشٌ كَرَاسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وهذا كناية عن الحذق والذكاء والمهارة.

ومنه قول أبي تمام في مدح ابن شبانة[2]:

فإنْ أنا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صَاغِراً … عَدُوُّك فاعْلَمْ أنني غَيْرُ حَامِدِ

يقول مخاطباً ممدوحه: إذا لم يبلغ مدحي لك مبلغاً من الحسن والجمال بحيث يجبر حسنُه عدوَّك أن يحفظه وينشده – وبالتالي يكون هذا قمة الصغار والذل له، إذ يتغنى بمدح عدوه – يقول: إذا لم يكن مدحي كذلك فلا تعدني مادحاً. فانظر كيف كنى عن جودة مدحه، ثم تخيل أي سعة من الخيال تمتع بها الشاعر وأي مستوى من الذوق بلغ.

ومن الكنايات المشتهرة كذلك (فلانة ناعمة الكفين) (نقية الثوب) و(فلان طاهر الذيل) فالجملة الأولى كناية عن الترف والدلال، وفي الثانية كناية عن العفة والثالثة كذلك، ومن الكنايات المشتهرة «قرع فلان سنه» كناية عن الندم، لأن الإنسان حينما يندم يقرع أسنانه بعضها ببعض، و«فلان هجر الفأر بيته» كناية عن الفقر، و«فلان يشار إليه بالبنان» كناية عن الشهرة، و«فلان عريض القفا» كناية عن البله والخمول أو الغباء، ومنها قولهم: «فلان يمشي على بيض» إذا كان بطيئاً في مشيته، و«فلان ركب جناحي نعامة» كناية عن سرعته، ومنها قولهم: «فلان يمشي على ثلاثة» و«فلان لوت الليالي كفه على العصا»، هما كنايتان عن الكبر والهرم، «فلان قلع أسنانه» كناية عن التجربة والحنكة، و«فلان لا يرى غيره» كناية عن الكبر والإعجاب

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ١١٤. الضرب: الخفيف اللحم، خشاش: رجل لطيف الرأس سريع الدخول في الأمور، المتوقد: الشديد النشاط.

(٢) ديوان أبي تمام ٢/ ٧٧، والقصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة، وأراد أبو تمام بمدح عدو ممدوحه: حفظه مدحه – أي مدح أبي تمام – وإنشاده إياه.

بالنفس، وقولهم: «فلان منخرق الجيب» كناية عن كثرة الإنفاق، «قوي الساعد مفتول العضلات» كناية عن القوة (رابط الجأش) كناية عن الشجاعة، «كثير الإخوان، لين الجانب» عن حُسْن الخلق واليسر في المعاملة.

هذه الكنايات إذا أمعنت فيها النظر وجدت أن كل واحدة منها ذكر فيها الموصوف وذكرت له صفة، إلا أنها لم تكن هي المرادة، إنما المراد صفة غيرها، وهذا ضابط الكناية عن الصفة - كما عرفت من قبل - وهنا أمر آخر لابد أن أنبه عليه، ارجع إلى الكنايات السابقة تجد أن بعضها كثرت فيها الوسائط على حين قلَّت في بعضه الآخر، كما أنك تجد بعض الكنايات واضحة المأخذ، سهلة الاستنتاج، بينما يحتاج بعضها الآخر إلى تأمل وفكر، خذ مثلاً قولنا: «فلان كثير الرماد» ألا تجد أن هنا وسائط كثيرة بين المكني به والمكنى عنه، أعني بين كثرة الرماد والكرم، لأن كثرة الرماد تستلزم كثرة النار وهذه تستلزم كثرة الحطب، وهذا يستلزم كثرة الطبخ، وهي تستلزم كثرة الضيفان المستلزمة للكرم، لكن قولنا: «فلان طويل النجاد» و«فلانة بعيدة مهوى القرط» ، وهما كنايتان عن الطول لا تستلزمان شيئاً، فإن طول النجاد يلزم منه طول القامة، وكذلك (بعيدة مهوى القرط) وهو ممتد من شحمة الأذن إلى الكتف.

فهاتان كنايتان لا تحتاجان إلى تأمل - كما رأيت - إحداهما كثرت فيها الوسائط، ويسميها السكاكي تلويحاً، والأخرى قلّت فيها الوسائط ويسميها السكاكي إيماءً وإشارة، أما إذا كانت الكناية محتاجة إلى تأمل كقولنا: «فلان عريض القفا» أو «عريض الوسادة» وهما كنايتان عن البله والغباء - كما عرفت - لكن الأولى نجد فيها الوسائط أكثر من الثانية، فإنها تسمى رمزاً عند السكاكي، فالسكاكي نظر في تقسيم الكناية - إذن - إلى كثرة الوسائط وقلّتها من جهة، وإلى سهولة الاستنتاج من جهة أخرى، فإذا كانت الكناية سهلة الإدراك وكثرت فيها الوسائط سماها تلويحاً كقولنا: «كثير الرماد» وإذا قلّت وسائطها مع سهولتها سماها إشارة وإيحاء كقولنا: «طويل النجاد» «بعيدة مهوى القرط»، أما إذا كانت بحاجة إلى تأمل وفكر فإنه يسميها رمزاً سواء كثرت وسائطها كقولنا: «عريض القفا» أم قلّت كقولنا: «عريض الوسادة».

**ثانياً: الكناية عن الموصوف:**

ضابط هذا النوع من الكناية أن نذكر الصفة والنسبة ولا نذكر الموصوف المكنى عنه، عرفت في القسم الأول وهو الكناية عن الصفة أننا ذكرنا الموصوف ونسبنا له صفة ما، ولكن لم تكن هي الصفة المرادة، وأظنك تلمح من هذا التعريف أن الكناية لا بد فيها من موصوف وصفة ونسبة، ففي الكناية عن الصفة نذكر هذه الثلاثة، إلا أن الصفة المذكورة غير الصفة المرادة، فقولنا: «فلان كثير الرماد» ذكرنا فيه الموصوف ونسبنا له صفة معينة كنينا بها عن صفة أخرى.

أما في هذا القسم فنحن نذكر الصفة والنسبة فحسب ولا نذكر الموصوف، ولكي يتضح لك الفرق بين القسمين، ينبغي أن تعلم أن الصفة في القسم الأول كانت كناية عن صفة أخرى، أما الصفة في هذا القسم فإن الغرض من ذكرها أن نتوصل بها إلى الموصوف المحذوف المكنى عنه، استمع مثلاً إلى قول شوقي الذي تقدم:

وَلِـي بَـيْنَ الـضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْـمٌ ... هُمَـا الـوَاهِي الـذي ثكِـلَ الـشَّبَابا

وهو كناية عن القلب، ألا ترى أن المذكور هنا، والذي كنى به عن القلب ليس في الحقيقة إلا صفة لهذا القلب، فالقلب بين الضلوع والقلب دم ولحم. وهذه الصفات كما ترى لا يتصف بها إلا القلب ألا ترى أنه لو اقتصر على الدم واللحم ما صلح أن يكون كناية عن القلب، لأن اليد دم ولحم وكثير من الجوارح يمكن أن تكون كذلك، ولكن الذي حسن الكناية هنا في هذا البيت أن مجموع هذه الصفات المذكورة لا تصدق إلا على القلب، ومن أمثلة هذا القسم قوله سبحانه: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴾ [الزخرف:١٨]، ولكي تتذوق الكناية نبين لك أن الآية الكريمة جاءت رداً على العرب في جاهليتهم، وقد كانوا يكرهون البنات ويئدونهن ومع ذلك كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآية ناعية عليهم مقررة جهلهم، مسفهة أحلامهم وعقولهم، يقول الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم

بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الزخرف:١٥-١٦] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾ [الزخرف:١٩].

ومعنى الآيات أنكم اصطفيتم البنين لكم وجعلتم البنات لله، جعلتم له من ينشأ في الحلية ولا يكون في خصومته مبيناً قوياً، وهذه صفة للنساء كما تعلم، فإنهن ينشأن في الحلي ولا يبنّ في خصامهنّ وهو ما عناه شاعرهم حين قال[(١)]:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الغانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

ففي الآية الكريمة كناية، فاللفظ المكنى وهو قوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ﴾ أما المكنى عنه فهو النساء، وإذا نظرت إلى الصفة وهي التنشئة في الحلية وجدتها مختصة بالنساء ولكن في أيامنا هذه استوى فيها الماء والخشبة وأصبح كل يشبه الآخر، وهذا يذكرنا بقول المتني[(٢)]:

وَمَـنْ في كَفِّـهِ مِـنْهُم قَنَاةٌ ... كَمَـنْ في كَفِّـهِ مِـنْهُمْ خِـضَابُ

وفيه كناية عن الموصوف كذلك، فهو يقول: إن رجالهم أصبحوا كالنساء لأن قوله: «من في كفه قناة» كناية عن الرجال، و«من في كفه خضاب» كناية عن النساء.

ومنه قول الشاعر[(٣)]:

وَالقادِسِيَّةُ حَيْثُ زَاحَمَ رُسْتُمٌ ... كُنَّا الحُمَاةَ نَهُزُّ كالأَشْطَانِ

الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُخْذَمٍ ... وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ

---

(١) وهو عمرو بن أبي ربيعة.

(٢) ديوان المتني، ١/٢١٣.

(٣) وهو عمرو بن معدي كرب، ديوانه، ص١٧٤. والبيت من قصيدة قالها بعد فتح نهاوند على يد النعمان بن مقرن.

فإن مجامع الأضغان كناية عن القلب، لأنها صفة له في الحقيقة، ومنه قول البحتري في قصيدته التي يتحدث فيها عن طعنه للذئب[1]:

فَأَتْبَعْتُهَـا أُخْـرَى فَأَضْـلَلْتُ نـصْلَهَا      بِحَيْثُ يَكُـونُ اللُّـبُّ وَالرُّعْـبُ وَالحِقْـدُ

يريد أنه طعنه في قلبه ولكنه لم يذكر القلب، وإنما ذكر صفة كنى بها عن القلب، وهي قوله: «حيث يكون اللب والرعب والحقد» ومنه قول الآخر:

قَـوْمٌ تَـرَى أَرْمَـاحَهُمْ يَـوْمَ الـوَغَى      مَـــشْغُوفَةً بِمَـــوَاطِنِ الكِتْمَـــانِ

فـ (مواطن الكتمان) صفة القلوب وقد كنى بها عنه، وهكذا إذا قلت «صفا لي مجمع لب فلان» فأنت تريد القلب، ولكنك لم تذكره وإنما كنيت عنه بصفته، وهكذا تراهم يكنون عن القلوب بهذه الوصاف المختلفة إلا أنها جميعاً تختص بالقلب كمواطن الكتمان، وهو كذلك مجمع اللب والرعب والحقد وهو موطن الأسرار كما يقول أبو نواس في الخمر:

وَلَمَّـــا شَـــرِبْنَاها وَدَبَّ دَبِيبُهـــا      إلى مَوْطِنِ الأَسْرَارِ قُلْـتُ لَهـا: قِفـي

وهو الدم واللحم بين الضلوع – كما قال شوقي. ومنه قول المعري في وصف السيف[2]:

سَـــليلُ النَّـــارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّـــى      كَـــأَنَّ أَبـــاهُ أَوْرَثَـــهُ الـــسُّلالا

فقد كنى عن السيف بهذه الأوصاف التي سمعت من الدقة والرقة.

ومن الأمثلة المتقدمة تدرك أن الكناية عن الموصوف تنقسم إلى قسمين، فاللفظ المكنى به قد يكون وصفاً واحداً، (كموطن الأسرار) و(مجمع اللب والرعب والحقد)،

---

(١) ديوان البحتري، ١/ ٣٧١.

(٢) السليل: الولد، السلال، والسل: داء يدنف الإنسان منه، يقول: إن هذا السيف ولد النار لأنه نشأ في النار حين أخرج من المعدن، فتراه دقيق الشفرتين حتى كأنه ورث داء السل من أبيه، فدنف، أي: أجهده العشق. شروح ديوان سقط الزند، ١/ ٩٨.

وإما أن يكون أوصافاً متعددة لابد منها جميعاً لتحقق الكناية، ألا ترى إلى قول شوقي الذي كنى به عن القلب بأنه بين الضلوع وبأنه دم ولحم، ولو أنه اقتصر على الدم واللحم ما صلحت هذه الكناية.

ويمكن أن نمثل لك بمثال آخر، وهو ما يذكره القوم في كتبهم «زارني حيٌّ مُستوي القامة عريض الأظفار» فمجموع هذه الصفات كناية عن الإنسان، ولو أخذنا كل صفة على حدة ما صلحت هذه الكناية، فلو اقتصرنا على كلمة (حي) لشارك الإنسانَ جميعُ الأحياء، ولو اقتصرنا على (مستوى القامة) فقط، لشمل ذلك بعض الجمادات أو بعض الحيوانات كالتمساح، ولعلك معي في أن هذا المثال ليس ذا قيمة فنية أو روعة بيانية، مع أن الأقدمين والمحدثين اجتمعوا على ذكره، ولم تعدم اللغة أمثلة حية مستلهمة من الواقع، كأن تكني بلون وطعم وشكل عن فاكهة معينة، وباللين والطيب والحُسْن والحساسية عن المرأة.

ولم لا نمثل لذلك ونحن نستصرخ الأمة ونهيب بها كي تقضي على المكر والجبن والبخل والطغيان، والإفساد والحقد، أليست هذه الصفات جميعاً يمكن أن نكني بها عن اليهود، لأن مجموعها منطبق عليهم.

**ثالثاً: الكناية عن النسبة:**

في القسمين السابقين كنينا بصفة عن صفة تارة، وبالصفة عن الموصوف تارة أخرى، ولكننا في هذا القسم الثالث سنسلك مسلكاً آخر سنذكر الصفة والموصوف إلا أننا بدلاً من أن ننسب هذه الصفة لصاحبها فسوف ننسبها لشيء آخر، والنسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، فالنسبة في قولنا: «المؤمنون أعزاء» هي إثبات العزة للمؤمنين، وفي قولنا: «المؤمن ليس جباناً» النسبة نفي الجبن عن المؤمن.

ولنبادرك بمثال ينير لك الطريق، إذا قلت: «فلان المجد بين ثوبيه» و«الكرم بين برديه» فأنت إنما تريد أن تثبت له الكرم والسيادة، وقد ذكرت هاتين الصفتين، كل ما في الأمر أنك لم تنسبهما لصاحبهما، فلم تقل: الكرم والمجد لفلان، وإنما نسبتهما

لشيء آخر (البردين والثوبين). ولما كانت النسبة إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، فلا بدّ أن نمثل لهذا القسم بنوعين من الأمثلة:

**الأول**: ما كانت الكناية فيه إثباتاً.

**والثاني**: ما كانت فيه نفياً.

**أمثلة القسم الأول:**

ومن أمثلة القسم الأول: المثال السابق، ومنه قولك: «لقد كثر المكر في ساحة أعدائكم أيها العرب، وها هو المكر قد نسج في ثيابهم» فهذه صفات كما ترى لم ننسبها للعدو مباشرة، إنما نسبت لشيء آخر: للساحة وللثوب، ولعل في هذا الأسلوب تزييناً للقول، ولعله أكثر تأثيراً في النفوس كذلك. ومن هذا قول زياد الأعجم[(١)]:

إنّ الـــسماحةَ والمُـــروءَةَ والنَّـــدَى ... في قُبَّـةٍ ضُـربَتْ على ابـنِ الحَشْرَجِ

فقد ذكر هذه الصفات ولم ينسبها لابن الحشرج مباشرة وإنما جعلها في قبة مضروبة عليه، ومنه قول أبي نواس[(٢)]:

فَمَـا حَـازَهُ جُـودٌ وَلاَ حَـلَّ دُونَـهُ ... وَلَكِـن يَـسيرُ الجُـودُ حَيْـثُ يَـسيرُ

ففي الشطر الثاني من البيت كناية عن نسبه لأنه يريد أن يثبت الجود للمدوح ولكنه كنّى عن ذلك فجعل الجود ملازماً له يسير حيث يسير، ومنه قول الشاعر:

لاَ يَنْـــزِلُ المَجْـــدُ إلاَّ في مَنَازِلِنَـــا ... كَالنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَـأْوَىً سِـوَى المُقَـلِ[(٣)]

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٢. وابن الحشرج: هو عبدالله بن الحشرج من سادات قيس وأحد ولاة الدولة الأموية، كان جواداً كثير العطاء.

(٢) البيت من قصيدة في مدح الخطيب بن عبدالحميد العجمي ديوانه، ص٢٩٩.

(٣) ولا تنسى أن في البيت تشبيهاً ضمنياً، كما مرّ معك في باب التشبيه.

ففي الشطر الأول كناية يراد بها نسبة – هي إثبات المجد لهم – ذلك أن قصر نزول المجد على منازلهم إنما هو إثبات المجد لهم.

ومنه قول المتنبي في مدح كافور[1]:

إنَّ في ثوبِكَ الذي المَجْدُ فِيْهِ لَضياءً يُزري بكُلِّ ضِياءِ

والأصل أن يضيف المجد والنور للممدوح ولكنه نسبهما لثوبه، وقال الشاعر:

اليُمْنُ يَتْبَعُ ظِلَّهُ والمَجْدُ يَمْشِي في رِكَابِهْ

واليمن والمجد صفتان له ولكنه نسبهما لظله وركابه.

**أمثلة القسم الثاني:**

ومثال الكناية عن النسبة في النفي قول الشَّنْفَرَى الأزدي[2]:

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا إذا ما بُيُوتٌ بالمَلامَةِ حِلَّتِ

فهو وصف للمرأة بالعفة، ونفي للملام عنها ولكنه لم يصرح بهذا بل نفى نسبة اللوم عن بيتها، ومنه قول العرب: «مثلك لا يبخل» وهي كناية عن نفي البخل عنه، ومنه قولك: «المسلم لا يعطي الذلة» ومن هذا قول النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3] وهي كناية عن أن من يؤذي المسلمين ليس مسلماً، وإن لم يذكر الموصوف هنا إلا أنه فهم من الحديث الشريف.

خلاصة القول أن الكناية عن النسبة هي إثبات الصفة لغير الموصوف أو نفيها عن غيره مع أن المراد إثباتها له أو نفيها عنه.

ففي قوله: «المجد بين ثوبيه» المكنى به نسبة المجد للثوبين، والمكنى عنه إثبات المجد للممدوح المتحدث عنه.

---

(١) ديون المتنبي، ١/١٥٨. يزري، أي: يستهين.

(٢) المفضليات، ص٤١.

(٣) سبق تخريجه.

هذه أقسام الكناية أرجو أن تكون قد بانت لك وظهرت أقسامها بجلاء ولا مانع أن يشتمل المقطع الواحد على هذه الأقسام جميعاً. استمع إلى هذا القول، الذي هو نفثة فؤاد مُعَنًّى، وصرخة محزون ملهوف. أصيح بها – ويعلم الله – وقد بلغ السيل الزبى، دونما تكلف ولا تصنع، راجياً أن تجد محلها في القلوب كيف لا وقد نسجت من ذكرى الخامس عشر من أيار، ذكرى اغتصاب فلسطين: «يا أبناء الصحراء ويا نبال السماء، إن عدوكم الذي أرضع لبان الحقد وازدحمت ساحاته مكراً، واشتملت ثيابه على الكراهية واللؤم، قد لبس لكم ثوب النمر، وقلب لكم ظهر المجن، ولا بد له من رابطي الجأش، مفتولي السواعد في أثوابهم آساد هواصر، فوجهوا سهامكم إلى مجامع حقده ومواطن غله، أليس من العار أن تسمعوه سجع الحمام ويسمعكم زئير الأسد، فلتكن العزة حيث تسيرون، والقوة حيث تحلون وترحلون، فلتطبقوا عليه بمقابض حديدية، ولا تنسوا أن أسلافكم قد بنوا أبياتهم في الشهب، ومشوا فوق رؤوس الحقب، واستولوا على الزمان في ريعان شبابه، وزاحمت هاماتهم نجوم السماء رفعة وعطروا بسيرتهم كلَّ ناحية وبقعة».

هذه الكلمة إذا تأملتها وجدت فيها أقسام الكناية الثلاثة، ويمكنك أن تستخرج كل قسم على ضوء ما عرفته من قبل.

**بين الكناية والتعريض:**

تباينت آراء البيانيين، واختلفت كلمتهم، فمنهم من ذهب إلى أن الكناية والتعريض شيء واحد، ومنهم من جعل التعرض قسماً من الكناية، وآخرون ذهبوا إلى أن الكناية تختلف عن التعريض، ولعلنا نذهب هذا المذهب، فلقد عرفت أن الكناية هي الستر وهي أن تعبر باللفظ وتريد لازم معناه، فهناك صلة بين اللفظ المكنى به والمعنى المكنى عنه، حيث ينتقل الفكر من الملزوم إلى اللازم.

أما التعريض فهو إمالة الكلام إلى عُرض – بضم العين – وهو: الجانب والناحية، تقول: (عرضت بفلان) وذلك إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه هو – إياك أعني واسمعي يا جارة – فالتعريض إذن أن نذكر جملة من القول نريد بها شيئاً آخر،

ولكن هذا الشيء لا يُفهم بطريق اللزوم كما رأينا في الكناية، وإنما يُفهم من السياق. وقد حدثناك في علم المعاني في باب القصر حيث بيّنا لك أن القصر بـ (إنما) يدل على التعريض، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩]، ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وقول العباس بن الأحنف[١]:

أنـــا لَــمْ أُرزقْ مَحبَّتَهــا إنـــمّا للعَبْـــدِ مَــا رُزِقَــا

ومثل قولك: ((إنما الصديق عند الضيق)) ففي هذا كله تعريض فارجع إليه[٢].

ونزيدك هنا فنبين لك أن باب التعريض باب واسع لا يقتصر على (إنما) وحدها، خذ مثلاً قول الحماسي[٣] الذي قدمناه لك في الكناية:

لاَ يَسْألُونَ أخاهُم حينَ يَنْدُبُهُمْ في النَّائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرْهانا

وقد قدمنا لك أنه كناية عن صفة، ولكنك إذا عرفت السياق الذي قيل فيه تدرك أن فيه تعريضاً كذلك، فقد قاله الشاعر وهو يلوم قومه لأنهم لم ينجدوه، فهو في ظاهره ثناء على قوم، هم المذكورون في أول القصيدة.

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تُستَبَحْ إبلي بَنُو اللَّقيطَةِ مِنْ ذُهْلِ ابْنِ شَيْبَانَا

وهو مع ذلك تعريض بقومه. دليل ذلك قوله:

إذاً لَقَام بنصْري مَعْشَرٌ خُشُنٌ عِنْدَ الحَفيظَةِ إنْ ذو لُوْثَةٍ لاَنا

قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى ناجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إليهِ زُرَافاتٍ وَوُحْدانا

لا يَسْألُون أخاهُمْ يَنْدُبهمْ في النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قال بُرْهانا

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٣٤.

(٢) راجع البلاغة فنونها وأفنانها للمؤلف، ج١، ص٢٨٦.

(٣) الحماسة، ج١، ص٢٣.

ولعمرو الحق إن هذه الأبيات جديرة أن تقال اليوم، وها هم أهل فلسطين يتعرضون لأقصى أساليب البشاعة من اليهود الحاقدين، حتى إنهم ليضربونهم من الجو بسلاح الطائرات الغاشمة الأمريكية (ف١٦). كذلك المسلمون في بقاع الدنيا؛ ففي الشيشان يتعرض المسلمون إلى الحقد الروسي، وفي البوسنة يتعرضون للحقد الصربي، وفي غير هذه المواطن من العالم، فمتى يستيقظ المسلمون؟! نرجو أن يكون قريباً.

وخذ ما حدثناك عنه من قبل «لا يجد الفأر في بيته شيئاً» فإذا عرفت أن امرأة عرضت لقيس بن سعد وقالت: «أشكو إليك قلة الفأر في بيتي» ففهم مقالتها وأجاب سؤالها، فملأ بيتها طعاماً وكساءً، أدركت أن ذلك من باب التعريض.

ونحسب أن ابن الأثير – رحمه الله – من أكثر البيانيين الذين تحدثوا في هذا الموضوع فوفاه حقه، وإليك طرفاً من قوله: «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: «والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني» فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة: «إنك الخلية وإني لعزب» فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً، والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه، أي: من جانبه، وعرض كل شيء: جانبه.

واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبتة، والدليل على ذلك أنه لا يُفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يُفهم من جهة التلويح والإشارة، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب»[1].

---

(١) المثل السائر، ص١٩٨.

«... وأما التعرض فقد سبق الإعلام به وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣] وغرض إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم، لأنه قال: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام، والقول فيه إن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم، والاستهزاء بهم...».

«... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧]، فقوله تعالى: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾.

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قبل معاوية فعزله، فلما قدم عليه قال له: عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأوجبت عزلك: إحداهن أني أمرتك على عبدالله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه، والثانية كراهتك أمر زياد، والثالثة: أن ابنتي رملة استعدتك على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها، فقال له مروان: أما عبدالله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه، وأما كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان، فوالله إنه لتأتي عليّ سنة وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوباً – يريد بذلك أن رملة إنما استعدت لطلب الجماع – فقال

له معاوية: يا ابن الوَزَغ[1] لست هناك، فقال له مروان: هو ذاك، وهذا من التعريضات اللطيفة.

ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب ﷺ، وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة، فدخل عثمان بن عفان ﷺ فقال عمر: أيّة ساعة هذه ؟ فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، انقلبتُ من أمر السوق فسمعت النداء فما زدتُ على أن توضأت فقال عمر: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل؛ فقوله: «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب.

ووقفت في كتاب «العقد» على حكاية تعريضية حسنة الموقع، وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الفأر في بيتي، فقال: ما أحسن ما ورّت عن حاجتها، املؤوا لها بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «والله إنك لتُجَبِّنون وتُبَخِّلُون وتُجَهِّلُون، وإنكم لمن ريحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوَجّ» . اعلم أن وجّاً وادٍ بالطائف، والمراد به غُزاة حُنين، حنين: وادٍ قبل وجّ، لأن غزاة حنين أوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة، أي: قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ﷺ : «وإن آخر وطأة وطئها الله بوجّ» على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده، لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال: وإنكم لمن ريحان الله، أي: من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع[2] عن قوله: وأنا مفارقكم عن قريب بقوله: «إن آخر وطأة وطئها الله بوجّ» وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ .

---

(١) الوزغ: دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحلية.

(٢) أي: عرّض أو كنى.

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشميذر الحارثي:

بَني عَمِّنا، لا تَـذْكُرُوا الـشِّعْرَ بعـدَمَا دَفَنْـتُم بـصَحْراءِ الغُمَيْـرِ القَوافِيَـا

وليس قصده ها هنا الشعر، بل قصده ما جرى في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً بما قصده، أي: لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان.

# الفهرس


مقدمة ........................................ ٥

الباب التمهيدي: الفصاحة والبلاغة

الفصل الأول: الفصاحة والبلاغة؛ تعريف ومقارنة ........................ ٩
فروع اللغة العربية ........................................ ٩
مدخل إلى هذا الموضوع ........................................ ٩
الفصاحة لغة ........................................ ١١
البلاغة لغة ........................................ ١٢
الفرق بين الكلمتين على ضوء القرآن الكريم ........................ ١٣

الفصل الثاني: الفصاحة والبلاغة عند علماء اللغة ........................ ١٥
المبحث الأول: الفصاحة عند علماء اللغة ........................ ١٥
الفصاحة عند صاحب (التلخيص) ........................ ١٦
استنتاج ........................................ ٢٠
المبحث الثاني: البلاغة عند علماء اللغة ........................ ٢٢
أقوال في البلاغة ........................................ ٢٢
البلاغة في الاصطلاح ........................................ ٢٣

الباب الأول: علم المعاني

الفصل الأول: مقدمة في علم المعاني ........................ ٢٧
تعريف علم المعاني ........................................ ٢٧
الجملة الاسمية والفعلية ........................................ ٢٩

الفصل الثاني: الخبر ........................................ ٣٥
المبحث الأول: أغراض الخبر ........................................ ٣٨
المبحث الثاني: أضرب الخبر ........................................ ٤١
الخبر المؤكد والخبر الخالي من التأكيد ........................ ٤١
أدوات التأكيد ........................................ ٤٢

طرق التوكيد ........................................................ ٤٨
خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ........................................ ٤٩

**الفصل الثالث: الإنشاء** ............................................. ٥٥
المبحث الأول: الأمر .................................................. ٥٧
تعريفه ............................................................. ٥٧
صيغه ............................................................... ٥٧
خروج صيغة الأمر عن دلالتها الأصلية .................................. ٥٨
المبحث الثاني: النهي ................................................. ٦١
تعريفه وصيغته ....................................................... ٦١
خروج صيغة النهي عن دلالتها الأصلية .................................. ٦١
المبحث الثالث: التمني ................................................ ٦٣
تعريفه، والفرق بينه وبين الترجي ...................................... ٦٣
أدوات التمني ........................................................ ٦٤
المبحث الرابع: النداء ................................................. ٦٨
تعريفه ............................................................. ٦٨
أدوات نداء القريب ................................................... ٦٩
أدوات نداء البعيد .................................................... ٦٩
المبحث الخامس: الاستفهام ............................................ ٧٢
المطلب الأول: الفرق بين أدوات الاستفهام وما يُستفهم عنه بها ............ ٧٢
الهمزة .............................................................. ٧٣
أحكام الهمزة ........................................................ ٧٤
هل ................................................................. ٧٧
أحكام هل ........................................................... ٧٨
بقية أدوات الاستفهام ................................................. ٨٠
المطلب الثاني: الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام ................. ٨٢
أولاً: التقرير ......................................................... ٨٣
ثانياً: الإنكار ........................................................ ٨٥
خلاصة في مباحث الإنشاء ............................................. ٩٠

**الفصل الرابع: التقديم والتأخير** ...................................... ٩٣
المبحث الأول: تقديم المسند إليه ......................................... ٩٦

أولاً: التشويق ........................................ ٩٦
ثانياً: إفادة التخصيص وتقوية الحكم ........................................ ٩٧
ثالثاً: إفادة التعميم ........................................ ١٠٣
رابعاً: إذا كان كلمة (مثل) أو (غير) ........................................ ١٠٥
المبحث الثاني: تقديم المسند ........................................ ١٠٧
أولاً: تخصيصه بالمسند إليه ........................................ ١٠٧
ثانياً: التنبيه على الخبرية ........................................ ١٠٨
ثالثاً: التشويق ........................................ ١٠٩
رابعاً: للتفاؤل ........................................ ١٠٩
المبحث الثالث: تقديم متعلقات الفعل ........................................ ١١٠

الفصل الخامس: الحذف والذكر ........................................ ١١٥
المبحث الأول: الذكر ........................................ ١١٦
المطلب الأول: ذكر المسند إليه ........................................ ١١٦
المطلب الثاني: ذكر المسند ........................................ ١١٩
المطلب الثالث: ذكر متعلقات الفعل ........................................ ١٢١
المبحث الثاني: الحذف ........................................ ١٢٤
المطلب الأول: حذف المسند إليه ........................................ ١٢٤
المطلب الثاني: حذف المسند ........................................ ١٢٩
المطلب الثالث: حذف المفعول به ........................................ ١٣٣
المطلب الرابع: دراسة تطبيقية لأسلوب الحذف ........................................ ١٤٠

الفصل السادس: التعريف والتنكير ........................................ ١٤٣
المبحث الأول: التعريف ........................................ ١٤٤
المطلب الأول: تعريف المسند إليه ........................................ ١٤٤
أولاً: التعريف بالضمير ........................................ ١٤٤
ثانياً: التعريف بالعلمية ........................................ ١٤٦
ثالثاً: التعريف باسم الإشارة ........................................ ١٤٨
رابعاً: التعريف بالاسم الموصول ........................................ ١٥٠
خامساً: التعريف بـ (ال) ........................................ ١٥٢
سادساً: التعريف بالإضافة ........................................ ١٥٧

المطلب الثاني: تعريف المسند ........................................ ١٥٨
المبحث الثاني: التنكير ........................................ ١٦٣

الفصل السابع: القصر ........................................ ١٦٧
المبحث الأول: تعريف القصر وأركانه ........................................ ١٦٨
تعريفه ........................................ ١٦٨
أركان القصر ........................................ ١٦٩
المبحث الثاني: أقسام القصر ........................................ ١٧٠
أولاً: تقسيم القصر من حيث طرفاه ........................................ ١٧٠
ثانياً: تقسيم القصر باعتبار الواقع ........................................ ١٧١
ثالثاً: تقسيم القصر من حيث المخاطبون ........................................ ١٧٣
المبحث الثالث: طرق القصر ........................................ ١٧٥
الفرق بين هذه الطرق ........................................ ١٧٥
الخلاصة ........................................ ١٧٦
المبحث الرابع: دراسة تطبيقية لأهمية القصر ووظيفته البيانية ........................................ ١٧٩

الفصل الثامن: الفصل والوصل ........................................ ١٨٣
المبحث الأول: مدخل وتعريف ........................................ ١٨٤
تمهيد ........................................ ١٨٤
فضل عبدالقاهر ........................................ ١٨٥
تعريف الفصل والوصل ........................................ ١٨٥
أمور أساسية تعين على فهم موضوع الفصل والوصل ........................................ ١٨٥
المبحث الثاني: أحوال الجمل ........................................ ١٩٠
المبحث الثالث: مواطن الفصل ........................................ ١٩٣
أول موجبات الفصل: كمال الاتصال ........................................ ١٩٣
ثاني موجبات الفصل: شبه كمال اتصال ........................................ ١٩٨
ثالثا موجبات الفصل: كمال الانقطاع ........................................ ١٩٩
رابع موجبات الفصل: شبه كمال الانقطاع ........................................ ٢٠١
خامس موجبات الفصل: التوسُّط بين الكمالين ........................................ ٢٠١
المبحث الرابع: مواطن الوصل ........................................ ٢٠٣
أولاً: اتفاق الجملتين خبراً وإنشاءً ........................................ ٢٠٣
ثانياً: كون الفصل مخلاً بالمعنى ........................................ ٢٠٤

## الباب الثاني: علم البيان


تمهيد: البيان تعريفه وتطوره ........................ ٢١١
فائدة علم البيان ........................ ٢١٣

الفصل الأول: التشبيه ........................ ٢١٧
التشبيه بين الوسيلة والغاية ........................ ٢١٨
أركان التشبيه ........................ ٢٢٢
الركنان الأولان: المشبه والمشبه به ........................ ٢٢٢
١- الحسيان ........................ ٢٢٣
٢- العقليان ........................ ٢٢٧
٣- ما كان المشبه عقلياً والمشبه به محسوساً ........................ ٢٢٨
٤- ما كان المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً ........................ ٢٢٩
الركن الثالث من أركان التشبيه: الأداة ........................ ٢٢٩
أولاً: أداة التشبيه حرف ........................ ٢٢٩
ثانياً: أداة التشبيه فعل ........................ ٢٣١
ثالثاً: أداة التشبيه اسم ........................ ٢٣١
الركن الرابع من أركان التشبيه: وجه الشبه ........................ ٢٣٢
أولاً: وجه الشبه الحسي والعقلي ........................ ٢٣٣
ثانياً: تقسيمه إلى مفرد ومتعدد ........................ ٢٣٤
أقسام التشبيه ........................ ٢٣٤
أولاً: تقسيم التشبيه من حيث طرفاه ........................ ٢٣٤
ثانياً: تقسيم التشبيه من حيث الأداة ........................ ٢٤٣
ثالثاً: تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه ........................ ٢٤٦
التشبيه التمثيلي كما استقرت عليه أقوال البيانيين ........................ ٢٤٦
التشبيه الضمني ........................ ٢٥٢
أسباب تأثير التشبيه ........................ ٢٥٨
التشبيه في القرآن ........................ ٢٦٣
نتائج مما سبق ........................ ٢٦٣
خصائص التشبيه في القرآن ........................ ٢٦٦

الفصل الثاني: المجاز ........................ ٢٧١
تمهيد ........................ ٢٧١

أولاً: تعريفه .......................................... ٢٧١
معناهما اللغوي .......................................... ٢٧١
معناهما الاصطلاحي .......................................... ٢٧٢
ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين .......................................... ٢٧٦
ثالثاً: تعدد الوضع .......................................... ٢٧٨
رابعاً: أنواع المجاز .......................................... ٢٨٠
المبحث الأول: المجاز العقلي .......................................... ٢٨٤
المبحث الثاني: المجاز اللغوي .......................................... ٢٩٥
المجاز المرسل .......................................... ٢٩٥
المبحث الثالث: الاستعارة .......................................... ٣٠٥
قيمة الاستعارة .......................................... ٣٠٦
أركان الاستعارة .......................................... ٣٠٦
الاستعارة مجاز لغوي أم عقلي .......................................... ٣٠٧
قرينة الاستعارة .......................................... ٣٠٩
الجامع في الاستعارة .......................................... ٣٠٩
الاستعارة التصريحية والمكنية .......................................... ٣٠٩
١- الاستعارة التصريحية .......................................... ٣٠٩
٢- الاستعارة المكنية .......................................... ٣١١
إجراء الاستعارة .......................................... ٣١٨
الاستعارة الأصلية والتبعية .......................................... ٣٢٠
الاستعارة التبعية في الفعل .......................................... ٣٢٣
إجراء آخر للاستعارة .......................................... ٣٢٥
الاستعارة التبعية في غير الفعل .......................................... ٣٢٧
الاستعارة في الحرف .......................................... ٣٢٩
الاستعارة التمثيلية .......................................... ٣٣١
الفصل الثالث: الكناية .......................................... ٣٣٥
تعريفها وأركانها .......................................... ٣٣٥
أقسام الكناية .......................................... ٣٣٧
أولاً: الكناية عن الصفة .......................................... ٣٣٧
ثانياً: الكناية عن الموصوف .......................................... ٣٤٤

ثالثاً: الكناية عن النسبة ........................ ٣٤٧
أمثلة القسم الأول ........................ ٣٤٨
أمثلة القسم الثاني ........................ ٣٤٩
بين الكناية والتعريض ........................ ٣٥٠

**الباب الثالث: علم البديع**

البديع لغةً واصطلاحاً ........................ ٣٥٩
لمحة تاريخية ........................ ٣٥٩

**الفصل الأول: المحسنات المعنوية** ........................ ٣٦٣
المبحث الأول: الطباق ........................ ٣٦٣
أقسام الطباق ........................ ٣٦٥
المبحث الثاني: بين الطباق والمقابلة ........................ ٣٦٦
التقابل في اثنين ........................ ٣٦٦
التقابل في ثلاثة ........................ ٣٦٧
التقابل فيما فوق الثلاثة ........................ ٣٦٨
المبحث الثالث: التورية ........................ ٣٧٠
المبحث الرابع: تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح ........ ٣٧٣
المبحث الخامس: أسلوب الحكيم ........................ ٣٧٦

**الفصل الثاني: المحسنات اللفظية** ........................ ٣٨١
المبحث الأول: الجناس ........................ ٣٨١
المبحث الثاني: السجع ........................ ٣٩٠
المبحث الثالث: ردّ العجز على الصدر ........................ ٣٩١

الفهرس ........................ ٣٩٣

# الباب الثالث

# علم البديع

# البَابُ الثَّالِث

## علم البديع

**البديع لغةً واصطلاحاً:**

جاء في لسان العرب: (بَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُهُ بَدْعاً، وابْتَدَعَه: أنشأه وبدأه، وبَدَعَ الرَّكِيَّةَ: استنبطها وأحدثها، ورَكِيٌّ بَديعٌ: حديثةُ الحفر، والبَديع والبدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً. وفي التنزيل: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٩]، أي: ما كنت أول من أُرسل، قد أُرسل قبلي رسل كثير)[١].

وإذا كان البديع لغةً: الجديد والحديث، فإن المعنى الاصطلاحي للبديع منسجم تمام الانسجام مع هذا المعنى اللغوي، فلقد أطلق البديع فناً من فنون القول على ما أحدثه الشعراء المولدون[٢] من أساليب بيانية، كمسلم بن الوليد، وبشار وأبي تمام، إلا أن أول كتاب ظهر يحمل هذا الاسم هو البديع لعبدالله بن المعتز (٢٩٦هـ)، وذكر في مقدمته بأنه أراد أن ينبه على أن هؤلاء الشعراء ليسوا هم الذين اخترعوا هذا الفن من القول، ولكنهم أكثروا منه وغلوا فيه.

**لمحة تاريخية:**

ولقد كانت فنون البديع تشمل أكثر المباحث البلاغية، وعلى التحديد تشمل ما يُعرف اليوم بمسائل علم البيان وبعض القضايا في علم المعاني، وهذا يظهر مما كتبه ابن

---

(١) لسان العرب، ١/ ١٧٤.

(٢) الشعراء المولدون: هم الشعراء من آباءٍ عرب وأمهاتٍ غير عربيات.

المعتز ومن بعده قدامة في نقد الشعر، ونتيجة لحتمية التطور بدأت قضايا البديع تكون مجموعة خاصة لتنفصل عن غيرها، فإذا كان المجاز والكناية بأقسامها، والتشبيه كذلك، إذا كانت أولئك جميعاً تعد من البديع فلقد أصبحت فيما بعد تكون فناً خاصاً.

ولما ازدهرت العلوم البلاغية على يد الشيخ عبدالقاهر – رحمه الله – ، لم تكن هذه العلوم استقرت على النهج الأخير الذي عرف فيما بعد، إلا أن الشيخ – رحمه الله تعالى – شاء الله له أن يكتب سفريه النفيسين ليخلدا ذكره: (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، تحدث في الأول عن نظرية النظم وهو ما عُرف فيما بعد بعلم المعاني، وتحدث في الثاني عما عرف بعد بعلم البيان، ولكنه لم يفصل بين هذين العلمين، حيث نجده يستعمل كلمة النظم وكلمة البيان غير مفرق بينهما، ولم يول الفنون البديعية كبير عناية، وإنما اقتصر على ذكر نوعين: السجع والتجنيس، وكان ذكره لهما منشقاً عن نظرية النظم التي أراد بيانها وشرحها.

ونظن أن أول من فصل بين مسائل علمي المعاني والبيان الإمام الزمخشري – رحمه الله – ، كما يظهر ذلك في مقدمة كشافه، ولم يكن يعد مسائل البديع من صلب البلاغة، ثم جاء السكاكي فنهج نهج الزمخشري، فذكر المحسنات البديعة في القسم الثالث من مفتاحه، لا على أنها علم مستقل، بل على أنها محسنات فحسب.

ويظهر أن أول من جعل هذه المسائل علماً مستقلاً بدر الدين بن مالك في مصباحه، حيث قسم البلاغة إلى ثلاثة فنون هي المعاني والبيان والبديع، وهذا هو ما استقر عليه الأمر إلى يومنا هذا، فعلم المعاني هو نظرية النظم التي تتحقق به هذه المقولة: «لكل مقام مقال» ، على أن البلاغة سيظل علما المعاني والبيان ركنيها الرئيسين الأساسين، وعلم البيان هو الذي يؤدى به المعنى الواحد بصور متعددة، وعلم البديع يأتي بعد هذين العلمين، فهو علم المحسنات، وهذه المحسنات، قد تكون من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى كما ستعرفه.

وحينما أصاب البلاغة ما أصابها من جمود وذبول وذهول أُصيب به دارسوها أخذ الناس يتبارون في هذه المحسنات البديعة، مهما طغى ذلك على رونق المعنى

وجمال الأسلوب، وصار هم كل واحد أن يستنتج أكثر من غيره من الأنواع، فابن أبي الأصبع مثلاً في تحرير التحبير يُنيّف على العشرين بعد المائة من الأنواع البديعية، ثم كان فيما بعد ما يسمى بالبديعيات، وهي منظومات في مدح الرسول ﷺ.

ولقد جنت هذه الصنعة البديعية على البلاغة أيما جناية، وكثير من الأنواع التي كانوا يذكرونها كان بعضها متداخلاً في بعضه الآخر، ومن جهة أخرى فإن الكثير منها حقه أن يُذكر في علم المعاني، كالالتفاف، والاحتراس، والإيغال، والاعتراض، والتتميم، مما حدثناك عنه هناك في أوائل هذا الكتاب، ونحن لا ننكر أن بعض هذه الأنواع تكسب الكلام جمالاً ما دامت غير متكلفة.

من كل ما سبق نستخلص أن علم البديع هو العلم الذي يوشّى به الكلام بأوجه الحسن، وقد يكون ذلك الحسن من جهة اللفظ وقد يكون من جهة المعنى، ومن هنا فلقد قسموا مباحث هذا العلم إلى قسمين:

أولاً: المحسنات المعنوية.
ثانياً: المحسنات اللفظية.

فالمحسنات المعنوية هي ما يرجع الجمال فيها إلى المعنى، والمحسنات اللفظية هي ما يرجع الجمال فيها إلى اللفظ، وليس معنى هذا، أن ينظر إلى هذه المحسنات بعيدة عن الأساليب التي قررت في علمي المعاني والبيان، بل الحق أن ننظر إلى النص نظرة موضوعية شاملة، حيث يجب أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كما قرر في علم المعاني، وأن يكون بأسلوب مؤثر، بعيداً عن التعقيد كما قرر في علم البيان.

أما إذا أردنا أن نأخذ هذه المحسنات على حدة، فذلك من شأنه أن يؤدي إلى التكلف، وإلى أن يصبح الكلام بارداً ممجوجاً، ويظهر فيه التصنع الممقوت، ولذا كانت مباحث هذا العلم تذكر بعد فنيّ المعاني والبيان، وسنقتصر على ذكر بعض هذه المحسنات مما يظهر أثره في تحسين القول، ومما له أثر في تزيين الكلام، متجنبين الإغراب، والإغراق في كل ما لا طائل من ذكره.

# الفَصْلُ الأَوَّلُ

## المحسنات المعنوية

### المبحث الأول

## الطبـاق

والطباق في الأصل مصدر، يقال: طابقت بين الشيئين طباقاً، وقد لوحظ هذا المعنى في الطباق الاصطلاحي، فالطباق في الاصطلاح هو الجمع بين الشيء ومقابله أو الشيء وضدِّه، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما اسمين أو فعلين أو حرفين.

فمثاله في الاسمين، الظلمات والنور في قوله سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١]، والسماء والأرض في قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام:١]، والإنس والجن في مثل قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢]، وقوله سبحانه: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف:١٨]، ومنه قول الشاعر:

وأصـدعُ شَـكِّي بـاليَقينِ وإنَّـني ... لِنفْسِي على بَعْضِ المَساءَةِ حابسُ

وقول الشاعر:

إنـــّما الـــدُّنيا هِبـــاتٌ ... وَعَـــوارٍ مُـــسْتَرَدَّةْ

شِـــدَّةٌ بَعْـــدَ رَخـــاءٍ ... ورخـــاءٌ بَعْـــدَ شِـــدَّةْ

تقول: «الحياة إما سلم وإما حرب» ، و«الوضع الذي تعيشه أمتنا مستهجن إذ لا هو سلمٌ ولا هو حرب» ومن كلمات النبوة الجامعة «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»[(١)].

ومثاله في الفعلين قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٧]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾ [النجم:٤٣-٤٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾ [الشعراء:٧٩-٨١]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران:٢٦]، وفي الأثر «رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما من تشاء ارحمنا رحمةً تغنينا بها عن رحمة من سواك» ، وكذلك ما جاء في الدعاء «اللهم أغننا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك»[(٢)]، ومنه قول دعبل الخزاعي[(٣)]:

لا تعْجَـبِي يـا سَـلْمِ مِـنْ رَجُـلٍ ... ضَـحِكَ المَـشيبُ برأسِـهِ فَبَكَـى

ومثاله في الحرفين قوله سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقولك: «الأمة التي تستحق الحياة لا تسكت عما لها من حقوق ضعفاً وجبناً، ولا تترك ما عليها من الواجبات كسلاً وأنانية»، ومنه قول الشاعر:

عَلَى أنّني راضٍ بـأنْ أحْمِـلَ الهَـوَى ... وأخْلُـصَ مِنْـهُ لاَ عَلَـيَّ وَلا لِيَـا

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب ٤٠ (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع) حديث ٤٧٧.

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع).

(٣) معاهد التنصيص، ٢/ ١٨٤.

وقد يكون الطباق بين اسم وفعل وذلك مثل قوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فالمقابلة هنا بين (ميتاً) وهي الاسم، و(أحييناه) وهي الفعل. ومنه قول طفيل الغنوي[1]:

بِساهِمِ الوَجْهِ لَم تُقْطَعْ أَباجِلُهُ ... يُصانُ وَهْوَ لِيَومِ الرَّوْعِ مَبْذُولُ

وقد يكون إدراك الطباق واضحاً جلياً لا خفاء فيه كما مر، فأنت تجد أنه من السهل عليك أن تدرك كل معنيين متقابلين في الأمثلة السابقة، وقد يحتاج إلى نوع من الفكر والتأمل، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ [نوح:٢٥]، فلأول وهلة قد يظن أن ليس في الآية الكريمة طباق، ولكننا حينما نعرف أن إدخال النار معناه الإحراق فكأنه قيل: (أُغرقوا فأُحرقوا)، يظهر لنا الطباق في الآية الكريمة.

**أقسام الطباق:**

والطباق قد يكون طباق إيجاب لا نفي فيه، وقد يكون طباق سلب، فطباق الإيجاب ما تقدم، ومثال طباق السلب قوله سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم:٦-٧]، وقوله: ﴿ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴾ [النجم:٥٩-٦٠]، وقوله: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ [المائدة:٤٤].

ومنه قول السموأل[2]:

ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا عَلى النَّاسِ قَولَهُم ... ولا يُنْكِرُونَ القَولَ حِينَ نَقولُ

ومنه قول البحتري[3]:

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لا أَعْلَمُ الهَوَى ... ويَسْرِي إليَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

---

(١) الصناعتين ص٣٠٣. بساهم الوجه، أي: قليل لحم الوجه لطول غزوه وكثرة عتقه، لم تقطع أباجله، أي: لم يصبه داء يقطعه البيطار، والأبجل: عِرق في الرجْل، والطباق هنا بين الفعل (يُصان) والاسم (مبذول).

(٢) ديوان المعاني، ٢/٥٩. العقد الفريد، ٤/٢.

(٣) ديوانه، ٢/٢٢٩.

## المبحث الثاني

# بين الطباق والمقابلة

جمهور العلماء على أن المقابلة غير الطباق، والمقابلة عندهم أن يؤتى بمعنيين فأكثر ثم بما يقابل هذه المعاني، أما الطباق فلا يكون إلا بين معنى واحدٍ وما يقابله، فأنت ترى أن الطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد، كل ما في الأمر أن الطباق يكون بين معنيين، أما المقابلة فيشترط لها أكثر من ذلك. ولا نرى ضرورة لهذا الاصطلاح ما دام الموضوع واحداً، ولم لا تكون المطابقة والمقابلة شيئاً واحداً، وتكون بين المعنى الواحد وما يقابله، أو بين معنيين وما يقابلهما، أو بين ما يزيد على اثنين، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما يقولون.

وقد عرفت في الطباق كيف أننا نأتي بالمعنى وما يقابله أو يضاده، ونحدثك الآن عن المقابلة أو المطابقة فيما هو أكثر من ذلك.

**التقابل في اثنين:**

فمثالها في أمرين قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة:٨٢]، فقد جمع بين الضحك والبكاء والقلة والكثرة، وقوله سبحانه: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧]، ومنه قوله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»[1] وما روي عنه ﷺ «أحبب حبيبك هوناً ما

---

(١) رواه مسلم كتاب البر، باب فضل الرفق، حديث ٧٨، ٤٤/ ٢٠٠٤.

عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[(١)]. ومنه قول النابغة[(٢)]:

فَتَىً كَانَ فيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... عَلَى أنَّ فيهِ مَا يَسُوءُ الأعادِيَا

ومنه قول ابن المعتز[(٣)]:

جُمِعَ الحَقُّ لَنَا في إمَامٍ ... قَتَلَ البُخْلَ وأحْيَا السَّمَاحَا

ومنه قول المتنبي[(٤)]:

إذا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وإنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

**التقابل في ثلاثة:**

ونمثل له بقوله سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فهنا ثلاثة معان قابلتها ثلاث أخر، أما الثلاثة الأولى، فهي: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وأما الثلاثة الأخر: فهي ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، فالمقابلة بين (يحرم ويحل)، (لهم وعليهم)، (الخبائث والطيبات) ففي كل اسم وفعل وحرف، ومنه قول أبي الطيب:

فَلا الجُودُ يُفْنِي المَالَ والجِدُّ مُقْبِلٌ ... وَلا البُخْلُ يُبْقِي المَالَ والجِدُّ مُدْبِرُ

(فالجود) يقابله (البخل)، و(إفناء المال) يقابله (إبقاؤه)، (ومقبل) يقابله (مدبر)، ومنه قول جرير:

وباسِطُ خَيْرٍ فيكُمْ بيَمِينِهِ ... وقابِضُ شَرٍّ عَنْكُمْ بِشِمالِهِ

---

(١) رواه الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض رقم (٦٠)، حديث رقم ١٩٩٨، قال أبو عيسى: غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه.

(٢) العمدة، ٢/ ١٤.

(٣) ديوانه، ص١٣٣.

(٤) ديوان المتنبي، ١/ ٢٨٨.

وقال البحتري[1]:

فـإذا حـاربُوا أذلُّـوا عَزيـزاً      وإذا سـالَمُوا أعَـزُّوا ذلـيلاً

ومنه قول أبي دلامة[2]:

مَا أحْسَنَ الدِّيْنَ والدُّنْيَا إذا اجْتَمَعَا      وأقْبحَ الكُفْرَ والإفْلاَسَ بالرَّجُلِ

فقد قابل بين الحسن والقبح، والدِّين والكفر، والدنيا والإفلاس. ومنه قول الخليفة الراشد: «الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه» . ومنه قولنا: «رحم الله أسلافنا، فلقد رفعوا الحق فوق رؤوسهم، ووضعوا الباطل تحت أرجلهم، وكانوا رهبان ليل رحماء، وفرسان نهار أقوياء، وما كانوا يجمدون في حق مع ضعيف، ولا يذوبون في باطل مع قوي» .

**التقابل فيما فوق الثلاثة :**

مثالها فيما فوق ثلاثة: قوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-١٠]، فمقابل العطاء البخل، ومقابل التقوى الاستغناء، ومقابل التصديق التكذيب، ومقابل اليسر العسر، ومنه قول الشاعر المتنبي[3]:

أزورُهُم وَسَوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي      وأنْثني وَبَياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بي

وقول الشاعر:

عَلَى رَأْسِ عَبْدٍ تَاجُ عِزٍّ يُزِينُهُ      وَفي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذلٍّ يُشينُهُ

---

(١) ديوان البحتري، ٢/ ٢٩٢. والبيت من قصيدة في مدح محمد بن علي بن عيسى القُمّي.

(٢) معاهد التنصيص ٢/ ٢٠٧.

(٣) ديوان المتنبي، ١/ ١٨٨. وسواد الليل يشفع لي، أي: يستر عليّ، وبياض الصبح يغري بي، أي: يشهر بي ويدلّ عليّ.

فقد قابل بين الرأس والرِّجل، والعبد والحر، والتاج والقيد، والعز والذل، والزين والشين.

وبالجملة فهذا النوع من البديع يكون مقبولاً، إذا كان النظم الذي جاء فيه مطابقاً لمقتضى الحال، وكان خالياً من التعقيد، خالياً من الصنعة المتكلفة كذلك.

## المبحث الثالث

# التوريـة

وهي مصدر مثل تحلية وتخلية وتعمية وتنقية، يقال: ورّى الخبر تورية إذا ستره وأظهر غيره، وهذا المعنى اللغوي يرشدنا إلى المعنى الاصطلاحي، فالتورية في الاصطلاح: أن يذكر اللفظ المفرد ويكون له معنيان، أحدهما قريب والآخر بعيد، ويكون البعيد هو المراد، ولا بد لها من قرينة تبيّن المعنى المراد، وهذه القرينة تدرك بالتأمل.

استمع إلى قول ذلك الجبان:

أَقُولُ وقَـدْ شَـدّوا إلى الحَـرْبِ غـارةً　　　دَعُـوني فإنـِّي آكُـلُ الخُبْـزَ بـالجُبْنِ

وأنت تعلم أن للجبن معنيين، معنى قريباً وهو الجبن الذي يؤكل، ومعنى بعيداً وهو ضد الشجاعة، والمراد هنا هذا المعنى البعيد، والقرينة «أقول وقد شدوا إلى الحرب غارة» وإن كان المعنى القريب هو المتبادر لأنه جاء مع أكل الخبز.

وقال ابن الظاهر:

شـكراً لنَسْمَةِ أرضِكُمْ　　　كَـمْ بَلَّغَـتْ عَنِّـي تَحِيَّـةْ

لا غَـرْوَ إنْ حَفِظَـتْ أَحَـا　　　ديـثَ الهَـوى فَهْـيَ الذَّكِيَّـةْ

والتورية في كلمة (ذكية) فإن لها معنيين، أحدهما قريب وهو الساطع الرائحة، والثاني بعيد وهو الفطنة، وهذا هو الذي قصده الشاعر. ومنه قول أبي الحسين الجزار:

كيـفَ لا أشْكُرُ الجِزارةَ مـا عِشْتُ　　　حِفاظـاً وأهْجُـرُ الآدابـا

وبهـا صَـارَتِ الكِـلابُ تُـرَجِّيني　　　وبالـشِّعْرِ كُنْـتُ أرْجُـو الكِلاَبـا

وكلمة الكلاب لها معنيان: أحدهما قريب متبادر إلى الذهن وهو الحيوان المعروف، وسبب تبادر هذا المعنى للذهن التمهيد له بذكر الجزارة، والثاني بعيد وهو لئام الناس، وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الشاعر.

وقال بدر الدين الذهبي:

يـا عَـاذِلي فيـه قُـلْ لِـي | إذا بَـدا كَيْـفَ أسْـلُو؟
يَمُـرُّ بـي كُـلَّ وَقْـتٍ | وَكُلَّمَـا مَـرَّ يحْلُـو

وكلمة (مَرَّ) لها معنيان: أحدهما قريب وهو المرور، والآخر بعيد وهو ضد الحلاوة، وهذا ما قصده الشاعر. وقال نصير الدين الحمامي:

أبيـاتُ شِـعْرِكَ كَالقُـصُورِ | وَلا قُـصُورَ بهـا يَعُـوقُ
وَمِـنَ العَجَائِـبِ لَفْظُهَـا | حُـرٌّ وَمَعْنَاهَـا رَقيـقُ

فكلمة (رقيق) لها معنيان: معنى قريب متبادر وهو العبد المملوك، وسبب تبادره إلى الذهن ذكره لكلمة (حر)، والمعنى البعيد هو اللطيف السهل، وهو ما أراده الشاعر. وقال ابن دانيال:

يـا سَائِلي عَـنْ حِرْفَتِـي في الـوَرَى | وأضْـيعَتِي فـيهِمْ وإفلاسـي
مَـا حَـالُ مَـنْ دِرهَـمُ إنفاقِـهِ | يَأخُـذُهُ مِـنْ أعْـيُنِ النَّـاسِ

فإن في قوله: «يأخذه من أعين الناس» معنيين معنى قريباً، وهو أنه يأخذ الدرهم أجراً لعلاج العيون، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن حديثه عن حرفته، والمعنى البعيد أنه يأخذ الدراهم من الناس رغماً عنهم، وهذا هو المعنى المراد هنا.

وقال سراج الدين الوراق:

أصُونُ أدِيمَ وَجْهِي عَـنْ أُناسٍ | لِقَـاءُ المَـوْتِ عِنْـدَهُمُ الأديـبُ
وَرَبُّ الـشِّعْرِ عِنْـدَهُمْ بَغيـضٌ | وَلَـوْ وَافَـى بـهِ لَهُـمُ حَبيـبُ

فكلمة (حبيب) لها معنيان: معنى قريب وهو المحبوب، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن ذكره كلمة (بغيض)، ومعنى بعيد وهو اسم الشاعر أبي تمام وهو حبيب بن أوس، وهذا هو الذي أراده الشاعر.

والتورية كما رأيت من الأمثلة السابقة أساسها الذي بنيت عليه، وهو اللفظ المشترك، والمشترك هو ما اتحد لفظه واختلف معناه. كالعين التي تطلق على عين الماء وعلى العين المبصرة وغيرهما، وككلمة الصقر التي تطلق على الحيوان المعروف وعلى اللبن الحامض، وخِطط الشعر في أذن الفرس والدبس الرطب.

ونحن نقبل التورية إذا كان لها سبب مقبول، ولم يكن فيها تكلف وجور على المعنى، ونلحظ من كتب البلاغة والأدب أن أكثر ما مثلوا به للتورية جُلّه ليس من كلام المتقدمين، على النقيض مما رأينا في الاستعارة والتشبيه وأنواع المجاز، وهذا يدلنا على أن هذه المحسنات قد صارت فيما بعد من الأمور المتكلفة، لذا فإن ما نقبله منها ما كان متسقاً مع قواعد البلاغة، فالبلاغة كلٌّ لا يتجزأ. فلا يمكننا أن نستحسن في فن من فنونها ما كان مستقبحاً في فنٍّ آخر.

## المبحث الرابع

# تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح

جعلوا هذا القسم من المحسنات المعنوية في علم البديع فالأول، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وله أسلوبان من القول:

الأسلوب الأول: أن يذكر صفة ذم منفية، ثم يأتي بأداة الاستثناء، فيتوهم السامع أنه يريد أن يستثني من هذا المنفي شيئاً يذم به الممدوح، ذلك لأن المستثنى يخالف المستثنى منه، فإذا قلنا: «استيقظت الأمم المظلومة من رقدتها إلا أمتنا» فالمستثنى هنا مخالف للمستثنى منه.

ففي هذا الأسلوب ننفي عيباً ثم نستثني شيئاً، إلا أن هذا المستثنى عند التأمل نجده مدحاً آخر. استمع إلى قول النابغة الذبياني[1]:

وَلا عَيْـبَ فـيهِمْ غَيْـرَ أنَّ سُـيُوفَهُمْ　　　بهِـنَّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـراعِ الكَتائِـبِ

فقد نفى العيب كما رأيت بقوله: (ولا عيب فيهم)، ثم جاء بأداة الاستثناء فتوهم أنه يريد أن يثبت عيباً، ولكن هذا الذي استثناه لم يكن سوى مدحٍ على مدح.

وجعلوا منه قوله سبحانه – ما قاله السحرة لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف:١٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨]، كذلك قوله سبحانه: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]. قال ابن الرومي:

---

(١) الإيضاح، ٦/ ٧٥. الفلول: الثلوم جمع ثلم، القراع: المجالدة، الكتائب: الجيوش.

لَـيْسَ بِـهِ عَيْـبٌ سِـوَى أنَــهُ     لاَ تَقَـعُ العَـيْنُ عَلَـى شَـبَهِهِ

وقال آخر:

وَلاَ عَيْـبَ فِي مَعْـرُوفِهِمْ غَيْـرَ أنَّـهُ     يُبَيِّنُ عَجْـزَ الشَّاكِرِين عَنِ الشُّكْرِ

وقال ابن نباتة المصري:

ولاَ عَيْبَ فيـهِ غَيْرَ أنـي قَصَدْتُهُ     فأنْـسَتْنِي الأيـامُ أهْـلاً وَمَوْطِنـا

وقال آخر:

وَلاَ عَيْبَ فِيكُمْ غَيْرَ أنَّ ضُيُوفَكُمْ     تُعـابُ بِنِسْيانِ الأحِبَّـةِ وَالـوَطَنْ

وقال صفي الدين الحلي:

لاَ عَيْبَ فـيهِم سِوَى أنَّ النَزيـلَ بهِـمْ     يَسْلُو عَنِ الأهْـلِ والأوْطـانِ وَالحَـشَمِ

الأسلوب الثاني: أن يذكر المتكلم صفة مدح ثم يستثني منها صفة، فيظن أن المستثنى مذموم، ولكن في الحقيقة يكون مدحاً على مدح، ومنه قوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» ومنه قول النابغة الجعدي[1]:

فتـىً كَمُلَـتْ أخْلاقُـهُ غَيْـرَ أنـهُ     جَـوادٌ فَمَـا يُبْقِي عَلَـى المـالِ بَاقِيا

وقول الآخر:

وَجُـوهٌ كأزْهَـارِ الرِّيَـاضِ نـضارَةً     وَلَكِنَّهـا يَـوْمَ الهِيـاجِ صُـخورُ

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فله أسلوبان كذلك:

الأول: أن ينفي صفة خير ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتوهم أنه يريد مدحاً.

---

(١) ديوان النابغة الجعدي، ص١٧٣.

الثاني: أن يثبت صفة ذمٍّ ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتوهم أنه يريد مدحاً إلا أن المستثنى يكون ذماً كذلك.

ومثال الأسلوب الأول: «لا خير فيهم إلا أنهم يجبنون عن الحق»، «لا أيمان لهم إلا أنهم يضيعون الأمانة»، «لا جمال في القصيدة إلا أنها معوجة الوزن»، «لا فائدة في الكتاب إلا أنه كثير الأخطاء اللغوية»، «لا عمق في البحث إلا أنه كثير الاستطراد».

ومثال الأسلوب الثاني: «قوم يخشون أعداءهم إلا أنهم يفتِكون بذويهم»، «هم يبذرون المال إلا أنهم يسلبون حقوق الناس»، «هم يضحكون لخصومهم إلا أنهم قساة على بني جلدتهم»، «يكثرون من اللغو في الباطل إلا أنهم يسكتون عن الحق» ومنه قول الشاعر:

لَئِيمُ الطِّبَاعِ سِوَى أنَّهُ ... جَبَانٌ يَهُونُ عَلَيْهِ الهَوَانُ

## المبحث الخامس

# أسلـوب الحكيـم

من المحسنات المعنوية أسلوب الحكيم، وتدرك لأول وهلة من هذه التسمية، أنه يبنى على الحكمة في مخاطبة الناس، فأسلوب الحكيم أن تحدث المخاطب بغير ما يتوقع وهو ضربان:

الأول: إما أن نتجاهل سؤال المخاطب فنجيبه عن سؤال آخر لم يسأله.

الثاني: وإما أن نحمل كلامه على غير ما كان يقصده ويريده، وفي هذا توجيه للمخاطب إلى ما ينبغي عليه أن يسأل عنه، أو يقصده من كلامه.

ومن أمثلة الضرب الأول قول سبحانه: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة:١٨٩]، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ : «ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ؟» ، كان سؤالهم عن السبب والعلة، لكن القرآن الكريم قال: ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾، وهذه الإجابة ليس عن سبب تغير الهلال، إنما هي عن الحكمة منه، فقد سألوا عن العلة والسبب، ولكن القرآن الكريم أجابهم عن الحكمة من تغير الأهلة وهي أنها مواقيت للناس والحج، سألوا عن شيء ولكنهم أجيبوا عن شيء آخر، وهذا فيه من الحكمة ما فيه، كأنه يقول لهم، حري بكم أن تسألوا عما يمس واقعكم، ألا ترى أنه قال لهم بعد ذلك ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة:٢١٥]، فقد سألوا عما ينفقون ولكن القرآن الكريم أجابهم عن سؤال آخر وهو لمن ينبغي أن تكون النفقة.

ومثل هذا أن يسألك أحد الطلاب الكسالى عن موعد الامتحان والمادة المقررة فتقول له: «من أراد النجاح فلا بد أن يشمر عن ساعد الجدّ». وأن يسألك أحد الجشعين الذين يمتصون دماء الناس وعرقهم «كيف يمكن أن تسترد أمتنا السليب والمقدس؟ كيف تنشئ نفسها تنشئة عسكرية؟» فتجيبه بقولك: «إن أول خطوة في رقي الأمم أن لا يبغي بعضها على بعض، وأن يأخذ الضعيف فيها حقه من غير تعتعة ولا مشقة، وأن يرحم بعضها بعضاً»، وإذا سألك مستبدٌّ عن عوامل القوة وأسبابها في الأمم أجبته بقولك: «إن أول ما تمتاز به الأمم المتقدمة حرية التعبير عن الرأي».

فأنت ترى في هذه الأمثلة جميعاً أن الإجابة لم تكن عن السؤال نفسه، إنما كانت عن سؤال آخر كان حرياً به أن يسأل عنه، وكأننا نقول للسائل بلطف وأدب وذوق: «جدير بك أن تسأل غير هذا السؤال، جدير بك أن تسأل عن كذا وكذا»، وقد تكون عدم الإجابة عن سؤال السائل، لأنه لم يستطع استيعاب السؤال لصغر سنّه أو قصر إدراكه.

استمع إلى هذا الأب وقد جاءه ولده يسأله عن بعض القضايا التي تاهت فيها الفلسفة وحارَ بها المتكلمون، جاء يسأله عن ماهية الروح وماهية النفس والفرق بينهما، والأب يدرك أن ولده لا يستطيع استيعاب هذه القضايا، فكيف يتصرف مع ولده يا ترى؟ لنتسمع إليه:

جَـاءَنِي ابْنِـي يَوْمَـاً وكُنْـتُ أَرَاهُ ... لِـي رَيْحَانَــةً وَمَـصْدَرَ أُنْـسِ

قَالَ مَا الرُّوحُ؟ قُلْـتُ إِنـَّكَ رُوحِـي ... قَالَ مَا النَّفْسُ؟ قُلْـتُ إِنـَّكَ نَـفْسِي

ألم تر كيف كان الأب حكيماً حقاً، حيث جنّب ولده ما يعسر عليه فهمه ويصعب عليه إدراكه.

قد يسألك سائل وأنت تهاتفه من أين تتكلم، ولا تريد أن تخبره عن المكان الذي أنت فيه، فتقول: «من فمي»، فيدرك ويكف عن السؤال. «قيل إن رجلاً من أهل

الحيرة جاء خالد بن لوليد ﷺ فسأله خالد فيمَ أنت؟ قال: في ثيابي. فقال: علام أنت؟ قال: على الأرض. فقال: كم سنك؟ قال: اثنتان وثلاثون، فقال: أسألك عن شيء وتجيبني بغيره؟ فقال: إنما أجبت عما سألت».

ومثال الضرب الثاني وهو أن تحمل كلام المخاطب على غير ما يقصد، وهو قريب من الضرب الأول، إلا أن الضرب الأول كان ناشئاً عن سؤال كما رأيت، وإليك بعض الأمثلة التي تبينه، وأظنك قد سمعت حكاية الحجاج، فقد بلغه أن القبعثري، لما ذكر الحجاج بينه وبين أصحابه في بستان قال: اللهم سوِّد وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه، فوشي به إلى الحجاج. فلما مثل بين يديه وسأله عن ذلك قال: إنما أردت العنب فقال الحجاج: لأحملنك على الأدهم؛ وكان يقصد أنه سيقيده بالحديد. فقال هذا الرجل: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب»، وقد حمل كلام الحجاج على غير ما قصد، فالأدهم الذي يريد الحجاج القيد، ولكن الرجل حمله على الفرس، قال الحجاج: إنه حديد قال الرجل: «لأن يكون حديداً خير من أن يكون قديداً»[1]، ومثل هذا قول ابن حجاج عبدالله بن أحمد البغدادي[2]:

قـالَ ثقّلْـتُ إذْ أتَيْـتُ مِـراراً ... قُلْـتُ ثقّلْـتَ كَـاهِلي بالأيَـادِي
قـالَ طَوَّلْـتُ قُلْـتُ أوْلَيْـتَ طَـوْلاً ... قَـالَ أبْرَمْـتُ قُلْـتُ حَبْـلَ وِدادِي

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع وكيف أراد أن يقي صاحبه الذلة، ويذهب عنه الحرج، يقول له: أنا ثقلت عليك بكثرة ما أسأل، ولكنه يرد هذا المعنى بأن الأمر على العكس من ذلك، فأنت إنما ثقلت كاهلي بالنعم فلك الشكر، قال: لقد طولت عليك وأخذت من وقتك، فيقول له: لقد أوليت طوْلاً – أي نِعماً – فيحمل كلمة طولت على غير ما قصدها المتكلم، قال: أبرمت، أي: جعلتك تسأم مني وتضيق بي، فيحملها المخاطب محملاً آخر، فيقول إنما أبرمت حبل مودة وعهد صفاء.

---

(١) المعنى: أن يكون هذا الفرس قوياً خير من أن يكون ضعيفاً.

(٢) اليتيمة، ٣/ ٣. نهاية الأرب، ٧/ ١٧١.

وهناك بعض الأمثلة مما اشتهر في الأسلوب الحكيم. قال الشاعر:

وَلَقَدْ أتَيْتُ لِصَاحِبِي وَسَأَلْتُهُ ... في قَرْضِ دِينارٍ لأمْرٍ كَانَا

فَأجابَنِي وَاللهِ دَارِيَ مَا حَوَتْ ... عَيْناً فَقُلْتُ لَهُ وَلا إنْسانا

فالمخاطب حمل كلمة عيناً على الذهب، لكن المتكلم حملها على العين الباصرة.. وهذا ما لم يقصده المخاطب.

وقال آخر:

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَماً ... يَوْماً فَأظْهَرَ العَجَبْ

وَقَالَ ذا مِنْ فِضَّةٍ ... يُصْنَعُ لا مِنَ الذَّهَبْ

وفي هذا صرف للمخاطب عن طلبه للدينار، فقد ذهب الشاعر يشرح له مم يُصنع الدرهم، وأنه من الذهب والفضة ليشعر المخاطب بأنه كان ينبغي له أن لا يطلب مثل هذا الطلب.

وسئل أحد العمال: ماذا ادخرت من المال؟ فقال: لا شيء يعادل الصحة.

وقال الشاعر:

وَلَمَّا نعَى النَّاعِي سَأَلْنَاهُ خَشْيَةً ... وَلِلْعَيْنِ خَوْفَ البَيْنِ تَسْكَابُ أمْطارِ

أجابَ: قَضَى قُلْنا لَهُ: حَاجَةَ العُلا ... فَقَالَ: مَضَى قُلْنا: بكُلِّ فَخَارِ

فقد حمل المخاطب كلمة (قضى) على إنجاز الحوائج وقضائها، أما المتكلم فقصد منها الموت. وكذلك قوله (مضى) أراد المتكلم (مات)، وحملها المخاطب على أنه ذهب بالفضل ولم يدع لأحد شيئاً.

هذه بعض المحسنات المعنوية ولعل ما اقتصرنا عليه هو أخطرها شأناً وأكثرها فائدة.

# الفَصْلُ الثَّانِي

# المحسنات اللفظية

## المبحث الأول

## الجنـاس

من المحسنات اللفظية الجناس، ولعله زينتها وأشهرها، ولذا خصّه والسجع الشيخ عبدالقاهر بالذكر، ويسمى المجانسة والتجانس، وهو أن يتفق اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، ومعنى هذا أنك تذكر الكلمة في موضعين فيكون لها في كل موضع معنى يختلف عن الآخر، وقد تكون الكلمتان اسمين أو فعلين، أو تكون إحداهما اسماً والأخرى فعلاً، وهو قسمان: جناس تام وجناس ناقص.

فالجناس التام أن تتفق الكلمتان في أربعة أشياء.

١- في نوع الحروف.

٢- في الشكل.

٣- في العدد.

٤- وفي الترتيب.

والجناس الناقص أن تختلف الكلمتان في واحد من هذه الأربع. واعلم أن الجناس إنما يقبل في الكلام إذا كانت الصنعة فيه توافق الطبع، قال الشيخ رحمه الله:

«أما التجنيس فإنك لا تستحسن اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، أتُراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله[1]:

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/١٢٩. والبيت من قصيدة في مدح الحسن بن وهب. ذهبت بمذهبه: يحتمل وجهين فتح الميم وضمها، فعلى الفتح يكون المعنى: ذهبت بطريقته السماحة أي غلبت عليه، =

ذهَبَتْ بِمُذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوَتْ فيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَبٌ أَمْ مُذهَبُ؟

واستحسنت تجنيس القائل (حتى نجا من خوفه وما نجا)[1] وقول المحدث هو أبو الفتح البستي على الأصح:

نـاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نـاظِرَاهُ أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

الأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني. ورأيتك لم يزدك بمَذهَب ومُذهَب على أن أسمعك حروفاً مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس – وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة – من حُلَى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصرَّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين..» .

---

= كما يقال: «ذهب فلان بالمجد» أي حازه وصار له، وعلى الضم يكون المعنى ذهبت بثيابه المُذهبة. أي أنه يخلعها ويبذلها هبة وعطاء، مذهب: إدمانٌ وتوسوس في عمل ما. يقول: «إنه يبذل حتى رداءه الثمين في العطاء حتى التبس أمره على الناس فلم يدروا إذا كان ما يصدر منه عن عقيدة عاقلة أم أنه خرج فيه عن طوره لأنه خرق به مألوف عادته، والمعنى أنه يدأب على ما يثير دهشة الآخرين من العطاء فلا يفقهون له تفسيراً» .

(١) (نجا) الأولى بمعنى أحدث – من الحدث الذي ينقض الوضوء – والثانية بمعنى خَلَصَ.

«... وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه، وأعلاه وأحقه بالحُسْن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهُّبٍ لطلبه، أو ما هو لحُسْن ملائمته – وإن كان مطلوباً – بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة. وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعي – رحمه الله تعالى – وقد سئل عن النبيذ فقال: (أجمع أهل الحرمين على تحريمه» ومما تجده كذلك قول البحتري[(١)]:

يَعْشَى عَنِ المَجْدِ الغَبِيُّ وَلَنْ تَرى ... في سُؤْدُدٍ أرَبـاً لِغَيْـرِ أريـبِ»[(٢)]

وإليك أمثلة لكل من النوعين.

١- **الجناس التام:**

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم:٥٥]، فقد ذكرت الساعة مرتين ولكل منهما معنى، فالساعة الأولى القيامة، والثانية الجزء من الزمن. ومنه قولك: «علا قدر النبي ﷺ على كل قدر» فالكلمة الأولى فعل، والثانية حرف. وقال الشاعر:

نـاظِرَاهُ فِيمَـا جَنَـى نـاظِرَاهُ ... أوْ دَعَـانِي بِمَـا أَمُـتْ أوْدَعَـانِي

فالكلمة الأولى وهي ناظراه فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعل، والكلمة الثانية مرفوعة بالألف لأنها مثنى، وكذلك كلمة أو دعاني، فهي مركبة من كلمتين (أو) وهي حرف عطف، و(دعاني) وهي فعل أمر بمعنى اتركاني، وأما أودعاني الثاني فهي فعل ماض.

---

(١) ديوان البحتري، ١/ ٦٤٥. والبيت من قصيدة في مدح إسحاق بن نوبخت، يعشى: من عشى، أي: ساء بصره في الليل والنهار، السؤدد: الشرف والرفعة.

(٢) أسرار البلاغة، ص١٧-٢٠.

ومنه قول أبي تمام:

فَأَصْبَحَتْ غُرَرُ الأَيَّامِ مُشْرِقَةً ... بالنَّصرِ تَضْحَكُ مِنْ أَيَّامِكَ الغُرَرُ

فالغرر الأولى بمعنى البياض والإشراق، والثانية بمعنى الكرم والشرف.

وقال كذلك[1]:

مَا مَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فإنَّهُ ... يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بنِ عَبْدِ الله

فـ (يحيا) الأولى من الحياة وهي فعل، والثانية اسم لشخص، ومنه قول الآخر في رثاء صغير:

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ ... إلى رَدِّ أَمْرِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وقال أبو نواس[2]:

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إذا احْتَدَمَ الوَغَى ... والفَضْلُ فَضْلٌ والرَّبِيعُ ربيعُ

وقال المتنبي:

لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ اتسقتْ أُمُورٌ ... رَأَيْنَاهَا مُبَدَّدَةَ النِّظَامِ

سَمَا وحَمَى بَنِي سَامٍ وَحَامٍ ... فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ سَامٍ وَحَامِ

فـ (سام وحام) في الشطر الأول من البيت الثاني هما ولدان من أولاد نوح عليه السلام وقوله: (سام وحام) في الشطر الثاني من السمو والحماية. وقال أبو سعيد المخزومي[3]:

حَدَقُ الآجَالِ آجَالُ ... وَالهَوى لِلْمَرْءِ قَتَّالُ

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/٣٤١.

(٢) ديوان أبي نواس، ص٩٢.

(٣) الوافي في العروض والقوافي، ورقة ٦٦. تحرير التحبير، ص٣٩٣.

فالآجال الأولى جمع (إجْل) بكسر الهمزة، وسكون الجيم، وهو القطيع من بقر الوحش، والثانية جمع (أجَل) بفتح الهمزة وفتح الجيم وهو أمد العمر.. وقال أبو تمام[1]:

إذا الخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الحَرْبِ صَدَّعُوا صُـدُورَ العَـوالي في صُدُورِ الكَتَائِـبِ

فـ (صدور) الأولى بمعنى أعالي الرماح، والثانية نحور الأعداء. وقال آخر:

إذا رَمَـاكَ الـدَّهْرُ في مَعْـشَرٍ قَـدْ أجْمَـعَ النَّـاسُ عَلَـى بُغْـضِهِمْ

فَــدارِهِمْ مَـا دُمْـتَ في دَارِهِـمْ وَأرْضِـهِمْ مَـا دُمْـتَ في أرْضِـهِم

(فدارهم) الأولى وهي فعل أمر والثانية اسم، وكذلك (أرضهم) فالأولى أمر والثانية اسم. وقال أبو العلاء المعري:

لَـمْ نَلْـقَ غَيْـرَكَ إنـساناً يُـلاذ بـهِ فَـلا بَرِحْـتَ لِعَـيْنِ الـدَّهْرِ إنـسانا

فـ (إنسان) الأولى جنس بني آدم، والثانية ما يُرى في سواد العين. وقال أبو الفتح البستي[2]:

كُلُّكُـمْ قَـدْ أخَـذَ الجَـامَ وَلاَ جَـامَ لَنَـا

مَـا الَّـذي ضَـرَّ مُـديرَ الجَـامِ لَـوْ جَامَلَنَـا

فاللفظ الأول مركب من كلمتين هما (جام) بمعنى الكأس، و(لنا) جار ومجرور، والثاني مفرد وهو فعل ماض من المجاملة، بمعنى (عاملنا بالجميل).

ومثل هذه الأقوال المشتهرة:

رَأيْـتُ النَّـاسَ قَـدْ مَـالَوا إلى مَـنْ عِنْـدَهُ مَـالُ

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/ ٢٠٧. والبيت من قصيدة في مدح أبي دلف العجلي، يقول: إذا شقّت الخيلُ غبار الحرب فإنهم يطعنون الأبطال بالرماح حتى يكسّروها في صدورهم.

(٢) الإيضاح، ٦/ ٩٤. معاهد التنصيص، ٣/ ٢٢١.

وَمَــنْ لاَ عِنْــدَهُ مَــالُ فَعَنْــهُ النَّــاسُ قَــدْ مَــالُوا

رَأَيْــتُ النَّــاس قَــدْ ذهَبُــوا إلى مَــنْ عِنْــدَهُ ذهَــبُ

وَمَــنْ لاَ عِنْــدَهُ ذهَــبُ فَعَنْــهُ النَّــاسُ قَــدْ ذهَبُــوا

**٢- الجناس الناقص:**

قلنا: إن الجناس الناقص أن تختلف الكلمتان في نوع الحرف أو شكله أو عدده أو ترتيبه. فالاختلاف في نوع الحروف كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:٩-١٠]، فقد اختلف اللفظان (تقهر وتنهر) في حرفي القاف والنون. وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦]، فاختلفت الكلمتان في حرف الهمزة وحرف الهاء. ومنه قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير»(١) فاختلفت الكلمتان (الخيل والخير) في حرف اللام والراء. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٨٣]، فكلمة (أمر) وكلمة (أمن) اختلفتا في حرف الراء وحرف النون. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]، وقال البحتري(٢):

أَلِمَــا فَــاتَ مِــنْ تَــلاقٍ تَــلافٍ أَمْ لِــشَاكٍ مِــنَ الــصَّبابَةِ شَــافِ

فاختلفت كل كلمتين من (تلاق وتلاف) و(شاك وشاف) في حرف من حروفهما وقال كذلك(٣):

نسيمُ الـرَّوْضِ فِـي ريـحِ شَـمَالٍ وَصَــوْبُ المُـزْنِ في رَاحِ شَـمُولِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، حديث ١٦.

(٢) ديوان البحتري، ٢/ ٦٠١. التلافي: التدارك. والمعنى: هل يمكن أن يُدرك ما فات؟! .

(٣) ديوان البحتري، ٢/ ١٦٠. العمدة، ١/ ٢٢٣. الصوب: الانصباب والنزول، المزن: السحاب، شمول: الخمر، وقيل: البارد منها، الراح: الوعاء الذي يوضع الخمر فيه.

ومن الاختلاف في شكل الحروف قول ابن الفارض[1]:

هلاّ نهاكَ نُهاكَ عَنْ لَوْمِ امْرئٍ　　لَمْ يُلْفَ غيْرَ مُنعَّمٍ بشَقاءِ

فـ (نهاك) الأولى مفتوحة النون وهي فعل، والثانية مضمومة وهي بمعنى العقل ومنه قول أبي العلاء[2]:

والحُسْنُ يَظْهَرُ في بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ　　بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ أوْ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ

فالأول ساكن العين بمعنى النظم، والثاني مفتوح العين وهو الشعر المعروف. وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:٧٢-٧٣]، فالمنذرين الأولى بكسر الذال اسم فاعل، والثانية بفتح الذال اسم مفعول.

ومن الاختلاف في عدد الحروف قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة:٢٩-٣٠]، فعدد حروف المساق زائد على عدد حروف كلمة الساق. وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

إنَّ البُكَاءَ هُوَ الشِّفَاءُ　　مِنَ الجَوَى بَيْنَ الجَوانحِ

فالجوانح عدد حروفها زائد عن عدد حروف كلمة الجوى. وكقول أبي تمام[3]:

يَمُدُّونَ مِنْ أيْدٍ عَواصٍ عَواصِمٍ　　تَصُولُ بأسْيافٍ قَواضٍ قَواضِبِ

---

(١) ديوان ابن الفارض، ص٦٧.

(٢) ديوان سقط الزند، ص١٠٧.

(٣) ديوان أبي تمام، ٢/ ٢١٣. يقول: إنهم يمدون أيديهم الصلبة التي تأبى الذل بسيوف قاطعة تقطع بالحق على الباطل.

وقال البحتري[(١)]:

لَـئِنْ صَـدَفَتْ عَنَّـا فُرُبَّـةَ أَنْفُـسٍ صَوادٍ إِلى تِلْكَ الخُـدُودِ الـصَوادِفِ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه[(٢)]:

وكُنَّـا متـى يَغْـزُ الـنَّبِيُّ قَبيلَـةً نـصِلْ جانِبَيْـهِ بالقَنَـا وَالقَنابِـلِ

ومن الاختلاف في ترتيب الحروف، قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وتَحْمِلُـهُ النَّاقَـةُ الأَدْمَـاءُ مُعْتَجِـراً بالبُرْدِ كَالبَدْرِ جَلَّى نُورُهُ الظُّلَمَـا[(٣)]

والشاهد في قوله: «البرد وكالبدر» ومنه قول أبي الطيب[(٤)]:

مُنعَّمَـــــــةٌ مُمَنَّعَـــــــةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّـفُ لَفْظُهَـا الطَّيْـرَ الوُقُوعـا

أي: ممنعة يمنعها أهلها ويحمونها، ورداح ضخمة الإلية أو ثقيلة الأوراك والشاهد في قوله ممنعة ومنعمة.

وقال أبو تمام[(٥)]:

---

(١) ديوان البحتري، ٢/١٠٣. والبيت ن قصيدة في مدح إسحاق التبريدي، صدفت: مالت، الصوادي: الشديدة العطش، وفي رواية (إلى تلك الوجوه)، الصوادف: المائلة، رُبَّة مثل ثمّة يقال رُبَّ وربّة.

(٢) ديوان حسان بن ثابت – رضي الله عنه – ص ٣١٥. القنابل: جمع قنبلة – بفتح القاف: وهي الجماعة من الخيل ومن الناس: يقول: متى يغز النبي قبيلة نحدق به بخيلنا وسلاحنا ذائدين عنه مدافعين.

(٣) معتجراً، أي: لافاً العمامة على رأسه.

(٤) ديوان المتنبي، ٢/٣٥٨. امرأة رداح: ضخمة العجيزة ثقيلة الأوراك، كذلك ناقة رداح وكبش رداح، أي: ضخم الإلية، ودوحة رداح، أي: عظيمة. يقول: إذا سمعت الطير لفظها وقعت لحسنه.

(٥) ديوان أبي تمام ١/٤٠. من قصيدته المشهورة في مدح المعتصم بعد فتح عمورية. وعنى بالصحائف: جمع صحيفة – وبالصفائح – جمع صفيحة – السيوف.

بيضُ الصَّفَائحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ في مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

وقول الأحنف:

حُسَامُكَ فيهِ للأحْبابِ فَتْحٌ وَرُمْحُكَ فيهِ للأعْدَاءِ حَتْفُ

والشاهد في قوله: فتح وحتف.

وإليك أمثلة مما اشتهر على الألسنة من هذا النوع من جناس تام أو جناس ناقص.

قال بعض الحكماء: ((الدنيا دارُ مفر وليست دار مقر، فلا تغتر فيها بأمل فإنما تفتر لك عن ألم، فهي إذا حلت أوحلت، وإذا رمت أورمت، وإذا أقبلت بلت وإذا صبت أوْصبت، وهذه القبور تُبنى ولكننا ما تُبْنا، فأدِم النظر وكن على حذر، واعلم أن خير المعاني ما يحبب إليك المعالي ويبعدك عن المعاصي)).

وقال آخر: ((الخيبة تذهب بالهيبة، والمنيّة تضحك من الأمْنية، كما تضحك القبور من القصور، فخذ العِبرة واسكب العَبْرة، واعلم أن خير المعاشرة ما يوجب المباشرة، فدع التهجم والتهكم، وتجنب التعدي والتحدي، واحذر العدو إلا على عدو أدار لك حربته ونبله، وأراد لك أن تذل وتبلى، واعلم أن لكل مستبد علامات فإذا علا مات)).

## المبحث الثاني

# السجع

من المحسنات اللفظية السجع: وهو أن تتفق الفاصلتان في الحرف الأخير، والفاصلة في النثر كالقافية في الشعر، وتسمى كل من الجملتين فقرة، وأحسن السجع ما تساوت فِقَره.

واعلم أن السجع مأخوذ من قولهم: سجعت الحمامة، ولا يكون محموداً مقبولاً، إلا إذا كان غير متكلف، وكان اللفظ فيه تابعاً للمعنى، أما إذا كان متكلفاً وكان المعنى تابعاً فيه للفظ فهو من السجع المذموم، وقد ذمه النبي ﷺ في قوله: «أسجعاً كسجع الكُهّان»[1].

ومثال السجع المحمود ما جاء في الحديث الشريف: «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً»[2]، وقال ﷺ: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم»[3].

---

(١) رواه مسلم كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني باب (١١) حديث ١٦٨٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

(٣) كشف الخفاء، ١/ ٥١٤.

## المبحث الثالث

# ردُّ العجز على الصدر

من المحسنات اللفظية في علم البديع رد العجز على الصدر، ورد العجز على الصدر يكون في النثر وفي الشعر، وهو أن نأتي بلفظين مكررين أو متجانسين فنجعل أحدهما في أول الجملة والآخر في آخرها، أو أن يكون أحدهما في الشطر الأول من الشعر والثاني في الشطر الآخر، وإنما قلنا أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، لأن اللفظتين قد تكونان من معنى واحد ومن مادة واحدة، وقد يكون كل منهما من مادة.

فمثال اللفظتين المختلفتين من حيث المادة قوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨]، فكلمة قال من القول، وكلمة قالين من القِلى وهو البغض، قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣]، وقولك: «سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل» فسائل الأولى من السؤال والثانية من السيلان. وقولك: «رب قوم لا يشربون الماء وإنما يشربون رُبّا» فرب الأولى حرف للتقليل والثانية عصير العنب، وقولك: «ما جارَ مثلُ مَنْ أهانَ جاره» . وهو قريب من الجناس كما ترى، إلا أن هذا جاءت إحدى الكلمتين في أول الجملة والثانية في آخرها، ولا يشترطون ذلك في الجناس. والجناس لابد فيه من اختلاف الكلمتين من حيث المعنى، وقد يتحد المعنى هنا.

مثال الثاني: أي ما اتحدت مادته قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]، وقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

ومثاله في الشعر قول المغيرة بن عبدالله (الأُقَيشر) [1]:

(١) الأغاني، ١٠/ ٨٤-٩٧. تحرير التحبير، ص١١٦.

سَـرِيعٌ إلى ابْـنِ العَـمِّ يَلْطِـمُ خَـدَّهُ     وَلَـيْسَ إلى دَاعِــي النَّـدَى بِـسَرِيعِ

ومنه قول المعري[1]:

فَوَاعَجَبا كَمْ يَـدَّعِي الفَـضْلَ نـاقِصٌ     وَوَا أَسَفَا كَمْ يُظْهِـرُ الـنَّقْصَ فاضِـلُ

ونكتفي بهذا القدر وإذا أردت مزيداً فارجع إلى إيضاح القزويني، أو تحرير التحبير لابن أبي الأصبع، وستجد مصداقية ما قلته لك من قبل، من أنك ستجد التكرار أو التكلف أو التداخل في كثير من هذه التي سموها محسنات[2].

(١) ديوان سقط الزند، ص٢٢٩.

(٢) وإذا أردت المزيد فانظر كتابنا «البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان والبديع»، لتعرف بدائع القرآن وبدائع السنّة المشرفة، ص٣١١-٣٢٢.